

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم سماحة الشيخ العلامة: يوسف القرضاوي

الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما شاء ربنا من شيء بعد، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة للعالمين، والنعمة المسداة للمؤمنين، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد ...

فهذا هو الجزء السابع من ديوان خطبي، وهو يتميز بخصوصيتين عن غيره من الأجزاء الماضية:

أولاهما: أن معظم خطبه من «القديم» أي ليس من خطب مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، ولا غيره من مساجد قطر. بل هي خطب قديمة جُلها ألقى في مسجد «آل طه» بالمحلة الكبرى، الذي بدأ الخطابة فيه وأنا طالب بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف؛ وكان ذلك سنة 1951، وظللت أعتلي منبره حتى صيف سنة 1954م، حين تخطفتنا «كلاب الصيد» وألقت بنا في السجن الحربي، ولم أعد بعدها إلى هذا المسجد.

كنت ألقى خطبتي ارتجالًا، كما هي عادتي منذ اعتليت المنبر، وأنا ابن سبعة عشر عامًا في قريتي. وإلى اليوم. ولم يكن «التسجيل» قد عرف واشتهر في ذلك الوقت، فلا مطمع في أن توجد هذه الخطب مسجلة عن

طريق الأجهزة المعروفة.

ولكن الله رزقني بـ «مسجل بشري» ممتاز، يسجل هذه الخطب بطريقته الخاصة، ويقدمها لي مكتوبة بعد ذلك. ذلكم هو الأخ الحبيب الأديب الشاعر الداعية الموفق، ابن المحلة، وابن الأزهر، وابن الدعوة: الأستاذ: محمد أحمد حوטר، الذي كان طالبًا في المعهد الديني الأزهرى الثانوي بطنطا في ذلك الوقت.

وكان قد آلى على نفسه أن يسجل هذه الخطب ويحفظها للمسلمين عامة، وللدعاة خاصة، حتى لا تضيع بعد إلقائها.

وكانت طريقته أن يحضر «كشكولاً» وعدة أقلام من الرصاص، يبريها له زميل مرافق، وهو يكتب أول الآية، ولا يكملها، وكذلك الأحاديث، ونصوص الحكم والأشعار وغيرها. وهو يكتب بسرعة عجيبة، وبخط لا يستطيع غيره أن يقرأه، بل هو لا يستطيع أن يقرأه إذا تركها لليوم التالي، ولذلك يجتهد أن «يبيضها» في نفس اليوم، وهو يذكر الكلمات والعبارات.

كان قد تكون من ذلك مجموعة من الخطب، اقترح علي بعض الأخوة أن أصدرها في ديوان سميته «نفحات الجمعة» ولكن الظروف الأمنية لم تسمح بصدوره.

وكننت أحسب أن هذه الخطب كلها قد ضاعت فيما ضاع من أدبي وشعري وكتاباتي، في أتون المحن المتلاحقة التي أصابت الإخوان المسلمين في مصر.

ولكن شاء الله تعالى أن تظهر أشياء كانت خافية عني، تائهة في تلال

الأوراق المختلفة التي أعاني من البحث فيها، وذلك حين انتقالي من مسكن إلى آخر بالدوحة. فقد عثر سكرتيري العلمي بالدوحة الأخ الشيخ أكرم عبد الستار كساب، وهو يفتش مع بعض مساعديه في أضايبيري وأوراقي القديم، على مجموعة من الخطب القديمة، مكتوبة بخط الأخ الحبيب محمد حوטר، أتم الله عليه العافية، وعجل له الشفاء من مرضه الذي أقعده منذ سنوات.

وأضيف إلى هذه الخطب المكتوبة بخط حوטר - خطبة أخرى، مكتوبة بخطي أذيعت من جامع الزمالك بالقاهرة، الذي كنت أخطب فيه، أواخر (سنة 1956م وسنة 1957) بعد العدوان الثلاثي على مصر، وكانت إذاعة القاهرة تذيع الخطبة من مسجد الزمالك كل عدة أشهر، وتطلب مني أن أكتبها، وأرسلها إليهم قبل أن تذاع، حتى يقرؤوها ويقروها. فوجد هذه الخطبة من خطب الزمالك، وهي عن جهاد الجزائر أيام حرب التحرير الجزائرية المباركة، وقد أريتها للأخوة في الجزائر عندما زرتهم قريباً في «ملتقى الإمام البشير الإبراهيمي» فسروا بها كثيراً، وقالوا: كأنك كنت تعيش الجهاد الجزائري لحظة بلحظة، واستأذنوني في أن ينشروها.

ولقد قرأ الأخ أكرم وإخوانه هذه الخطب القديمة وأعجبوا بها أيما إعجاب، وقالوا: من يقرأ تلك الخطب منذ خمسين سنة أو أكثر لا يجدها تختلف كثيراً عن خطب اليوم، النهج هو النهج، والروح هي الروح، والأسلوب هو الأسلوب، وإن كانت خطب اليوم تمتاز بأفق أوسع، وعلم أغزر، وفكر أنضج، بحكم تراكم المعرفة والخبرة، وعمق التجربة، كما لوحظ أن الخطب القديمة كثيراً ما يغلب عليها حماس الشباب. ورأوا أن تضاف إلى الخطب المنشورة في الأجزاء السابقة لما لها من دلالة تاريخية.

والخصوصية الثانية لهذه المجموعة: أنها لم تحظ بإعداد الأخ الفاضل الدكتور خالد السعد الذي تولى إعداد خطب الأجزاء الماضية، جزاه الله خيرًا. ولكن قام مقامه في هذا الجزء: ابننا المهذب، وتلميذنا النجيب، وأخونا الكريم: أكرم عبد الستار كساب، الذي علق على هذه المجموعة، ورقم آياتها، وخرج أحاديثها، وأعدّها للنشر. فشكر الله له، وجزاه عني وعن المسلمين خيرًا.

ولا سيما أنني في تلك المرحلة من حياتي؛ لم أكن متمكنًا من معرفة الحديث ونقده، من حيث التصحيح والتضعيف، وإنما اكتسبت هذه الخبرة بعد. ولذا وجد في هذه الخطب الحديث الضعيف والواهي.

وكان جل اعتمادي على كتابين: «الترغيب والترهيب» للمنذري، قبل أن أنظر فيه بعد ذلك، وأحذف منه المنكر والواهي والضعيف، وأنتقي منه الصحيح والحسن، وأصدرت ذلك في «المنتقى من الترغيب والترهيب».

والكتاب الثاني، هو: أحاديث كتاب «الإحياء» للغزالي، قبل أن أنتبه إلى تخريج الحافظ العراقي لهذه الأحاديث لهذه الأحاديث انتباهًا كافيًا.

وقد أكملنا هذا الجزء، باختيار ثمانية خطب من الخطب الحديثة، ليكتمل العدد عشرين، وقد التزمنا منذ بداية نشر الخطب: أن يكون كل جزء يشتمل على عشرين خطبة.

وبهذا تميز هذا الجزء بالجمع بين يوسف القرضاوي ابن العشرين، ويوسف القرضاوي ابن السبعين.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الخطب قائلها، ومسجلها بقلمه، ومعدّها

للنشر، وطابعها، وناشرها، وقارئها، وكل من أعان على الانتفاع بها، ووفق الجميع لما يحب ويرضى.

والحمد لله الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الدوحة في: 16 جمادي الأولى 1426هـ

23 يونيو 2005م

الفقير إلى الله

يوسف القرضاوي

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغديه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك على هذا الرسول الكريم، وارض اللهم عن آله وصحابه أجمعين.

أما بعد:

فقد كلفني فضيلة شيخنا العلامة يوسف القرضاوي أن أشرف على هذه المجموعة من الخطب وأغلبها من الخطب القديمة، التي كانت في طي النسيان، وكان الشيخ يعدها ضمن المفقود من تراثه - وما أكثره - وأصل العديد من هذه الخطب كان التلميذ النجيب، والصديق الحبيب للشيخ، الأستاذ: «محمد حوטר» قد قام بجمعها وتحريرها منذ قرابة نصف قرن.

ولما كانت العادة قد جرت على أن يكتب الأخ الفاضل الدكتور: خالد السعد تقديمًا لهذه الخطب، فقد استأذنت شيخنا أن أقوم بهذا التقديم، وبخاصة أن هذا التقديم هو جزء مما كتبتَه عن فضيلة الشيخ في كتابي «المنهج الدعوي عند القرضاوي»⁽¹⁾ وقد وافق الشيخ مشكورًا على هذا الطلب وإن تحفظ في أول الأمر.

(1)، وهو تحت الطبع وستقوم بطبعه مكتبة وهبة إن شاء الله.

مكانة الخطبة:

تعد الخطبة من أقدم الوسائل الدعوية وأنجحها، يأتي الناس لها طواعية مختارين، وقد اشتهر في القديم وفي الحديث خطباء بارعون، هزوا أعواد المنابر، فأطرقت لهم الرؤوس واشربت لهم الأعناق وسكنت لهم النفوس، وانقادت لهم الجوارح والأبدان.

ومن منا لا يذكر علي بن أبي طالب، والأحنف بن قيس، وطارق بن زياد، وابن أبيه، والحسن البصري، وابن الجوزي، وغيرهم رحمهم الله تعالى.

الشيخ فارس في هذا الميدان:

والشيخ القرضاوي ظظظ فارس في هذا الميدان، منذ أن اعتلى المنبر وهو في العقد الثاني من عمره إلى وقتنا هذا، وهو في العقد الثامن من عمره - أطال الله في عمره - تسمعه فكأنما تسمع شاباً لم يتجاوز الثلاثين أو الأربعين، كأنما هو أسد يزأر، أو سيل يزحف.

وتحسب حين تسمع القرضاوي أنه قد رضع حقاً من أثناء الشريعة الغراء، وتضلع من صدر الملة السمحاء.

إن مما يمتاز به القرضاوي - أحسبه كذلك ولا أزكيه على الله تعالى - أنه موصول بالله؛ فإذا تكلم فبتأييد من الله، لذا تراه يتحدث في أدق المعاني بكلمات تشعر أنها هادئة، لكنها والله رائعة، وبسيطة لكنها مؤثرة، وبريئة لكنها مجلجلة.

مؤهلات القرضاوي الخطابية:

وقد ساعد الشيخ على ذلك: علمه الغزير، وثقافته الواسعة؛ الشرعية وغير

الشرعية، وموضوعاته الغنية، ولغته الجميلة، وعرضه الرائع، ولهجته الصادقة، ولسانه الفصيح، وصوته القوي، وأسلوبه الرصين، وذاكرته القوية. إنه إذا خطب يخيل إليك أنه ينتقي ألفاظه انتقاء، وكأن الكلمات بين يديه يأخذ منها ما يشاء ويدع ما يشاء، مما يزيد رباطة في جأشه، وقوة في قلبه، وثقة في نفسه.

وللشيخ قدرة غريبة في استحضار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فضلاً عن أقوال العلماء، وحكم الحكماء، وأشعار السابقين، وتجارب اللاحقين.

وأعجب ما في خطب الشيخ: أنه يجمع بين فقه الفقيه، وبلاغة الأديب، وحرارة الداعية، وروح المربي، وأصالة العالم، ورواية المحدث، وحس المؤرخ، ودقة المناظر، وترتيب المحاضر، فترى كلماته كأنها كائن حي، كأنما هي طائرة له أجنحة، أو إنسان له قلب يخفق، ولسان ينطق.

وعلى بلاغة الشيخ وأدبه، فإنك لا ترى في خطبه سجعا متكلفا، ولا ألفاظا غريبة، ولا جملا غير مرتبطة، بل هي قطع من الأدب دونما تكلف أو نصب.

موضوعات الخطبة عند القرضاوي ...

وخطب الشيخ ليست من الخطب الموسمية، التي لا تنتفك عن مواسم العام؛ فخطبة عن الهجرة، وأخرى عن المولد النبوي، وثالثة عن الإسراء والمعراج، وهكذا، لا، ولكن خطب الشيخ تراها خطبا تثبت العقيدة، وتصلح العبادة، وتقوم الأخلاق، وتبين أسس التعامل بين الناس.

إنها خطب تمس الواقع في كل مجالاته: الفردية والأسرية، والاجتماعية، والثقافية، والسياسية والاقتصادية؛ فتعالج أمراضه، وتقوم اعوجاجه، وتصحح أخطاءه، وتشد على يد التائب، وتأخذ بيد العاصي، وتوجه المخطئ، وتوقظ النائم، وتحرك الراكد، وتنبه الغافل، وترد الشارد، وتعلم الجاهل، وتهدي الحائر، وتبصر العمي، وتنفخ الروح في الجثث الهامدة.

إنها خطب: «تقدم الدين عقيدة سليمة، وعبادة خالصة، وأخلاقاً فاضلة، وآداباً سامية، وأعمالاً صالحة، وتشريعات عادلة، وعلومًا نافعة، وفنونًا راقية، وحضارة متوازنة»⁽²⁾.

وأبرز ما في خطب الشيخ أنه لا ينكفي على القديم دون أن يعرج على الجديد، بل هو دائم التجديد في خطبه، باحث عن مشاكل أمته، لينبه عليها، داعيًا مستمعيه إلى مشاركة إخوانهم في مصائبهم، ومعايشتهم في مآسيهم، فتراه تارة يذكر بقضية فلسطين، وتارة بقضية الأفغان، وثالثة بالعراق، ورابعة بكشمير، وخامسة بتركيا، وسادسة وسابعة ... ثم يعود أدراجه ليعود إلى قضية فلسطين والأقصى من جديد.

والمتابع لخطب الشيخ القرضاوي يدرك أن الشيخ يختار خطبه بعناية ودقة، وخطب الشيخ ليست من الخطب النمطية المعروفة، لكنها خطب إن شئت سمها خطبًا سياسية اجتماعية اقتصادية أخلاقية عبادية عقديّة تاريخية؛ إنها خطب تجمع بين الدين والدنيا، وتربط الدنيا بالأخرة، لكن الرائحة السياسية لا شك تفوح من هذه الخطب، لأن الشيخ إنما فهم الدين كذلك: عقيدة

(2) انظر: خطب القرضاوي (ج 1 ص 9).

وشريعة، عبادة ومعاملة، دينًا ودنيا، دعوة ودولة، وانظر عناوين هذه الخطب لتدرك المعنى:

- 1 - زلزال مصر.
- 2 - مرض الإيدز.
- 3 - توحيد العرب تحت راية الإسلام.
- 4 - القمر الصناعي الإسرائيلي.
- 5 - الذكرى السنوية للانتفاضة.
- 6 - قضية المرتد سلمان رشدي.
- 7 - العدوان على الكويت.
- 8 - اتفاقية غزة وأريحا.
- 9 - حقائق حول أزمة الخليج.
- 10 - مأساة المسلمين في البوسنة.
- 11 - الصحوة الإسلامية بين المتشائمين والمتفائلين.
- 12 - الاستنساخ في البشر وأضراره.
- 13 - توضيح الحق في فوائد البنوك.
- 14 - حقوق الإنسان في الإسلام.
- 15 - معركة الحجاب في فرنسا.

16 - مؤتمر السكان في القاهرة.

17 - هدم المسجد البابري

18 - القنبلة النووية الباكستانية.

19 - أمتنا لن تموت.

20 - وا قدساه.

21 - رسالة إلى المؤتمر الإسلامي التاسع.

22 - مشروع الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية.

23 - التنصير في منطقة الخليج.

24 - المسلمون في أمريكا الجنوبية.

وغيرها من خطبه النافعة الجامعة.

إن خطب القرضاوي ليست مجرد كلام يقال، بل هي: تربية وتعليم وترشيد وتفهم، وبيان وتعريف، وتقويه وتنقيف، وكلها تنبع من واقعه الذي يحياه، وآلامه وآماله، التي يعيشها، ومن ثم فهو يعيش الخطبة بقلبه وبعقله، ويحياها بعواطفه وجوانحه، فإذا تكلم بكلم بعروقه ودمه، وهذا ما يظهر في قسامات وجهه، وبريق عينيه، وعبارات لسانه، ونبرات صوته، وحركات يديه، وإشارات أصابعه.

ومن ثم تراه يُضحك جمهوره تارة، ويبيكيهم تارة أخرى، ربما في خطبة واحدة دونما تكلف مصطنع، أو تصنع متكلف.

والحق أن الخطابة عند القرضاوي: نداء صارخ، وصوت قوي، من قلب مهموم، وفؤاد مكلوم، وهي علم نافع، وثقافة هادية، من عقل بصير، وفؤاد مستنير، ولب ملهوف، وشخص مشفق محب، وإنسان ناصح أمين، موجه إلى قلوب شاردة لتعود، وأشخاص غافلة لتتنبه، وإلى العقول المستتيرة لتزداد نوراً، وإلى القلوب المهتدية لتزداد هدى.

مميزات الخطبة عند القرضاوي:

للخطابة عند القرضاوي مميزات عدة؛ ومن أهم هذه المميزات:

- 1 - ارتباط الخطبة بالواقع الذي يعيشه المسلمون.
- 2 - اشتمال الخطبة على أهم قواعد الدين، من عقيدة سليمة، وعبادة خالصة، وأخلاق فاضلة، وآداب سامية، وأعمال صالحة، وتشريعات عادلة وحضارة متوازنة.
- 3 - الجمع بين الأصالة والمعاصرة.
- 4 - توثيق الخطبة بالأدلة الموثقة.
- 5 - البعد عن إسرائيليات التفسير ومنكرات الحديث، وخرافات العوام وأوهام الخواص.
- 6 - الاعتدال والوسطية في عرض القضايا بعيداً عن غلو المغالين وتقريط المتسيبين.
- 7 - الأسلوب الأدبي الرصين.
- 8 - الأداء الحي الفعال.

- 9 - مخاطبة العقل وتحريك العواطف.
- 10 - التركيز على مشاكل الأمة وقضاياها.
- 11 - التنوع في الموضوعات.
- 12 - الغزارة في الأدلة.
- 13 - البعد عن المسائل الفرعية الخلافية.
- 14 - استقلاله بذاته وعدم تقليده لأحد.
- 15 - الشمول والتكامل.
- 16 - عدم التكلف أو الاصطناع.
- 17 - رد شبه المتطاولين من الكفار والملحدين والمنافقين.

«مشوار» القرضاوي الخطابي:

مشوار الشيخ الخطابي طويل، بدأه الشيخ في قرينته «صفت تراب» واستمر المشوار حتى انتهى به المطاف في مسجد عمر بن الخطاب بقطر، مرورًا بمسجد آل طه في المحلة ومسجد الزمالك بالقاهرة، وساحات المعتقلات ومسجد أبي بكر الصديق بقطر، ومساجد في أقطار شتى.

لقد خطب القرضاوي في قارات الدنيا الخمس، في أفريقية، وفي آسيا. وفي أوروبا. وفي الأمريكتين، وفي أستراليا.

ويذكر الشيخ أن أول خطبة منبرية له كانت وهو في السنة الرابعة من المرحلة الابتدائية، وطلب من الشيخ أن يلقي خطبة في أحد مساجد قرينته «مسجد المتولي» بعدما عرف الشيخ بإلقاء الدروس، فأعد الشيخ خطبة كتب

الله له فيها التوفيق، كانت تحت عنوان «الشكر لله»، وقد أثنى الناس خيرًا على الشيخ، ويرجع ذلك لكونه لم يفقد أحدًا لكنه تقمص شخصيته هو⁽³⁾. وأخذ الشيخ يتنقل بين مساجد القرية كلما سنحت له فرصة، وقد ساعده على ذلك انضمامه لجماعة الإخوان المسلمين، فاعتبروه داعية من دعائها يجوب القرى والمدن فيما عرف وقتها بمديرية الغربية.

وبعد انتقال الشيخ إلى القاهرة بعد إتمام المرحلة الثانوية، كثرت أعباءه ومتطلباته، ففكر الشيخ في البحث عن عمل ليفي بحاجاته، وأشار عليه صديقه «محمد الدمرداش» بالتقديم في وزارة التربية والتعليم للعمل كمدرس، لكن الشيخ رفض هذا الاقتراح حتى لا ينقطع عن القاهرة مركز الدعوة والنشاط والحركة؛ فدلّه بعض إخوانه على مسجد يبني بالمحلة الكبرى على أن يكون خطيبًا فيه، فذهب الشيخ إلى أصحاب المسجد وهم أسرة «آل طه» واتفق معهم، وتم افتتاح المسجد، وبدأت الأقدام تصطف في داخل المسجد وخارجه، حتى تم بناء مبنى آخر من عدة طوابق بجوار المسجد ملحقة له، حتى غدا المسجد يطلق عليه «مسجد الشيخ يوسف» بعد أن أصبح الناس يتوافدون عليه من سمونود وطلخا، وطنطا، والمنصورة وغيرها⁽⁴⁾.

وبعد خروج الشيخ من السجن الحربي تم الاتصال به أيام العدوان الثلاثي، من قبل وزارة الأوقاف، ليعمل بمكافأة خطيبًا بجامع الزمالك سنة (1956م)،

(3) انظر: «ابن القرية والكتاب» (ج1/178)، وانظر: «خطب الشيخ القرضاوي» (ج1 ص5).

(4) انظر: «ابن القرية والكتاب» (ج1/444)، وانظر: «خطب الشيخ القرضاوي» (ج1 ص6).

وكان وزير الأوقاف وقتها الشيخ أحمد حسن الباقوري، فتم انتداب الشيخ الغزالي إلى الجامع الأزهر، على أن يحل القرضاوي مكانه في مسجد الزمالك، وكان اختيار القرضاوي لهذا المسجد لشعور المسؤولين بشدة الحاجة إلى خطباء مرموقين يعملون على رفع الروح المعنوية لدى الشعب، ويشعلون جذوة الحماس في صدره، ويبعثون الأمل في نفسه، ويمحون اليأس من قلبه، وذلك بعد العدوان الثلاثي على مصر.

وقد استمر الشيخ في هذا المسجد سنة ونصفًا، أو أقل ثم منع من استمرار خطابته بالمسجد.

ومنذ أن قدم الشيخ إلى قطر في عام (1381هـ - 1961م) بدأ يزاول مهمته ورسالته، واعتلى المنابر من جديد، ولم تكن الخطبة منتظمة في بداية حياته في قطر، ولما أنشئ مسجد «أبو بكر الصديق» أسندت الجمعة فيه إلى الشيخ، واستمر به إلى أن أنشئ مسجد «عمر بن الخطاب» فنقل إليه الشيخ إلى يومنا هذا ظظظ تعالى⁽⁵⁾.

وقد شرع أحد تلاميذ الشيخ ومحبيه من دولة البحرين، بجمع هذه الخطب وهو الدكتور/خالد خليفة السعد، فقام بتفريغها وتخريج أحاديثها، والتعليق عليها أحيانًا، وقد خرج منها ستة أجزاء حتى اليوم، وهذا الجزء السابع بين يدي القارئ، ويتلوه العديد من الأجزاء إن شاء الله.

القرضاوي يخطب جالسًا:

ولما طال العمر بالشيخ - أسأل الله ان يطيل عمره وأن يحسن عمله -

(5) انظر: «خطب الشيخ القرضاوي» (ج 1 ص 6، 7).

واشتد ألم ركبته عليه، اضطر الشيخ إلى أن يخطب جالساً، بعد أن أخذ يصلي جالساً منذ عدة سنوات، وعلى الرغم من هذا كله إلا أن حماسة الشيخ، وصراخاته الملهبة، ونبرته القوية، وصيحاته العالية، وكلماته المدوية ما زالت ولا تزال ترى في خطبه.

القرضاوي بين القديم والجديد في خطبه:

والقارئ لهذا الجزء الذي يجمع بين القديم والجديد من خطب الشيخ، سيرى أوجه التشابه الكثيرة والمتعددة بين القرضاوي في شبابه والقرضاوي في شبابه؛ سيجد الأدب والبلاغة، والشجاعة والحماسة، والفكرة والعبرة، والفكاهة والطرفة، كما أنه سيجد كذلك دقة المناظرة، وترتيب المحاضر، وأصالة الفقيه، وروح المربي، ووضوح الداعية.

ولكن الفرق البين، والبون الواضح بين القديم والجديد، هو رواية المحدث، التي تظهر واضحة جلييلة في الجديد، وهي غير موجودة في القديم، وهذا أمر لا يعيب شيخنا، فإن العالم لا يولد عالماً، والكبير لا يولد كبيراً.

إن أكثر ما يؤخذ على الشيخ في هذه الخطب هو اعتماده الواضح على كتابي «الترغيب والترهيب» للمنذري و«الإحياء» للإمام الغزالي، وقد أدى هذا الاعتماد إلى استشهد الشيخ بما سجله الغزالي رحمه الله في «إحيائه»، أو المنذري في «ترغيبه»، فكان الاستشهاد بالضعيف، وربما في أحيان قليلة بالضعيف جداً والواهي وهذا على مذهب جمهور المحدثين الذين قالوا بجواز العمل بالحديث الضعيف في الرقاق والترغيب والترهيب.

كما تجدر الإشارة إلى أن من الفروق الظاهرة بين القرضاوي في شبابه

والقرضاوي في شبيهه: هو الطول والقصر في الخطبة، فإذا كانت الخطبة في الجديد لا تقل عن ساعة؛ وإن قلت فبقليل، وهي في صفحاتها لا تقل عن الخمس عشرة صفحة، وقد تزيد أحياناً فتتجاوز العشرين. بينما هي في القديم عادة لا تتجاوز العشر صفحات إلا في القليل.

وأمر أخير أود الإشارة إليه وهو: أن هذه الخطب القديمة نمت وربت حتى غدت فيما بعد كتباً يشار إليها بالبنان، ويتحدث عنها الركبان.

نعم لقد نمت هذه الخطب وتأمل معي خطبتي «القرآن الكريم منهاجاً للفرد، والقرآن الكريم دستوراً للدولة»، وقارن بينهما وبين كتاب الشيخ «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» وأمعن النظر كذلك في خطبة التوبة، وقارن بينها وبين كتاب الشيخ «التوبة إلى الله» إن بين الخطبتين الأولين وكتاب «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» قرابة نصف قرن، وكذلك ما بين خطبة «التوبة» وكتاب «التوبة إلى الله»، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على رسوخ هذه الأصول في ذهن الشيخ، وأن طول الزمن لم يكن إلا مصقلاً لهذه الأفكار.

المنوفية أشمون/دروة

في: جمادي الآخرة 1426 هـ

يوليو 2005م

الفقير إلى عفو ربه

أكرم عبد الستار كساب

* * *

(1)

رسالتك أيها المسلم⁽⁶⁾

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور، أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على «المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»⁽⁷⁾، من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالًا مبينًا.

صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله على آله وأصحابه؛ **﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [الأعراف: 157]، ورضوان الله عن الذين يدعون بدعوته، المهتدين بسنته إلى يوم الدين.

أما بعد ... فيا معشر المسلمين:

(6) لفضيلة الشيخ ظظظ خطبة بعنوان «مهمة الإنسان ورسالته في الكون» وهي أول خطب

الجزء الأول، وهي تخدم هذا الموضوع. فلترجع.

(7) رواه أحمد (17142) عن العرباض بن سارية، ونصه «قد تركتكم على المحجة

البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك...» وقال مخرجو «المسند»: حديث

صحيح بطرقه وشواهد، وهذا إسناد حسن، ورواه الحاكم (96/1)، وابن ماجه (43).

يقول الله تعالى في كتابه المبين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا
وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} 77 وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ
أَجْتَبَكُمْ} [الحج: 77، 78]. النداء المحبب:

أخي المسلم: في هاتين الآيتين يخاطب الله الذين آمنوا، ويستشير فيهم
معاني الإيمان، ويخاطبهم بهذه السمة الكريمة، سمة المؤمنين، وقد قال عبد
الله بن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا؛
فارعا سمعك، فإنها خير يأمر به، أو شر ينهى عنه(8).

في هاتين الآيتين حدد الله رسالة المسلم في هذا الوجود، ومهمة المؤمن في
هذه الحياة.

ما هي مهمة المؤمن؟

أخي المسلم:

ما هي مهمة المسلم؟! وما هي رسالة المؤمن؟!

أهي رسالة دينية روحية؟ أم هي رسالة خيرية اجتماعية؟ أم هي رسالة
جهادية سياسية؟ أم هي رسالة تجمع ذلك كله في نسق جميل؟؟
الشعبة الأولى من رسالة المسلم: العبادة:

رسالة المسلم ذات شعب ثلاث، الشعبة الأولى: شعبة روحية، وهي التي
يحددها قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ}،

(8) ذكره ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رُعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا
وَأَسْمِعُوا} [البقرة: 104] [ج1/61].

أول شيء من مهمتك يا مسلم: الركوع، والسجود، وعبادة الله، إنك أيها الإنسان لست هذا الهيكل من اللحم والدم، والعظم والعصب، لست هذا الجسم الذي خلق من التراب وسيعود إلى التراب، وإنما أنت قبس من نور الله، ونفخة من روح الله، وسر من أسرار الملائكة الأعلى، خلقك الله بيديه، ونفخ فيك من روحه، وجعل الملائكة لك حفاظاً وخداماً، وأنزل الكتب، وأرسل إليك النبيين مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

منزلة الإنسان الحقيقية:

إنك أيها الإنسان في منزلة حسدتك عليها الملائكة حيث قال الله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ 30 وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ 31 قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ 32 قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: 30 - 33].

أراد الله بهذا أن يعقد امتحاناً عملياً، ليظهر قدر هذا النوع الجديد، وفضل الإنسان على سائر المخلوقات. ففاق الإنسان الملائكة في «العلم» لأن الله هياًه ليقوم بعمارة الأرض، وخلافة الله فيها، فمنحه من المواهب والقدرات ما يمكنه من أداء مهنته.

أنت أيها الإنسان؛ صاحب هذه المكانة العليا، أنت خليفة الله في أرضه، وسيد هذا الكون كله، أنت المتصرف في هذا الملك العظيم بأمر الله، {وَلَقَدْ

كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا { [الإسراء: 70].

أليق بك أيها الإنسان أن تهمل مهمتك، وأن تغفل مكانتك، وأن تجهل رسالتك، ويصبح كل همك دائراً حول معدتك، ولا تكن غايتك محصورة إلا في بطنك، تأكل لتعيش، وتعيش لتأكل.

فما لهذا خلقت، وما لهذا نزلت عليك الكتب، وبعثت إليك الرسل، وإنما خلقت لمهمة أسمى، ورسالة عظمى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ 56 مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا 57 إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 56 - 58].

وفي الأثر الإلهي: «يا عبادي إني لم أخلقكم لأستأنس بكم من وحشة ولا لأستكثر بكم من قلة، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه، ولا لجلب منفعة ولا لدفع مضرة، ولكن خلقتكم لتعبدوني طويلاً، وتذكروني كثيراً، وتسبحوني بكرة وأصيلاً».

بهذه «الربانية» يكون فضلك أيها الإنسان، وليس فضلك في جسدك وجنتك، ولا في عنفوانك وقوتك، فإن في البهائم ما هو أضخم منك جثة، وفي السباع ما هو أشد منك قوة!!

إنما أنت أيها الإنسان قلب حي، ووجدان شاعر، وضمير يقظ، ونفس مشرقة، وهيات أن يحيا القلب، ويستيقظ الضمير وتضيء جوانب النفس إلا برحيق معرفة الله، وسلسيل عبادته، ونور طاعته {وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ} [النور: 40] عبادة الله وحده: هي العهد القديم الذي أخذه الله على

بني الإنسان، وسدله بقلم القدرة في فطرهم البشرية، وغرسه في طبائعهم الأصيلة، منذ وضع في رؤوسهم عقولاً تعي، وفي صدورهم قلوباً تخفق، وفي الكون آيات تهدي {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ 60 وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [يس: 60، 61] فلا عجب أن يكون المقصد العظيم من بعثة النبيين، وإرسال المرسلين، وإنزال الكتب المقدسة، هو تذكير الناس بربهم، وأن يكون النداء الأول لكل نبي: {يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: 65] وصدق الله العظيم: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: 25].

ولقد جاء الإسلام من أول يوم يقود الناس إلى الله بزمام الدعوة والترغيب⁽⁹⁾ والترهيب، حتى يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وليست العبادة في الإسلام شكلاً يتعلق بالمظهر، أو رسماً يتصل بالجسم، ولكنها سر يتعلق بالقلب، وإخلاص ينبع من الروح. فإذا لم يصدق قلب المسلم في عبادته، ولم يخلص لله في طاعته، فسيردها الله عليه كما يرد الصيرفي النقاد الدراهم الزائفة {وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ} [البينة: 5].

(9) ذكر فضيلة شيخنا العلامة القرضاوي في كتابه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب»: أن هذه الفكرة - الترغيب والترهيب، أو التبشير والإنذار - واضحة تمام الوضوح في القرآن الكريم والحديث الشريف. فالقرآن حافل بصور الوعد والوعيد، ومشاهد يوم القيامة، وأحوال الآخرة وأحوال الجنة والنار، وما ينتظر المؤمنين الأتقياء من نعيم مقيم، وما يعد للكافرين الطغاة من عذاب أليم، وهذا في القرآن كله، وبخاصة المكي منه .

وكما أن القرآن الكريم حفل بألوان الترغيب والترهيب، أو التبشير والإنذار، فإن السنة النبوية قد حوت كذلك منهما ألواناً وأنواعاً أكثر وأغزر، بحكم ما اقتضته طبيعة السنة من السعة والتفصيل. انظر: «المنتقى» (ج1/16).

لماذا فرض الله العبادات؟

لماذا ألزم الله تعالى عباده بأوامره، وكلفهم بتكاليف، وفرض عليهم عبادات؟؟

هل كان في حاجة إلى عبادتهم؟ كلا!! إنه خالق الخلق، ومالك الملك، رب السموات والأرض {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15].

أم هل أراد إعنات خلقه وإرهاقهم؟ كلا ثم كلا!! إنما أراد لهم الخير والصلاح، والتزكية والتطهير {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة: 6].

فرض الله عليهم الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وأوجب عليهم الزكاة ليطهرهم ويزكيهم بها، وكتب عليهم الصيام لعلهم يتقون، وأمرهم بالحج ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله، وندبهم إلى تلاوة كتابه ليدبروا آياته، وليذكروا أولو الألباب، وحثهم على الذكر والدعاء، لتعلوا على الدنيا همهم، وترتفع عن مطالب الخلق رؤوسهم {وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: 101] تلك هي الأهداف الكبيرة التي شرع الله من أجلها العبادات، فإذا لم تحقق هذه العبادات أهدافها، فقد فقدت روحها، وردت على صاحبها، «من لم تأمره صلاته بالمعروف، ولم تنهه عن المنكر لم يزد من الله إلا بعدا»⁽¹⁰⁾، ومن لم تطهره زكاته فلا زكاة له، ورب صائم

(10) رواه الطبراني في «الكبير» (103/9)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح» (258/2).

ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر، ورب حاج ليس له من الحج إلا اسمه، ورب تال للقرآن يلعنه، ورب داع دعاؤه مردود عليه(11).

العبادة شاملة:

وليست العبادة في الإسلام مقصورة على الفرائض والأذكار والأدعية، فإن الإسلام يعتبر الأرض كلها مسجدًا فسيحًا للمسلم، ومحرابًا كبيرًا للمؤمن، يستطيع أن يتعبد فيه التاجر في متجره، والزارع في حقله، والموظف في مكتبه، والطالب في مدرسته، ما دام يتقن عمله، ويبتغي به وجه الله، ويقصد به أن يكون تراسًا عاملاً في «دولاب» الإسلام المتحرك الكبير. وفي هذا يقول الحديث النبوي: «من طلب الدنيا حلالًا وتعففًا عن المسألة، وسعيًا على عياله، وتعطفًا على جاره، لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر»(12).

المسلم عابد قانت الله، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، لا تثبطه عن عبادته شدة، ولا يغره رخاء، إنه ليجد في عبادته ربه في ساعة الشدة، أنسًا

(11)، وردت عدة أحاديث في هذا المعنى، ومنها:

1 - قوله صلى الله عليه وسلم : «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه الشهر» رواه أحمد في «المسند» (8856) عن أبي هريرة، وقال مخرجوا «المسند»: إسناده جيد، ورواه أبو يعلى (6551)، وابن خزيمة (431/1).
2 - روي عنه صلى الله عليه وسلم قوله: «إن أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش، ورب قتيل بين الصفيين الله أعلم بنيته». رواه أحمد في «المسند» (3772)، وقال مخرجوا «المسند»: إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة.

(12) قال العراقي في تخريج «الإحياء»: أخرجه أبو الشيخ في كتاب «الثواب»، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «شعب الإيمان» من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (79/2)، وذكره الألباني في «الضعيفة» (1032).

لقلبه، وسكينة لنفسه، وانشراحًا لصدره، كما قال الله لرسوله: ﴿وَلَقَدْ نَعَّمْنَاكَ بِضِيقِ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ 97 فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّجِدِينَ 98 وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 97 - 99].

وفي ساعة المنحة والنعمة يذوق في العبادة حلاوة الشكر للمنعم، والحمد لذي الجلال والإكرام، وما أروع خطاب الله لنبيه {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ 1 وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا 2 فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر].

ولله ما أروع بلاغة القرآن فقد خص الركوع والسجود بالذكر وهما جزء من العبادة، كناية عن الصلاة وهي عمود الإسلام المتين، وعبادته اليومية المتكررة، وإشارة إلى فضل الركوع والسجود، لأنهما مظهر الانقياد الحق، والخضوع الكامل الذي لا يكون إلا لله وحده، وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»⁽¹³⁾.

الشعبة الثانية من رسالة المسلم: فعل الخير:

الشعبة الثانية من رسالة المسلم حددها الله بقوله: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ففعل الخير شيمة المسلم ودينه، فليس المسلم في المجتمع كلاً ولا عاطلاً، وليس عاقاً ولا مؤذياً، ولكنه ينبوع يفيض بالخير والرحمة، ويتدفق بالنعمة والبركة، يجد المجتمع في إسلامه سلاماً لهم من كل شر، ويلمسون في إيمانه أماناً لهم من كل سوء.

(13) رواه مسلم في الصلاة (482) عن أبي هريرة.

الأعمال الاجتماعية النافعة عبادة(14):

وليس هذا فحسب ولكنه يفعل الخير، ويدعو إليه، ويبذل المعروف، ويدل عليه وفي الحديث الصحيح «من دل على فعل خير فله مثل أجر فاعله»(15) سمع قول ربه في الحديث القدسي: «أنا الله خلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقت للخير، وأجريت الخير على يديه، وويل لمن خلقت للشر، وأجريت الشر على يديه»(16)، وانتصح بحديث رسوله الكريم: «إن هذا الخير خزان، ولتلك الخزائن مفاتيح، فطوبى لعبد جعله الله عز وجل مفتاحاً للخير، مغلقاً للشر، وويل لعبد جعله الله مفتاحاً للشر مغلقاً للخير»(17).

لقد ظلم نفسه، وظلم دينه ذلك المسلم الذي يعيش عالية على الناس، وعضواً أشل في جسم الأمة، يأخذ من المجتمع ولا يعطيه، وينتفع منه ولا ينفعه، ويستمد منه ولا يمده، وإن الإسلام دين اجتماعي لا يعرف القعود، ولا يقر البطالة، ولو كانت في مظهر التبتل والعبادة.

وعلى المسلم أن يبذل جهده لنفع المجتمع الذي يعيش فيه، وإنعاش قوته، ودفع عجلة الخير فيه إلى الأمام. فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت

(14) لفضيلة الشيخ كلام أدبي بليغ في كتابه «العبادة في الإسلام» تحت عنوان: «مجالات

العبادة في الإسلام» (ص47)، وما بعدها. طبعة مكتبة وهبة.

(15) رواه مسلم في الإمارة (1893) عن أبي مسعود الأنصاري.

(16) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء»: أخرجه ابن شاهين في «شرح السنة» عن

أبي أمامة بإسناد ضعيف (65/5).

(17) رواه ابن ماجه في الإيمان (238) عن سهل بن سعد، وحسنه الألباني في «صحيح

الترغيب» (66).

رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: «الإيمان بالله». قلت: يا نبي الله مع الإيمان عمل؟ قال: «أن ترضخ مما خولك الله» (أي تعطي مما ملكك الله)، وترضخ مما رزقك الله». قلت يا نبي الله فإن كان فقيراً لا يجد ما يرضخ؟ قال: «يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر»، قلت: إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر؟ قال: «فليعن الأخرق» «الجاهل الذي لا يعرف صنعة»، قلت: يا رسول الله أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع؟ قال: «فليعن مظلوماً»، قلت: يا نبي الله أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مظلوماً؟ قال: «ما تريد أن تترك لصاحبك من خير؟ ليمسك أذاه عن الناس». قلت: يا رسول الله أرأيت إن فعل ذلك يدخل الجنة؟ قال: «ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة»⁽¹⁸⁾.

بمثل هذه الروح يستحث النبي صلى الله عليه وسلم كل مسلم مهما كان محدود الاستطاعة أن يدفع الضريبة الاجتماعية، ويؤدي زكاة ماله وعلمه وقوته، فيعطي الفقير، أو يرشد الضال، أو يعلم الأخرق، أو يأخذ بيد المظلوم، ولم يجعل الإسلام هذه الضريبة مالية فينفرد بها الأغنياء، ولا ببدنية فيختص بها الأقوياء، ولا علمية فيتميز بها المتعلمون، ولكنه جعلها ضريبة اجتماعية عامة، يؤديها كل امرئ على قدر طاقته، ويشترك فيها الفقير والجاهل الضعيف.

وأعجب من هذا وأروع أن الإسلام لم يفرض على كل فرد ضريبة

(18) رواه الطبراني في «الكبير» (157/2) عن أبي زر، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (876).

فحسب بل فرض على كل مفصل من مفاصل بدنه. روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة»⁽¹⁹⁾ وإسماع الأصم، وهداية الأعمى، ودلالة المستدل على حاجته، والسعي بشدة الساقين مع اللهفان المستغيث، والحمل بشدة الذراعين مع الضعيف صدقة كريمة، وحسنة عظيمة.

لقد أعلى الإسلام من شأن الخدمات الاجتماعية التي يحسبها الناس تافهة، وهي عند الله كبيرة، ويخالونها هينة وما أثقلها في ميزان الخير.

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: أي الناس أحب إلى الله؟ فقال: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، تكشف عنه كربة أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني مسجد المدينة - شهراً، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا، ومن مشي مع أخيه في حاجة حتى يقضيها له ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام»⁽²⁰⁾.

الله أكبر ... ما أعجب هذا الدين العظيم، خطوات في قضاء حاجة مسلم

(19) رواه البخاري في الجهاد والسير (2989)، ومسلم في الزكاة (1009) عن أبي هريرة.

(20) رواه الطبراني في «الكبير» (453/12) عن عبد الله بن عمر، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (906). وانظر: «المنتقى من الترغيب» للقرضاوي (1574).

أحب إلى رسول الله من عبادة عظيمة «هي الاعتكاف» في بيت من بيوت الله تقريباً إليه لا يوماً، ولا أسبوعاً، ولكن شهراً، وفي أي البيوت؟!؟! هو مسجده صلى الله عليه وسلم أحد مساجد ثلاثة لا تشد الرحال إلا إليها، المسجد الذي قال فيه: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام»⁽²¹⁾.

أي مسلم ذي قلب يستمع إلى هذه المرغبات المغرية بما عند الله، ولا يقف جهوده على الخدمة العامة؟ فيبذل من نفسه وماله وراحته في سبيل قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، ليدخرها الله له في الآخرة «ومن نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»⁽²²⁾.

أي مسلم ذي قلب يسمع هذه المغريات ولا يعيش في أمته «مرهمًا» يأسو الجراح، وبلسمًا يشفي السقام، يطعم الجائع، ويروي الظمآن، ويكسو العريان، ويعود المريض، وهو يسمع مثل هذا الحوار البديع العميق بين الله وعباده في مشهد رائع غريب من مشاهد القيامة، عرضه علينا المربي الأعظم صلوات الله عليه وسلامه قال: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم: مرضت فلم تعدني!! قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب

(21) رواه البخاري في فضل الصلاة في مكة والمدينة (1190) عن أبي هريرة، ومسلم في الحج (1395) عن ابن عمر.

(22) رواه مسلم في الذكر والدعاء (2699) عن أبي هريرة.

العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم: استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟! يا ابن آدم: استسقيتك فلم تسقيني. قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال استسقاك عبدي فلم تسقه. أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي»⁽²³⁾.

الخير لكل الناس:

وإن من روائع إعجاز القرآن في الآية التي معنا أنه لم يقل: افعلوا الخير بالأقارب، أو بالمسلمين، أو بالعرب، أو الشرقيين، ولكنه أمر بفعل الخير أمراً مطلقاً، غير مقيد بقيد خاص، ولا محدود بدائرة معينة، ليغمر المسلم بالخير كل طائفة، ويعم بالخير كل جنس، ويشمل بالخير كل دين، وأي حجة أوضح وأبلغ من كتاب الله وهو يقول: {لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [المتحنة: 8].

ولأهل الكتاب وصية خاصة:

وإذا كانت هذه الآية قد نزلت في شأن المشركين فما بالك بأهل الكتاب وقد أباح الإسلام مصاهرتهم، ومواكلتهم {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}.

وما بالك بالمسيحيين منهم وهم أقرب مودة للذين آمنوا بنص القرآن؟ وما

(23) رواه مسلم في البر والصلة (2569) عن أبي هريرة.

بالك بأقباط مصر خاصة وقد أوصانا رسول الله بهم خيراً⁽²⁴⁾.

وللحيوان نصيب:

وليس هذا في حاجة إلى بيان. فقد وسع الإسلام آفاق الخير للمسلم حتى شملت كل كائن حي في الوجود، فالجنة تفتح أبوابها لرجل سقى كلباً، فشكر الله له، فغفر له، حتى عجب الصحابة وقالوا: أئن لنا في البهائم لأجراً يا رسول الله؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»⁽²⁵⁾.

«والنار تفتح مصاريعها لامرأة حبست هرة فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»⁽²⁶⁾.

ومن عجائب تعاليم الإسلام أن الله يثب المسلم على كل عمل ينتفع به، ذو روح إنساناً أو حيواناً، أو طائراً. وإن لم يكن قاصداً لكل جزئية من جزئيات هذا النفع مع تشديده في اشتراط النية في كل عمل.

ففي الحديث الصحيح: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة إلا كان له به صدقة»⁽²⁷⁾.

المسلم بار بوالديه، واصل رحمه، محسن بجاره، عطوف على الفقراء والمساكين، رحيم باليتيم وابن السبيل، رقيق بالطير والحيوان، استقر في

(24) للمزيد من معرفة سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين راجع ما ذكره شيخنا في كتابه: «غير المسلمين في المجتمع المسلم» طبعة مكتبة وهبة.

(25) رواه البخاري في المظالم (2466)، ومسلم في السلام (2244) عن أبي هريرة.

(26) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (3482)، ومسلم في السلام (2242) عن أبي هريرة.

(27) رواه البخاري في الحرث والزراعة (2320)، ومسلم في المساقاة (1553) عن أنس.

شغاف قلبه نداء الحق {وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ}.

الشعبة الثالثة الجهاد في سبيل الله (28).

الشعبة الثالثة: من مهمتك أيها المسلم هي الجهاد في الله حق الجهاد!!

فإنك يا ابن الإسلام صاحب دعوة: هي دعوة القرآن، وجندي فكرة: هي فكرة الإسلام، وحامل رسالة: هي رسالة محمد عليه الصلاة والسلام. تلك الرسالة التي جاءت لهداية العرب والعجم، وإنقاذ الغني والفقير، وتهذيب الرجل والمرأة، وإصلاح الفرد والمجتمع، وإرشاد الحاكم والمحكوم... تلك الرسالة التي جاءت لتطرد الخرافة في العقول، والضعف في النفوس، والسلبية في الأخلاق، والانحراف في السلوك، والبغي في الجماعات، والطغيان في الحكومات، جاءت لتربط بين الخلق وخالقهم، برباط الإيمان بالله، وتربط بين الإنسان والإنسان، برباط الإخاء والحب في الله.

تلك الرسالة التي تقول للضعفاء: شدوا سواعدكم، وتصحيح في الأذلاء: ارفعوا رؤوسكم، وتصرخ في النائمين: هبوا من سباتكم، وتنادي المستعبدين: أن حطموا قيودكم، وتدعوا المتجبرين: أن انزلوا من عروشكم، وحكموا من كبرياتكم.

تقول للأغنياء: {وَعَاثُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} [النور: 33] من أموالكم.

وتقول للمتفخرين: «من بطأ به علمه لم يسرع به نسبه» (29).

(28) أوشك شيخنا من الإنتهاء من كتابه القيم «فقه الجهاد» وهو موسوعة علمية تتحدث عن الجهاد من كل جوانبه، نسأل الله أن يعينه على إتمامه.
(29) رواه مسلم في الذكر والدعاء (2699) عن أبي هريرة.

وتقول للحكام: «إنما أنتم أجراء الشعب، وأمناء الحق».

وتقول للناس جميعًا: «الناس سواسية كأسنان المشط الواحد، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»⁽³⁰⁾.

لا بد للرسالة الحقّة من خصوم:

مثل هذه الرسالة الثورية الشاملة: لا بد أن يكون لها خصوم معاندون، وأعداء مكابرون، يدافعون عن مصالحهم، وينافحون عن نفوذهم، ويحاربون عن باطلهم، فلا بد من احتكاك، ولا مفر من صدام ... فعلى المسلم: أن يعد العدة، ويأخذ الحذر، ويشهر سيف الحق، ويحمل معول التطهير، ليهدم صروح الباطل، ويثل عروش الجبروت، ويطمس معالم الطغيان، ويوطد دعائم الحرية للعقائد كلها، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

لهذا كتب الله القتال على المسلمين كما كتب عليهم الصيام، وأمرهم بالجهاد كما أمرهم بتقواه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة: 35].

ونادى المتناقلين عن الجهاد نداء صارخًا فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْفَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا} [التوبة: 38].

ثم حذرهم عاقبة التخاذل والقهود: {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة: 39]. ثم دعا

(30) رواه أحمد (23489) عن رجل من الصحابة، وقال مخرجوا «المسند»: إسناده صحيح.

الجميع دعوة شاملة، وعبأهم تعبئة عامة فقال: {أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة: 41].

الغاية من الجهاد:

ليس جهاد المسلم لدنيا يصيبها، أو أرض يستعمرها، أو سوق يفتحها لسلعة، أو منطقة ينشر فيها نفوذه، أو لعصبية ينصرها، أو لشهرة ينشدها، ولكن جهاده كما أمره القرآن «في الله» في ذاته، وفي سبيله وابتغاء مرضاته، وإعلاء كلمته.

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! الرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليرى مكانه ... فأيهم في سبيل الله، فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»⁽³¹⁾.

غايات مرفوضة:

إنه ليس غاضبًا ولا مستعمرًا، ولكنه حامل شعلة النور إلى الإنسانية، اختاره الله ليكون داعي حقه، وهادي خلقه، وصدق الله «هو اجتباكم».

جعل الله الجهاد من رسالة المسلم، ولم يرض منه ببعض الجهاد، أو بقليل من الجهاد، ولكنه أمره بالجهاد حق الجهاد «وجاهدوا في الله حق جهاده» ليشمل كل ألوان الجهاد المستطاع: جهاد القلم واللسان، جهاد الحجة والبرهان، جهاد السيف والسنان، جهاد النفس والمال.

(31) متفق عليه، رواه البخاري في التوحيد (7458)، ومسلم في الجهاد (1904) عن أبي موسى. وانظر: «اللؤلؤ والمرجان» (1243).

يبيذل المسلم ما في طاقته، ويفرغ ما في جعبته. فإن عاش عاش كريماً حميداً، وإن مات مات شهيداً {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضَلَّ أَعْمَلُهُمْ 4 سَيَّئِدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْهِمْ 5 وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} [محمد: 4 - 6].

ذلكم هم شأن المسلم مع أعداء الله وخصوم الحق، منطقة معهم هو الجهاد، والجهاد وحده، ليس منطق المداهنة والمهادنة، ولا منطق المحادثة والمفاوضة، وإنما هو منطق يرد على المعتدين بالكتيبة لا بالكتاب، وبالسيف لا بالقلم، وبالدماء لا بالمداد، وبضربات الخناجر لا بصيحات الخناجر.

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب على هذا الضوء فافقه رسالتك أيها المسلم، وفي نور هاتين الآيتين حدد علاقتك بالله والناس.

علاقتك بالله الركوع والسجود والعبادة {ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ}.

علاقتك بالمجتمع فعل الخير {وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

علاقتك بأعداء الله الجهاد وحق الجهاد {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}.

وبهذا الميزان الدقيق زن إسلام المسلمين، وإيمان المؤمنين، فشأن المسلم أن يكون له في كل ميدان عملاً وفي كل مجال إنتاجاً وفي كل ناحية نشاطاً.

هو في الميدان الروحي: خاشع عابد راع ساجد، وفي الميدان الاجتماعي: منتج نافع بار خير، وفي الميدان العسكري: بطل مجاهد وجندي مناضل، وفي كل ميدان رافع الراية وحامل اللواء.

ليس من الإسلام:

فإذا رأيت جماعة كل همهم: الركوع والسجود، والتسبيح والتحميد، ولكنهم يغفلون فريضة الجهاد، ويهملون قضية الإسلام، فقل لهم: من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

وإذا رأيت جماعة يقتنعون من الإسلام بأداء بعض الخدمات، وفعل الخيرات، ويهملون عبادة الله فقل لهم: لستم بالمسلمين الصادقين، وإذا رأيت جماعة يقولون: الوطنية الوطنية، الجهاد الجهاد، ولكنهم لا يعرفهم المحراب عابدين، ولا يعرفهم الله خاشعين، فقل لهم: لستم بالمسلمين الصادقين.

ورضي الله عن أصحاب رسول الله ومن تبعهم بإحسان، فقد فقهوا رسالتهم حق الفقه، وآمنوا بها كل الإيمان، ووهبوا لها كل ما يملكون من نفس وجهد ومال.

كانوا في المحاريب، والمساجد باكين خاشعين، {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ 17 وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات: 17، 18]، {أَعْيَنَهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمِّ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ} [المائدة: 83] وترى علائم الجد والحزن على وجوههم، مما استقر في قلوبهم من خوف الله، {إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2].

أما في المجتمع فكانوا أسخياء رحماء، محسنين كرماء، يحسنون إلى الجار، ويطعمون المسكين، ويكرمون اليتيم، ويقرون الضيف، بل كانوا يطعمون من حرمهم، ويصلون من قطعهم، ويبدلون لمن منعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويجودون بالشيء، وهم أشد حاجة إليه، حتى نزلت آيات

الكتاب العزيز تسجل لهم هذه المآثر العظيمة {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا 8 إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا 9 إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} [الإنسان: 8 - 10]، {وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

وكانوا في الميادين: أبطالاً مغاوير. يهجم أحدهم على صفوف العدو وهو يقول: إني أشم ريح الجنة⁽³²⁾، ويطعن بالرمح في صدره فينفذ من ظهره فيقول: فزت ورب الكعبة⁽³³⁾، ويسعى إلى لقاء الموت ركضًا، ويتلقى الضربات مبتسمًا وهو يرنل: {وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه: 84].

هكذا كان رجال الإسلام الأولون، كانوا كما وصفهم الأخصم والأنصار: رهبان الليل وفرسان النهار بل كما وصفهم الله {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أَوْثَرَ السَّجُودِ ذَلِكَ مِثْلُهُمْ فِي التَّورَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَّرَعَ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}.

مثال للمؤمن الجامع لكل هذه الصفات:

تلك هي أوصافهم: شدة صارمة على أهل الكفر والعدوان، ورحمة رحيمة بأهل الإيمان، وركوع وسجود يبتغي بهما فضل الله ورضوانه، ونمو

(32) القائل هو: أنس بن النضر في أحد حين لقيه سعد بن الربيع فقال: يا سعد إني لأجد ريح

الجنة دون أحد. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (81/3).

(33) القائل هو حرام بن ملحان في فاجعة بئر معونة. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام

(206/3).

ونزوج يعجب المؤمنين ويغيظ الكافرين.

ويتمثل أمام عيني في هذا المقام «جعفر بن أبي طالب» مثل المؤمن الشديد الرحيم، العابد المحسن المجاهد، فقد فر بدينه إلى الحبشة، فكان أمير المهاجرين بها، وحادث النجاشي فكان نعم السفير اللبق، وقرأ عليه القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فكان نعم الداعية المخلص الفقيه.

وكان في المسلمين جوادًا كريمًا ممدحًا، وكان لكرمه يقال له «أبو المساكين» لإحسانه إليهم.

فلما كان يوم مؤتة وثلاثة آلاف من المسلمين يحاربون مائتي ألف من الروم، ونصارى العرب، في غير أرضهم، واستشهد زيد بن حارثة، فتولى القيادة جعفر، وقاتل قتال الأبطال، وثبت ثبات الجبال. قال أحد شهود المعركة: والله لكأنني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء، ثم عقرها، ثم قاتل القوم حتى قتل وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيده أنسابها

علي إن لقيتها ضرابها

روى المؤرخون وأصحاب السير: أن جعفر أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل، فأثابه الله بدل يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء قال عليه السلام: «رأيت جعفر بن أبي طالب يطير في الجنة ذا جناحين يطير بهما حيث يشاء مضرجة

قوادمه⁽³⁴⁾ بالدماء» ومن أجل ذلك سمي جعفر الطيار. ولما قتل وجد في جسده بضغاً وتسعين ما بين ضربة، وطعنة، ورمية، ليس شيء منها في دبره رضي الله عنه⁽³⁵⁾.

أيها المسلمون: بهذه البطولات الفذة نقتدي، وبهذه الأضواء المؤمنة نهتدي، وفي هذه السبيل المنيرة يجب أن نسير، أما هذه الغفلة عن رسالتنا السامية، وتاريخنا المجيد، وواجبنا العظيم، أما أن يظل الحال كما نرى:

مسلمون وهم لا يركعون ولا يسجدون.

مسلمون وهم عن فعل الخير معرضون.

مسلمون وهم عن الجهاد قاعدون متخلفون.

فهذا ما لا يرضاه الله ورسوله والمؤمنون. فإلى الله إلى الله أيها الغافلون، وإلى عمل الخير وخير العمل أيها الأنانيون، وإلى الجهاد أيها القاعدون، وإلى الإسلام الحقيقي أيها المسلمون {وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}.

* * *

(34) قوادم الطير: مقادير ريشه، وهي عشر في كل جناح، والواحدة منها تسمى: قادمة.
انظر: «مختار الصحاح» (219).
(35) للمزيد من تفاصيل هذه المعركة الخالدة انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (25/4).

(2)

حاجاتنا إلى رجال⁽³⁶⁾

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور. أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه. وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، القائم على كل نفس بما كسبت، والعلم بأسرارها وإن خفيت، {وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [البقرة: 235].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. كان أشد الناس مراقبة لربه، ومحاسبة لنفسه، ومع ذلك كان يقول لأُمَّته معلماً ومرشداً: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنني أتوب إليه في اليوم مائة مرة»⁽³⁷⁾.

صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله على آله وصحابه، {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ} [الأعراف: 157].

ورضوان الله عن الداعين بدعوته، السالكين سبيله، المجاهدين جهاده إلى يوم الدين.

(36) لفضيلة الشيخ مقالة بعنوان: «أمنية عمرية أو حاجتنا إلى رجال» وهي إحدى المقالات والبحوث التي جمعها في كتابه: «من أجل صحوة راشدة». طبعة دار الشروق، ط. الأولى 2001م.

(37) رواه مسلم في الذكر والدعاء (2702) عن الأغزر المزني.

أما بعد ... فيا أيها الإخوة المسلمون:

أمنية عمرية:

جلس عمر رضي الله عنه مع جماعة من أصحابه في إحدى دور المدينة فقال لهم: تمنوا ... فقال بعضهم: أتمنى أن تمتلئ هذه الدار فضة أنفقتها في سبيل الله، وقال آخر: أتمنى أن تمتلئ هذه الدار ذهباً أنفقه في سبيل الله، وقال آخر: أتمنى سيوفاً ورماحاً أمد بها المجاهدين. وقال عمر الخبير بما تحتاجه الدعوات والنهضات: أما أنا فإنني أتمنى أن تمتلئ هذه الدار رجالاً مثل: أبي عبيدة الحجاج، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، فأستعملهم في طاعة الله.

وإذا كان لنا نحن أن نتمنى شيئاً فإننا نتمنى لهذا الشرق المضيق رجالاً من هؤلاء.

من الرجال المصاييح الذين كأنهم من نجوم حية صنعوا

أخلاقهم نورهم، من أي ناحية أقبلت تنظر في أخلاقهم

مقومات القوة في الأمة الإسلامية:

نحن أبناء الشرق الإسلامي، نعيش في بقعة لعلها أخصب بلاد الله أرضاً، وأعدلها جواء، وأطيبها هواء، وأصفاها شمساً، وأعظمها موقعاً، وأكثرها امتلاء بالمعادن المذخورة، والثروات المنثورة⁽³⁸⁾، ولو أن الله جمع الناس في

(38) انظر ما ذكره فضيلة الشيخ في كتابه: «الأمة الإسلامية ... حقيقة لا وهم» تحت عنوان: «مقومات القوة في الأمة» (ص 35)، وما بعدها طبعة مكتبة وهبة ط. الأولى 1995م.

صعيد واحد، وخيرهم بين الأقطار والبلاد ما اخترنا أفضل من الموقع الذي نعيش فيه، ولكن الذي ينقصنا شيء آخر غير معادن الحديد والنحاس، والغاز والبتترول، إنه معدن غال نفيس هو: معدن الرجال!!

الرجل الحقيقي أساس كل إصلاح:

الرجل هو إكسير الحياة، ومحور الإصلاح، وعماد النهضات، وروح الدعوات، أعد ما شئت من معامل للذخيرة والسلاح، فلن تقتل الأسلحة إلا بالرجل المحارب!! وضع ما شئت من القوانين واللوائح فستظل حبراً على ورق ما لم تجد الرجل الذي ينفذها!! وضع ما شئت من برامج للتربية والتعليم فلن يغني البرنامج إلا بالرجل الذي يقوم بتدريسه!! وأنشئ ما شئت من لجان فلن تنجز مشروعاً إذا حرمت الرجل الغيور!!

ذلك ما يقول الواقع الذي لا ريب فيه.

إن القوة ليست في حد السلاح بقدر ما هي في قلب الجندي، والتربية ليست في صفحات الكتاب بقدر ما هي في روح المعلم، والعدل ليس في نص القانون بقدر ما هو في ضمير القاضي، والسرعة ليست في تكوين اللجان بقدر ما هي في حماسة أصحابها.

رجولة ورجولة:

إن رجلاً واحداً قد يساوي مائة، ورجلاً قد يوازي ألفاً، ورجلاً قد يزن شعباً. وقد قيل: «رجل ذو همة يحيي أمة» بل قال قائل:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
روى التاريخ أن عمرو بن العاص جاء يفتح مصر، ويطرد الإمبراطورية

الرومانية من هذا البلد العريق بجيش صغير؛ يتكون من أربعة آلاف جندي، ثم بعث إلى عمر يطلب منه مدداً، فأرسل إليه عمر بأربعة آلاف رجل، على رأسهم أربعة رجال. عد عمر كل واحد منهم بألف، وحينئذ فلن يُغلب اثنا عشر ألفاً من قلة ...

ولكن ما هو الرجل؟ هل هو الذكر البالغ من بني الإنسان؟ إذن فما أكثر الرجال!!

الرجولة ليست بالسن:

إن الرجولة ليست بالسن المتقدمة، فكم شيخ في سن السبعين وقلبه في سن السابعة، يفرح بالتافه، ويبكي على الحقير، ويتطلع إلى ما ليس له، ويقبض على ما في يده، حتى لا يشركه فيه غيره، فهو طفل صغير؛ ولكنه ذو لحيه وشارب.

وكم من غلام في مقتبل الصبا، ولكنك ترى الرجولة المبكرة في قوله وعمله، وخلقه وتفكيره.

مر أمير المؤمنين «عمر» رضي الله عنه في طريق، وثلة من الصبيان يلعبون فهرولوا هاربين إلا «عبد الله بن الزبير» فثبت في مكانه دون إخوانه، فقال له عمر: لماذا وقفت يا غلام؟ ولم تعد مع أصحابك. فقال: يا أمير المؤمنين لم أقترف ذنباً فأخاف منك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسعها لك: فأعجب به عمر، وأثنى عليه.

وجاء وفد إلى أحد الخلفاء، فقدموا فتى يافعا يتكلم بلسانهم. فقال الخليفة: ليتقدم من هو أسن منك. فقال: يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان في

الأمة من هو أولى منك بالخلافة. ولكن إذا أتى الله المرء لسانًا لفظًا، وقلبًا حافظًا، فقد استحق التقدم والكلام.

أولئك لعمرى هم الصغار الكبار، أما اليوم فما أكثر الكبار الصغار!

الرجولة ليست بالجسم:

وليست الرجولة بضخامة الجسم، فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه، لا بضخامة جثمانه. وماذا تنتفع الأمم بأجسام البغال وأحلام العصافير؟ وما أحكم المثل العربي الذي يقول: «ترى الفتيان كالنخل، وما يدرك ما الدخل».

وقد حدثنا القرآن عن جماعة من المنافقين فقال: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ} [المنافقون: 4]، ومع هذا يقول عنهم {كَانَتْهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [المنافقون: 4].

وفي الحديث الشريف: يأتي الرجل العظيم السمين عند الله يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة ... اقرؤوا إن شئتم قول الله تعالى: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: 105]⁽³⁹⁾.

كان عبد الله بن مسعود قصير القامة، نحيف الجسد، فرأى بعض الصحابة يومًا ساقيه وهما دقيقتان هزيلتان. فضحكوا منها ... فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مما تضحكون؟» قالوا: من دقة ساقيه، فقال صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد»⁽⁴⁰⁾.

(39) رواه البخاري في التفسير (4729) عن أبي هريرة، ومسلم في صفة القيامة (2785) عن أبي هريرة.

(40) رواه أحمد (3991) عن ابن مسعود، وقال مخرجوا «المسند»: صحيح لغيره، ورواه

ليست الرجولة بالمظهر:

وليست الرجولة بالفخامة والمظهر، ف «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»⁽⁴¹⁾، «ورب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»⁽⁴²⁾.

والمرء بأدابه لا بثيابه، والسيف بجوهره لا بجرابه، ورحم الله القائل:

علي ثياب لو ينادي لبيعها بفلس لكان الفلاس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس بمثلها نفوس الورى كانت أعز

وليست الرجولة بالمال:

وليست الرجولة بالغنى والمال. فرب غني فقير، ورب فقير غني، «وليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس».

إن الغني هو الغني بنفسه ولو أنه عاري المناكب حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافيًا وإذا قنعت فبعض شيء كاف

ليست الرجولة بالمنصب والجاه:

وليست الرجولة بالجاه والمنصب ... فكم من أناس يتولون مناصب
كبرى، ويديرون أعمالاً، ويرأسون مصانع، ويتقلدون وزارات، ولكن ذلك لم
يمنع أحدهم أن يحني هامته في سبيل درجة يرتقيها، أو يضحي بكرامة في

الطبراني في «الكبير» (8453)، وابن أبي شيبة (113/12).

(41) رواه مسلم في البر والصلة (2564) عن أبي هريرة، وفي رواية «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

(42) رواه مسلم في البر والصلة (2622) عن أبي هريرة.

سبيل زلفى إلى رئيس.

كبرت مناصبهم وصغرت نفوسهم، وعلت منازلهم وانحطت هممهم.

الرجولة الحقيقية:

ليست الرجولة بالسن، وليست الرجولة بالجسم، وليست الرجولة بالمظهر، وليست الرجولة بالمال، وليست الرجولة بالمنصب، وليس يقاس الرجل بواحد من هذه المقاييس العرجاء ... وإنما الرجولة الحقّة: قوة نفسية تحمل صاحبها على معالي الأمور، وترفعه عن سفاسفها، قوة تجعله كبيراً في صغره، قوياً في ضعفه، غنياً في فقره.

قوة تحمله على أن يعرف حقه فيطلبه عزيزاً كريماً، ويعرف واجبه فيؤديه مخلصاً أميناً، واجبه نحو نفسه، واجبه نحو ربه، واجبه نحو بيته، واجبه نحو مجتمعه، واجبه نحو دينه، واجبه نحو أمته. يعينه على أداء هذه الواجبات إدراك دقيق، وشعور رقيق، وإيمان عميق، وضمير يقظ، وخلق متين.

والرجولة في الإسلام ربيبة الإيمان بالله، وقرينة الطاعة لله، فالإيمان وحده هو الذي يصنع معاني الرجولة، ويربي أخلاق البطولة، ويطبع النفس على معالي الأمور، ويبعدها عن سفاسفها.

أين تنشأ الرجولة؟

وفي ظلال عبادة الله، وبين جدران المساجد الخاشعة، يتربى الرجال المؤمنون الصادقون، وقد وصف الله رواد المساجد فقال: {فِي بُيُوتٍ أُدِّنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْأَغْدُوِّ وَالْأَصَالِ 36 رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ

تَجْرَةٌ وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ
الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} [النور: 36، 37].

وقال: {لَمَسَجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ
يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ} [التوبة: 108].

الرجولة لا تعني العصمة:

ولن تجد الرجولة في أعلى صورها، وأكمل معانيها كما تجدها في تلك
النماذج الرائعة التي صنعها الإسلام، ورباها سيد الرسل عليه الصلاة
والسلام.

لا نزعم أنهم كانوا ملائكة مقربين لا يعصون، ولا يخطئون، ولكنهم كانوا
إذا مسهم طائف من الشيطان {تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: 201]، فإذا
تورطوا في فاحشة أو ظلموا أنفسهم {ذَكُرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ} [آل عمران:
135]، وكثيراً ما جاءوا مسرعين إلى سرور الله صلى الله عليه وسلم
يعترفون بالخطايا، ويلتمسون التطهير ويطالبون أن يقام عليهم حد الله(43).

وكانوا إذا فاتتهم غزوة من الغزوات ظلوا متشوقين إلى أختها، حتى
يدفعوا ضريبة الإيمان، ويأخذوا من الجهاد بأكبر نصيب.

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر
عن قتال بدر فقال: يا رسول الله: غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن
الله أشهدني في قتال المشركين ليرين الله ما أصنع «فلما كان يوم أحد

(43)، ولعل أروع مثل لذلك موقف معز الأنصاري والمرأة الغامدية حين أتيا إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم .

وانكشف المسلمون فقال لهم: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني الصحابة - وابرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النصر، إني لأجد ريحها من دون أحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتل، وقد مُثل به، فما عرفه أحد إلا أخته بينانه. فقال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه {مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 23]»(44).

ذلك عصر كانت أرضنا تنبت فيه رجالاً مع الزروع والأشجار، رجالاً يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع، رجالاً لا يغريهم الوعد ولا يثنيهم الوعيد، رجالاً لا يزهيم النصر، ولا تحطمهم الهزيمة، رجالاً كانوا {كَزَّرَعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَازْرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} [الفتح: 29].

رجولة الأمس واليوم:

أما اليوم فإننا نفتش عن الرجال كما نفتش عن الذهب في الأرض، وقد نعثر في الفينة بعد الفينة على الرجل بعد الرجل، وقد نزرع البلاد ذهاباً وإياباً فلا نجد إلا غطاء كغناء السيل!

وأين الرجولة في هذا الذي فقد الوفاء فغدر وفقد العفاف ففجر، وفقد

(44) رواه البخاري في الجهاد والسير (2805) عن أنس.

الأمانة فخان، وفقد شجاعته فأصبح جبائلاً، وفقد صلابته فصار رخواً، وفقد غيرته فأصبح يقدم امرأته تراقص الأجنبي على مسمعه ومرآه؟
لقد كان العرب في الجاهلية - على ما فيهم من انحراف - على كثير من معاني الرجولة فقد كان فيهم مثل «عنترة» الذي يغشى الوغي ويعف عند المغنم! والذي يقول عن نفسه:

وأغض طرفي إن بدت لي حتى يواري جارتني مأواها
وقد كان فيهم مثل «عبد الله بن عبد المطلب» الذي تراوده امرأة عن نفسه
وهو في حرارة الشباب وعنفوان الغريزة، فيجيبها بمنطق الرجولة:
أما الحرام فالممات دونه والحل لا حل فأتبينه
يحمي الكريم عرضه ودينه فكيف بالأمر الذي تبغينه
وكان فيهم من يفي بالكلمة تخرج من فيه، مهما كلفته من غالي الثمن،
ويقول:

ولا أقول: نعم يوماً وأتبعها بلا ولو ذهبت بالمال والولد
فإذا كانت الجاهلية تخرج مثل هؤلاء الرجال فما بال أبناء الإسلام قد فقدوا
أولى خصائصهم وهي الرجولة؟
الاستعمار وراء هذا البلاء:

أما لو فتشنا عن السر، وبحثنا عن العلة لتبين لنا أن الاستعمار قد وضع
نصب عينيه وفي مقدمة برامج المحرمة أن يقتل رجولة المسلمين. ومن هنا
غزانا بجسد المرأة الخليعة، ونشر الملاهي المحرمة، وإشاعة المسكرات
والمخدرات القاتلة، وإطغاء العبث والمجون، على الجد والعمل، وفسح

المجال لغلبة الرذيلة على الفضيلة، وإبعاد تعاليم الدين عن المجتمع. وبهذه الطريقة انتصر في حربه الروحية والفكرية والنفسية، وعبث الفساد بالرجولة والأخلاق كما تعبت الرياح بالأوراق.

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأثمًا وعويلًا
وليت شعري: أين الرجال الذين تتقى بهم المكاره، وتسد بهم الثغور،
وتصلح بهم الجماعات، وتنهض بهم الشعوب، وتحقق بهم الآمال؟!
اغدوا ورحوا هنا وهناك، وارجعوا البصر كرتين. فهل ترى إلا أحلاس
المقاهي، ورواد الملاهي، وعشاق الخمر والميسر، ورواد الشوارع
والميادين، وأتباع الغاديات والرائحات، وعباد الغرائز والشهوات؟! (45).
أليس هؤلاء أولى الناس بوصف الإمام علي: «أشبه الرجال ولا رجال،
وطغام الأحلام، وعقول ربات الحجال».

وإني لتحضرني كلمة قرأتها لرجل أجنبي درس الإسلام؛ وأعجب
بتعاليمه؛ فلما سئل عنه قال: ما أعظمه من دين لو كان له رجال.
أجل!! دين عظيم ولكن المسلمين غير عظماء، دين قوي ولكن أبنائه غير
أقوياء، دين عزيز ولكن أتباعه ليسوا بأعزاء.

يا عجباً!! دين له خمسمائة مليون مسلم (46) منسوبون إليه، محسوبون

(45) هذه الصورة القاتمة التي رسمها الشيخ في شبابه، تغيرت كثيرًا بحمد الله، وقد نوه الشيخ بهذا التغيير في العديد من كتبه، وضرب شباب الصحوة أروع الأمثلة للرجولة الصادقة، فامتلت بهم المساجد وازدحمت بهم مواسم الحج والعمرة، وتعطرت بدمائهم أراضي الرباط وساحات الجهاد.

(46) المسلمون الآن أكثر من مليار وثلث مليار.

عليه، ومع هذا فهو لا يجد رجالاً... أما والله لو ظفر الإسلام في كل ألف من أبنائه برجل واحد⁽⁴⁷⁾ - بكل ما في الرجولة من معان - لكان ذلك خيراً له، وأجدى عليه، من هذه الجماهير المكدسة، وهذه الملايين «المملينة» الذين يجمعهم مزارم وتفرقهم عصا، هؤلاء الذين كأنهم صنعوا من زجاج فلا يسترون عورة، ولا يتحملون رمياً.

فليت لي بهموا قومًا إذا ركبوا شنوا الإغارة فرسانا وركبانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهان

* * *

(47) لفضيلة الشيخ نداء في قصيدته «يا أمتي وجب الكفاح» وفيها يقول:

يا ألف مليون وأي ن همو إذا دعت الجراح؟

هاتوا من المليار مل يونا صحاحا من صحاح

من كل ألف واحداً أغزو بهم في كل ساح

انظر: «نفحات ولفحات» (ص 130).

(3)

الصيام (48)

الحمد لله الذي أنعم علينا بشهر رمضان، وأنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، فرض علينا الصيام تربية لنا وتهذيباً، لا إرهاباً وتعذيباً {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: 185].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، خير من صلى فأحسن الصلاة، وأفضل من صام فأحسن الصيام، وسيد من جاهد فأحسن الجهاد، كان أعبد الناس لله، وأجود الناس على الناس وكان أعبد ما يكون وأجود ما يكون في رمضان، حينما ينزل جبريل يتدارس معه القرآن، فهو أجرى بالخير من الريح المرسلة⁽⁴⁹⁾. صلوات الله وسلامه عليه.

(48) لفضيلة شيخنا العلامة القرضاوي كتابات خاصة عن الصيام، ولعل أكثرها اتساعاً، وأشملها أحكاماً هو كتاب: «فقه الصيام» كما أن للشيخ في كتابه: «العبادة في الإسلام» كلاماً أدبياً بليغاً عن الصيام، ولكنه ليس كلاماً فقهياً، وإن كان لا يخلو الفقه منه. وإنما هو كلام عن فلسفة الصيام، كلام عن أسرار ومقاصد وحكم الصيام، وهذه الخطبة تتضمن الحكم والأسرار والمقاصد، إلى جانب إضافات جديدة لم تذكر في كتاب: «العبادة في الإسلام».

(49) إشارة إلى حديث عبد الله بن عباس وفيه: كان رسول الله أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان ... والحديث رواه البخاري في الصوم (1902)، ومسلم في الفضائل (2308).

أما بعد ... فيا أيها الإخوة المسلمون:

من أسرار الصيام:

فيقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ 183 أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ} [البقرة: 183، 184].

يا معشر المسلمين هذا هو شهر الخير والبركة، لقد فرض الله علينا الصيام في رمضان، وما فرضه إلا لأسرار عليا، وحكم بالغة، نعرف منها ما نعرف، ونجهل منها ما نجهل، ويكشف الزمن عن بعضها ما يكشف.

وكم لله من سر خفي يدق خفاه عن فهم الذكي فعلىنا أمة الإسلام أن نتأمل حكمة الله من وراء هذا الجوع والعطش، وأن ندرك سره تعالى في الصوم، حتى نؤديه كما أراده الله، لا كما اشتهاه الناس. الصوم تقوية للروح:

ولن نستطيع أن ندرك سر هذا الصوم، إلا إذا أدركنا سر هذا الإنسان، فما الإنسان؟ وما حقيقته؟

هل هو هذه الجثة القائمة، وهذا الهيكل المنتصب؟ هل هو هذه المجموعة من الأجهزة والخلايا واللحم والدم والعظم والعصب؟ إن كان هذا هو ذلك فما أحقره وما أصغره(50)!!

نعم ... ليس الإنسان هو ذلك الهيكل المحسوس، إنما هو روح سماوي،

(50) لفضيلة شيخنا العلامة القرضاوي كلام طيب في كتابه «الإيمان والحياة» قارن فيها بين نظرة الماديين للإنسان ونظرة المؤمنين له. انظر الكتاب المذكور، فصل: «الإيمان وكرامة الإنسان» (ص 57)، وما بعدها. مكتبة وهدية.

يسكن هذا الجسم الأرضي، وسر من الملائكة الأعلى في غلاف من الطين.

ليست حقيقة الإنسان إلا هذه اللطيفة الربانية، والجوهرة الروحانية، التي أودعها الله فيه، بها يعقل ويفكر، وبها يشعر ويتذوق، وبها يدبر ملك الأرض، ويتطلع إلى ملكوت السماء، ومن أجلها أمر الله الملائكة أن تسجد لأدم، لا لما فيه من حما مسنون، وطين معجون {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ 71 فَاذًا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰٓجِدِينَ} [ص: 71، 72].

ذلكم هو الإنسان، روح علوي وجسد سفلي، فالجسد بيت والروح صاحبه وساكنه، والجسد مطية والروح راكب مسافر، ولم يخلق البيت لنفسه، ولا المطية لذاتها، ولكن البيت لمصلحة الساكن، والمطية لغاية الراكب، فما أعجب هؤلاء الأدميين الذين نسوا أنفسهم، وذكروا شهواتهم، وجعلوا من ذواتهم خدماً لمطاياهم، وأهملوا أرواحهم، وعبدوا أجسادهم، فلجسد وحده يعملون، ولإشباع غرائزه الخسيسة ينشطون، وحول بطونهم وفروجهم يدورون، نشيدهم الدائم قول القائل:

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

أولئك الذين وصفهم الله بقوله: {أَرَعَيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا 43 أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْآلِنٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: 43، 44].

ذلكم هو الإنسان روح وجسد، فلجسده مطالب من جنس عالمه السفلي، وللروح مطالب من جنس عالمها العلوي، فإذا أخضع الإنسان أشواق روحه

لمطالب جسده، وحكم غريزته في عقله، استحال من ملاك رحيم إلى حيوان نميم، وربما إلى شيطان رجيم. هذا الذي ناداه الشاعر المؤمن:

يا خادم الجسم كم تسعى أتطلب الريح مما فيه خسران؟
أقبل على النفس واستكمل فأنت بالنفس لا بالجسم
أما إذا عرف الإنسان قيمة نفسه، وأدرك سر الله فيه، وحكم جانبه السماوي في جانبه الأرضي، وعني بالراكب قبل المطية، وبالساكن قبل الجدران، وغلب أشواق الروح على نوازع الجسد، فقد صار ملاكًا أو خيرًا من الملاك {إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} [البينة: 7].

لماذا فرض الله الصيام؟

ومن هنا فرض الله الصيام ليتحرر الإنسان من سلطان غرائزه، وينطلق من سجن جسده، ويتغلب على نزعات شهواته، ويتحكم في مظاهر حيوانيته ويتشبه بالملائكة، فليس عجيبًا أن ترتقي روح الصائم ويقترب من الملائكة الأعلى، ويقرع أبواب السماء بدعائه فتفتح، ويدعو ربه فيستجيب له، ويناديه فيقول: لبيك عبدي. وفي هذا المعنى يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم»⁽⁵¹⁾.

(51) رواه أحمد في «المسند» (8043) عن أبي هريرة، وقال مخرجوا «المسند»: حديث صحيح بطرقه وشواهد، ورواه عبد بن حميد (1420)، وابن المبارك في الزهد (1075).

صوموا تصحوا:

وإذا كان في الصوم فرصة - أي فرصة - لتقوية الروح، ففيه فرصة - أي فرصة - لتقوية البدن، فإن كثيراً مما يصيب الناس من أمراض إنما هو ناشئ من بطونهم التي يتخمونها بكل ما تشتهي، غير مفرقين بين ما ينبغي وما لا ينبغي وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكيات يُقمن صُلبه، فإن كان لا محالة، فتلت لطعامه، وتلت لشرابه، وتلت لنفسه»⁽⁵²⁾.

وإذا كانت البطن مستتق البلبايا، وكانت المعدة بيت الداء، فإن الحمية «أي الامتناع عن الأكل» رأس الدواء، وقديماً قال «أبقراط»: «أكل الناس أكل السباع فمرضوا، فداويناهم بأغذية الطيور فصحوا» وليس كالصوم فرصة تستريح فيها المعدة، ويتخلص الجسم من كثير من فضلاته الضارة. وقد نشرت إحدى المجلات أن ثلاثمائة قد برؤوا من البول السكري بعلاج الصوم، وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اغزوا تغنموا وسافروا تستغنوا وصوموا تصحوا»⁽⁵³⁾.

الصوم تربية للإرادة:

وفي الصوم تقوية للإرادة، وتعويد على الصبر، فالصائم يجوع وأمامه

(52) رواه ابن ماجه (3349)، وابن حبان (1348)، وهو في «الإحسان» (674)، ورواه الترمذي (2381)، وقال: حديث حسن صحيح، انظر «المنتقى» (1251)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (2704).

(53) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (147/8) عن أبي هريرة، وقال المنذري في «الترغيب»: رجاله ثقات، وذكره الألباني في «ضعيف الترغيب» (573)، ولهذا لم يذكره شيخنا في «المنتقى».

شهية الغذاء، ويعطش وبين يديه بارد الماء، وعف وبجانبه زوجته، لا رقيب عليه في ذلك إلا ربه، ولا سلطان إلا ضميره، ولا يسنده إلا إرادته القوية الواعية، يتكرر ذلك خمس عشرة ساعة أو أكثر في كل يوم، وتسعة وعشرين يوماً أو ثلاثين في كل عام، فأى مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية، وتعليم الصبر الجميل كمدرسة الصيام؟ التي يفتحها الإسلام إجبارياً للمسلمين في رمضان، وتطوعاً في غير رمضان.

لقد كتب عالم نفساني ألماني بحثاً عن قوة الإرادة، أثبت فيه أن أعظم وسيلة لذلك هي الصوم.

أما الإسلام فقد سبق علماء النفس، كما سبق من قبل أطباء الجسم، وحسبك أن تسمع نداء رسول الله للشباب: «يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»⁽⁵⁴⁾.

ولأن رمضان يعلم الصبر؛ نسبه الرسول إليه، فقال بعض الصحابة: «صم شهر الصبر رمضان» قال: إني أجد قوة، وإني أحب أن تزيدني، قال: «فصم يوماً من كل شهر»⁽⁵⁵⁾، وقال في حديث آخر: «لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم، والصوم نصف الصبر»⁽⁵⁶⁾.

(54) متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (884)، رواه البخاري في النكاح (5065)، ومسلم في النكاح (1400) عن ابن مسعود.

(55) رواه أحمد (20323) عن رجل من باهلة، وقال مخرجو «المسند»: حسن لغيره، رواه أبو داود (2428)، وعبد بن حميد (400)، والنسائي في «الكبرى» (2743).

(56) رواه ابن ماجه في الصيام (1745)، وقال العراقي في تخريج «الإحياء»: إسناده

وإنما كان الصوم نصف الصبر لأن في الإنسان قوى ثلاثة: قوة شهوية كالتى في البهائم، وقوة غضبية كالتى في السباع، وقوة روحية كالتى في الملائكة. فإذا تغلبت قوته الروحية على القوتين: الشهوية والغضبية كان ذلك هو الصبر كله، وإذا تغلبت على إحداهما كان ذلك نصف الصبر، وفي الصوم يتغلب المسلم على قوته الشهوانية من بطن وفرج، فكان الصوم حقًا نصف الصبر.

تعريف بالنعمة:

ومن حكم الصوم أنه: يُعرف المرء بمقدار نعمة الله عليه، والإنسان إذا تكررت عليه النعمة قل شعوره بها، فإن النعمة لا تعرف إلا بفقدانها، فالحلو لا تعرف قيمته إلا إذا نُقِيت المر، والنهار لا تعرف قيمته إلا إذا جن عليك الليل، وبضدها تتميز الأشياء.

ففي الصوم معرفة لقيمة الطعام والشراب والشبع. ولا يعرف ذلك إلا إذا ذاق الجسم حرارة العطش، ومرارة الجوع.

روي أن الحسن البصري رضي الله عنه كان صائمًا، فأقبل وقت الفطور فأتي بكوب بارد من الماء فأمسك به، ورأى نعمة الله في هذا الكوب، وتذكر من الذي جاء بها، من الذي فجره ينابيع، ومن الذي أنزله مطرًا، من الذي ساقه إليه، وظل يفكر حتى أغمي عليه، فلما أفاق قيل له: ماذا أصابك يا أبا سعيد؟ فقال: تذكرت أشياء وأشياء، وتذكرت أهل النار في النار، وأهل الجنة في الجنة، حيث ينادي أهل النار أهل الجنة: أن أفيضوا علينا من الماء.

فيقولون: إن الله حرمها على الكافرين.

تذكر الحسن كيف يطلب أهل النار شربة من ماء فلا يجدون، فتذكر نعمة الله، وجدير بمن تذكر نعمة الله أن يشكر الله! ومن أجل ذلك ورد في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، أو قال: ثلاثاً أو نحو هذا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك»⁽⁵⁷⁾.

تذكير بحرمان المحرومين:

ومن أسرار الصيام الاجتماعية: أنه تذكير عملي بجوع الجائعين، وبؤس البائسين، تذكير بغير خطبة بليغة ولا لسان فصيح، تذكير يسمعه الصائم من صوت المعدة، ونداء الأمعاء فإن الذي نبت في أحضان النعمة، ولم يعرف طعم الجوع، ولم يذق مرارة العطش، فلعله يظن أن الناس كلهم مثله، وأنه ما دام يجد فالناس يجدون، ما دام يطعم لحم طير مما تشتهي، وفاكهة مما يتخير، فلن يحرم الناس الخبز والبقول! فلا غرو أن جعل الله من الصوم مظهرًا للاشتراكية الصحيحة، والمساواة الكاملة، وجعل الجوع ضريبة إجبارية، يدفعها الموسر والمعسر، ويؤديها من ملك القناطر المقتطرة، ومن لا يملك قوت يومه، حتى يشعر الغني أن هناك معدات خاوية، وبطونًا خالية، وأحشاء لا تجد ما يمسك الرمق، ويطفئ الحرق، فحري بإنسانية الإنسان وإسلامية

(57) رواه أحمد (22190) عن أبي أمامة، وقال مخرجه: إسناده ضعيف جداً، ورواه الترمذي في الزهد (2451)، وقال: حديث حسن، وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي» (408).

فقال: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهواته وطعامه من أجلي» (59).

أيها الناس ذلكم هو الصوم في الإسلام، لم يشرعه الله تعذيباً للبشر ولا انتقاماً، كيف وقد ختم آية الصوم بقوله: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: 185]، وإنما شرعه الله إيقاظاً للروح، وتصحيحاً للجسد، وتقوية للإرادة، وتعويداً على الصبر، وتعريفاً بالنعيم، وتربية لمشاعر الرحمة، وتدريباً على كمال التسليم لله رب العالمين.

ومن رحمة رب العالمين: أنه شرع في الصيام رخة الفطر لمن كان مريضاً أو على سفر، فيفطر ويقضي عدة من أيام آخر. كما رخص للحامل والمرضع أن تفطر وتقضيا إن تيسر لهما ذلك، أو تفقدياً بإطعام مسكين عن كل يوم (60).

المسلمون والصيام:

تلك حكم يجب أن نرعاها حق رعايتها، وأن نضعها نصب أعيننا في صومنا حتى يكون صوماً يؤدي مهمته، وفي بالعرض المقصود منه.

فليت شعري هل فقه المسلمون أسرار الصيام، وهل انتفعوا بشهر رمضان؟

(59) رواه مسلم في الصيام (1151) عن أبي هريرة.

(60) تحدث فضيلة الشيخ في كتابه «فقه الصيام» بالتفصيل عن أصحاب الأعدار، وبين فضيلته من يجب عليه الفطر والقضاء ويحرم عليه الصوم، ومن يجوز له الفطر ويجب عليه القضاء، ومن يجوز له الفطر ولا قضاء عليه وإنما عليه الإطعام ... (ص 41)، وما بعدها طبعة مكتبة وهبة.

أما أسلافنا فقد جنوا ثماره، وتقيئوا ظلاله، واستمدوا منه روح القوة، وقوة الروح، كان نهارهم نشاطاً وإنتاجاً وإتقاناً، وكان ليلهم تزاوراً وتهجداً وقرآناً، وكان شهرهم كله تعلمًا وتعبدًا وإحسانًا، السننهم صائمه؛ فلا تلغوا برفث أو جهل، وأذانهم صائمه؛ فلا تسمع لباطل أو لغو، وأعينهم صائمه، فلا تنظر إلى حرام أو فحش، وقلوبهم صائمه، فلا تعزم على خطيئة أو إثم، وأيديهم صائمه، فلا تمتد بسوء أو أذى.

أما نحن فبئس موقفًا وقفناه من رمضان! جعله الله للقلب والروح، فجعلناه للبطن والمعدة، جعله الله للحلم والصبر، فجعلناه للغضب والطيش، جعله الله للسكينة والوقار، فجعلناه شهر السباب والشجار، جعله الله للحق والدين، فجعلناه للتين «وقمر الدين»⁽⁶¹⁾، جعله الله لتغيير فيه من صفات أنفسنا، فما غيرنا إلا مواعيد أكلنا، جعله الله تهذيبيًا للغني الطاعم، ومواساة للبايس المحروم، فجعلناه نحن معرضًا لفنون الأطعمة والأشربة، تزداد فيه تخمة الغني بقدر ما تزداد حسرة الفقير!!

الصوم حرب على الثالوث الخطر:

بئس القوم قوم اتخذوا من رمضان موسمًا للتعطل والتبطل، يأكلون فيه أضعاف ما يأكلون في غيره، وينفقون فيه أكثر مما ينفقون في شهور، نهارهم كسل ومنام، وليلهم شراب وطعام، وسهر جله لغو وحرام.

أما والله لو انتفعنا بـرمضان كما يريد الإسلام، لكان حربًا على أعدائنا الثلاثة أو الأربعة من: الجهل، والفقير، والمرضى، والرذيلة التي نادى

(61) من أشهر المشروبات التي يتناولها المصريون وغيرهم في شهر رمضان.

بمقاومتها الساسة والمصلحون والكتاب والخطباء.

نعم كان حربًا على الجهل، بما يلقي فيه من دروس العصر والعشاء
والسحر وال صباح، وما يعقد فيه من حلقات للتنقيف والتوجيه.

وكان حربًا على فقر الفقراء، بما يرقق من القلوب الجامدة عليها، فيجود
الموسر على المعسر، ويحسن الواجد إلى المحروم.

وكان حربًا على مرض المرضى، بما ت ستريح فيه المعدة، وتنتعش فيه
الأجهزة من عناء أحد عشر شهرًا.

وكان حربًا على الرذيلة، بما يهذب من أخلاق الصائم، ويعوده على
التغلب على نزوات الجسد، وشهوات النفس.

نصيحة إلى الصائمين:

أيها الصائمون:

إليكم نصيحتي فاسمعوها: لا تصوموا عما أحل الله وتفطروا على ما حرم
الله، بل اسمعوا قول رسولكم عليه السلام: «من لم يدع قول الزور والعمل
به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»⁽⁶²⁾. فصونوا جوارحكم،
ونظفوا قلوبكم، وعضوا أبصاركم، واحفظوا ألسنتكم، وكفوا أيديكم، واعلموا
أن بعد العناء روحا، وبعد الظمأ ريبًا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن في الجنة بابًا يقال له الريان،
يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين

(62) رواه البخاري في الصوم (1903) عن أبي هريرة .

الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق، فلن يدخل منه أحد»⁽⁶³⁾.

بين الصوم والجهاد:

حقيقة إن في صيام هذه الأيام الملهبة ما يتعب الجسد ويشق على النفس، ولكن هذا كله تدريب لأمة ذات رسالة وجهاد على ملاقات الشدائد، واحتمال المشقات، وعلى قدر التعب والعناء، يكون الأجر والجزاء، ولنا في سلفنا أسوة حسنة، فقد كانوا يرحبون بأيام القيظ الشديد ليصوموا، طلباً لما عند الله.

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى في سرية بحرية مع جماعة، فبينما هم قد رفعوا الشراع في ليلة مظلمة، إذا هاتف فوقهم يهتف: يا أهل السفينة: قفوا أخبركم بقضاء قضاه الله على نفسه. فقال أبو موسى: أخبرنا إن كنت مخبراً، قال: إن الله قضى على نفسه أن من عطش نفسه في يوم حار؛ كان حقاً على الله أن يرويه يوم القيامة. فكان أبو موسى يتوخى اليوم الشديد الحر الذي يكاد الإنسان ينسلخ فيه حرّاً، فيصومه⁽⁶⁴⁾.

وروي عن علي بن أبي طالب قوله: حبيب إلي من الدنيا ثلاث: قرى الضعيف، والصيام في الصيف، وحرب أعداء الله بالسيف.

فاصبروا أيه الصائمون نهاركم ولا تسأموا، وقوموا ليحكم ولا تكسلوا،

(63) متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (708)، رواه البخاري في الصوم (1896)، ومسلم في الصيام (1152) عن سهل بن سعد.

(64) رواه البيهقي في «الشعب» (11/3)، وابن المبارك في «الزهد» (413/3)، وذكره الألباني في «ضعيف الترغيب» (578)، ولهذا لم يذكره شيخنا في «المنتقى من الترغيب».

وأحسنوا على فقرائكم ولا تبخلوا؛ إن الله يحب المحسنين.

إحيوا ليالي رمضان بالقيام الخاشع، والعلم النافع، والتلاوة المرتلة، فعسى أن تصادفوا ليلة القدر فهي خير من ألف شهر.

رسالة إلى المفطرين:

أما أنتم أيها المفطرون المخدوعون فالتوبة التوبة، والإنابة الإنابة، قبل أن يفاجئكم الموت بسكراته، ويأخذكم الله بعذابه، وتندمون يوم لا ينفع الندم.

لقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه قومًا معلقين بعراقيبهم مشقة أشداقهم تسيل دمًا. فسأل من هؤلاء فقيل: هؤلاء الذين يفطرون قبل تحلة صومهم⁽⁶⁵⁾.

إذا كان هذا جزء من يهمل ويتسرع فيفطر قبل وقت الإفطار، فكيف بمن يجاهر بالإفطار نهارًا في بلد دينه الإسلام؟!!

أرشدوا هؤلاء الضالين أيها الصائمون، وخذوهم بالرفق، وأقنعوهم بالحسنى أولاً، فإن لم تجد معهم الحسنى، فانهروهم بشدة، وخذوهم بقوة، وقاطعوهم في الله، وأبغضوهم لله، فإن أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي»

(65) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (1986)، وابن حبان (7491)، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (430/1)، وانظر: «المنتقى من الترغيب والترهيب» للقرضاوي (521).

به، والصيام جنة فإذا كان يوم صيام أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح بفطره، وإذا ألقى ربه فرح بصومه»⁽⁶⁶⁾.

وعنه صلى الله عليه وسلم : «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»⁽⁶⁷⁾.

* * *

(66) متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (707)، رواه البخاري في الصوم (1904)، ومسلم في الصيام (1151) عن أبي هريرة.
(67) رواه البخاري في صلاة التراويح (2014)، ومسلم في صلاة المسافرين (760) عن أبي هريرة.

(4)

كيف نصلح عيوب أنفسنا؟⁽⁶⁸⁾

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور. أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، القائم على كل نفس بما كسبت، والعليم بأسرارها وإن خفيت، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 235].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، كان أشد الناس مراقبة لربه، ومحاسبة لنفسه، ومع ذلك كان يقول لأُمَّته معلماً ومرشداً: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنني أتوب إليه في اليوم مائة مرة»⁽⁶⁹⁾.

(68) لفضيلة الشيخ القرضاوي ظظظ سلسلة من الخطب حول تزكية النفوس، خطبها في العامين (2004م، 2005م)، ومنها:

- 1 - اعرف ربك.
 - 2 - حدد معرفتك بدينك.
 - 3 - الخروج من حب الدنيا إلى حب الآخرة.
 - 4 - الخروج من سجن الغفلة.
 - 5 - التوبة.
- كما أن لفضيلة شيخنا العلامة كلاماً رائعاً في كتابه «الإيمان والحياة» تحت عنوان «الإيمان والإصلاح» (ص 306)، وما بعدها. أوضح فيه كيفية الإصلاح والتغيير. طبعة مكتبة وهبة.
- (69) رواه مسلم في الذكر والدعاء (2702) عن الأغر المزني.

صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله على آله وصحابه، {فَالَّذِينَ
ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ} [الأعراف: 157].

ورضوان الله عن الداعين بدعوته، السالكين سبيله، المجاهدين جهاده إلى
يوم الدين.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

صلاح النفوس أساس كل شيء:

إن أساس النجاح، ومحور الخير يدور حول النفس البشرية، وإن كتائب
النصر والنجاح في الدنيا والآخرة إنما تعتمد على محور أصيل، وعمود
ثابت. هذا المحور، وهذا الأساس هو صلاح النفوس وطهارتها. هذا هو
الأساس لكل خير في الآخرة والأولى، فلن يصلح الفرد، ولن يفوز بالخير إلا
إذا صلحت نفسه التي بين جنبيه، وصدق الله العظيم: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا 7
فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا 8 قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا 9 وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [الشمس: 7
- 10].

ولن تصلح الأمة ولن يصلح المجتمع إلا إذا صلحت نفوس أفرادها،
واستقامت على أمر الله، وصارت على طريق الله المستقيم. {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا
بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: 11].

صلاح النفوس هو حبل النجاة، هو سفينة الإنقاذ، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ
حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: 11]⁽⁷⁰⁾.

(70) يجمع كل الدعاة والمسلمين على ضرورة تغيير وضع أمتنا الراهن. وأن هذا التغيير لا
بد أن يكون مما هو عليه ليرتقي إلى الحسن ثم إلى الأحسن، وهذا التغيير ولا شك يشمل

فعلى كل منا أن يرقب هذه المضغة - هذه اللطيفة الربانية - هذه الجوهرة الروحانية التي أسكنها الله به ... عليه أن يراقبها ويؤدبها ويزكيها، حتى تستقيم على أمر الله عز وجل .

كيف نعالج عيوب أنفسنا:

هذه النفس إذا صلحت صلح كل شيء، وإذا فسدت فسد كل شيء.

أول ما يجب عليك أيها المسلم: أن تعرف عيوب نفسك، فإذا عرفت فاصلحها.

ومن أين تعرف عيوب نفسك؟ أين المعلم الذي يأخذ بيدك وينير لك الطريق؟

الأفراد والجماعات. كما يشمل المؤسسات والهيئات، وإذا كان الجميع متفقاً على التغيير؛ فإنهم يختلفون في طبيعة هذا التغيير، وشكل هذا التغيير، وكيفية هذا التغيير. ومن هنا فقد نادى الشيخ القرضاوي بفقهِ التغيير قبل المناادة بالتغيير، فلا بد من معرفة سنن التغيير، ولئن كان التغيير السياسي مطلوباً وكذلك التغيير الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، فإن الشيخ يدعو إلى عدم إغفال أساس لا بد منه، لأن هذا الأساس ذكره الله في القرآن في صورة قانون من قوانين الله، وسنة من سنن الاجتماع التي لا تتبدل ولا تتغير، ألا وهو التغيير النفسي، أو على حد تعبير القرآن «تغيير ما بالأنفس» وهو ما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: 11]. انظر: «السياسة الشرعية» (ص321) مكتبة وهبة.

المعلم الأول: العلم النافع⁽⁷¹⁾:

الحق: أن هناك: أكثر من معلم يرشدك ويعينك في هذا السبيل.

إن أول شيء تعرف منه عيوب نفسك، وأول مرآة مصقولة ترى فيها عيوب نفسك: هو العلم النافع. فتعلم وادرس.

اعرف كتاب الله، وسنة رسوله، ففيهما بيان أمراض النفوس وعلاجها، وأدواء القلوب وأدويتها. فعليك بالعلم خذه من أهل الثقات: المعلمين الربانيين، الذين تعلموا في مدرسة النبوة، وأخذوا منها أسوتهم، وكانت لهم تجربتهم في ميدان التربية والسلوك⁽⁷²⁾. فانتفع بهم واقتبس منهم، ولا تكن عبداً لهم، بل كن عبداً لله وحده.

(71) لقد لاحظ الشيخ القرضاوي كما لاحظ غيره من الناصحين للأمة، أن الشباب الذي وقع في حفرة التكفير والتفسيق والتبديع، والتي جرت به إلى التطرف طورا أو الإرهاب طورا آخر، إنما كان سببه الرئيسي هو إعراضه عن العلماء، وعزوفه عن مجالسهم، ونتج عن ذلك أن غاص هؤلاء الشباب في بطون الكتب مباشرة، دون أن يتعلموا فن السباحة في عالم يحتاج إلى سباح ماهر، وغطاس بارع، فخرج هؤلاء الشباب باللؤلؤ والمرجان من أمهات الكتب مشوبا ومخلوطا بغيره، أو كما يقول الشيخ القرضاوي: دون أن يضعوه على مشرحة التحليل وطرحها على بساط البحث، ولكنه قرأ شيئا وفهمه واستنبط منه، وربما ساء القراءة، أو أساء الفهم، أو أساء الاستنباط وهو لا يدري. انظر: «الصحة الإسلامية بين الجحود والتطرف» (ص 89).

(72) لفضيلة الشيخ كتابان يوضحان منزلة العلم وأهميته في حياة المسلم أحدهما: تحدث فيه عن مكانة العلم ومنزلته، ومبلغ «العقلانية» ومدى «العلمية» في القرآن، وهو «العقل والعلم في القرآن الكريم» والثاني: دراسة موضوعية لبيان موقف الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة والسيره بمفهومه العام أو بمفهومه الحديث، وهو «الرسول والعلم»، والكتابان طبعة مكتبة وهبة.

المعلم الثاني: الأخ الناصح:

ثم من إخوانك وأصدقائك ... فإن الأخ الناصح، والصديق النافع، ليس الذي يجاملني على حساب الحق، ويداري عليّ عيوبي، وإنما الأخ الحق: هو الذي يعرفني بعيبِي، ولا يخشى من غضبي، فغضب الله أشد، وعليّ إذا كنت مؤمناً أن أتقبل نصحه وتوجيهه، فالمؤمن مرآة أخيه. يرى فيه ما لا يراه في غيره. واعلم أن الرجل الذي يقول لي: أخش من شرارة النار في ثوبك أشكره على هذا، وأطفئ هذه الشرارة. فما بالك بالذي يدلني على الحذر من نار وقودها الناس والحجارة؟!

لقد كان «عمر» يقف على المنبر ويقول: «رحم الله امرأ أهدى إليّ عيوب نفسي! مرحباً بالناصح أبد الدهر»، وكان يقول لحذيفة - وهو الخبير بأسرار المنافقين - يا حذيفة هل تجد في شيئاً من خصال المنافقين؟ فيقول: لا يا عمر؟ ولا أزكي أحداً بعدك.

ويقول عمر مستنصحاً الأمة: «من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومني».

من أهدى لك عيبك، وعرفك بنقصك فهذا هو الأخ الناصح، والصديق الصادق، عليك أن تحمده وتشكره.

المعلم الثالث: المجتمع:

ثم من المجتمع الذي تعيش فيه ... ترى ماذا يحمد الناس وماذا يذمون، ماذا يحبون وماذا يكرهون؟ ثم قس هذا على نفسك. إن كانوا يحبون الإيثار فأثر غيرك على نفسك، وإن كانوا يكرهون الأنانية والأثرة، فقس أخلاقك على ما يحب المجتمع وما يكره. وأبعد نفسك عن الشر. وهذا إذا ظل المجتمع

محافظةً على أصوله وقيمه وثوابته، ولم تجرفه رياح التقليد لمجتمعات أخرى مخالفة له، فيقلدها ويمشي وراءها شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع⁽⁷³⁾.

المعلم الرابع: الأعداء:

وهناك معلم رابع تعلم منه عيوب نفسك: هم أعداؤك. وكيف يكون عدوي معلمًا؟ نعم فإن هناك من أصدقائك وأحبائك: من يدارون عليك، ويسكتون على عيوبك، أما خصمك فهو الذي يتمنى لك الخطأ والغلطة ويبحث عنها ويبرزها إذا عرفها.

وعين الرضا عن كل عيب كما أن عين السخط تبدي
فهم الذين يبصرون الذرات من عيوبك، ولقد قال إمامنا الشافعي:

عداتي لهم فضل عليّ ومنة فما باعد الرحمن عني الأعدايا
فهم بحثوا عن زلة فاجتنبتها وهم ناقسوني فارتكبت المعاليا
بهذه الأمور الأربعة. نعالج عيوبنا، وندرك نقصنا.

النفس مجبولة على الخير والشر:

إن النفس ليست شريرة كل الشر، ولكن فيها استعداد للخير، واستعداد للشر، استعداد للتقوى واستعداد للفجور، كما قال تعالى: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: 10] {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: 3]، {وَنَفْسٍ وَمَا

(73) يشير فضيلة الشيخ إلى التقليد الأعمى الذي ينساق وراءه المسلمون ليقلدوا فيه غيرهم دون وعي أو إدراك. وهو الذي حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: «لَتَتَّبِعَنَ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شَبْرًا بِشْبِيرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ سَلَكَوا جَحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ» قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فمن؟!» رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (3456) عن أبي سعيد.

سَوَّيَهَا 7 فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [الشمس: 7، 8].

الأنفس ثلاثة:

وإن النفس أمارة بالسوء كما حكى الله على لسان يوسف (74) {وَمَا أُبْرِيئُ
نَفْسِيَّ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} [يوسف:
53]. النفس أمارة بالسوء، ميالة إلى المنفعة الدنيوية، ميالة إلى اللهو واللعب،
ولكنك تستطيع أن تقهرها على الحق، وتدفعها إلى الخير، فتتعود عمل الخير
وترك الشر.

فإذا فعلت شراً كان لك من نفسك السلاح، وكان لك من ضميرك حارس
ناقم، يستطيع دائماً أن يؤنبك، وأن يدفعك على الخير إذ أهملته، وهذه هي
«النفس اللوامة»، أي التي تلوم صاحبها على ترك الخير وفعل الشر. تقول
لك:

لماذا أكلت هذه اللقمة؟! ولماذا شربت هذه الشربة؟!!

ولماذا تكلمت هذه الكلمة؟! ولماذا ضحكت هذه الضحكة؟!!

ولماذا نظرت هذه النظرة؟! ولماذا فعلت هذا الفعل؟!

{مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 18] هذه النفس هي التي أقسم الله
بها فقال: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة: 2].

ثم إذا سارت نفسك على هذا المنوال، وأصبحت تبتعد عن فعل الشر

(74) هكذا كان رأي الشيخ في أول حياته العلمية، على ما هو مشهور عند الكثيرين، ولكنه
الآن يؤكد: أن هذا القول إنما هو قول امرأة العزيز كما يتبين من السياق.

انخرطت إلى مرحلة أسمى، ومرتبة أعلى وأرقى، مرتبة «النفس المطمئنة»، وهي التي ناداها الله في كتابه فقال: {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ 27 ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً 28 فَأَدْخُلِي فِي عِبْدِي 29 وَأَدْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر: 27 - 30].

المشاركة والمراقبة:

عليك أيها المسلم عندما تقوم من نومك أن تشتترط على نفسك شروطاً: ألا تهمل في صلاة، وألا تترك فريضة، وألا تتكلم كلمة فارغة، وأن تعرض عن اللغو.

شارط نفسك على هذا، واعقد معها عقداً، واكتب عليها صكاً، هذا قبل أن تعمل شيئاً، ثم إذا تقدمت للعمل فعليك أن تلزمها برقابة الله، وتذكرها بأن عين الله لا تغفل، وأنه لا تأخذه سنة ولا نوم {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} [المجادلة: 7] (75).

حكى الإمام الغزالي: أنا شاباً غازل فتاة، ورودها عن نفسها، فأببت

(75) شعائر الإسلام تنشئ فيما تنشئ قلوباً حية، وضمائر يقظة، وأفئدة سليمة، بل الإسلام كله أراد أن يكون المسلم كذلك، مراقباً لله في السر والعلن، في الظهور والخفاء، في الجلوة والخلوة، وحده وأمام الناس، وإيمان العبد بالله عز وجل والتزامه بشعائره هو الذي يربي ذلك في نفسه، لذا كان من كلام الله عز وجل قوله: {أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: 80]. بهذه الآية ومثلها كثير أراد الله عز وجل أن تصل قلوب أهل الإيمان إلى الحياة، وضمائرهم إلى اليقظة، التي يصل فيها العبد وكأنه يرى الله، أو على الأقل فليعلم بأن الله يراه، وهذا هو معنى حديث جبريل في الإحسان: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». متفق عليه. البخاري في الإيمان رقم (50)، ومسلم في الإيمان رقم (9) عن أبي هريرة.

وامتنعت، فقال لها: ولم؟ ونحن في مكان خال، وليس معنا إلا هذه الكواكب.
فقالت له: يا هذا وأين مكوكبها، ومسيرها؟!!

لقد حدثوا أن شيخاً أراد أن يمتحن بعض التلاميذ فعقد لهم امتحاناً،
وأعطى كل واحد منهم عصفورة وسكيناً. وقال لكل واحد منهم: اذهب في
مكان خال من كل عين واذبحها.

فذهب هذا إلى «قاعة» وأغلقها على نفسه ثم عاد بها مذبوحة، وذهب
الثاني إلى جبل حيث لا إنسان فيه، ولا حيوان، وذبها. وذهب الثالث وذهب
الرابع ... وجاء كل منهم بطائره مذبوحة، إلا واحداً منهم لم يذبح طائره،
وجاء به حياً، فقال له الشيخ: لم لم تذب طائرَكَ؟ فقال التلميذ: لم أجد مكاناً إلا
من ورائها عيناً ترقبني، فقال: أي عين؟ قال: عين الله {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: 4].

ولله در القائل:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت، ولكن قل علي
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب!
ذكرها بالرقابة، وأن عليها «بوليساً» سرّياً يسجل عليك حركاتك
وسكناتك، وغدواتك، وروحائك، وخطواتك، وكل ما تحدثك به نفسك، يسجل
هذا عليك. {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُمُونَ}
[الزخرف: 80]. ويوم القيامة ينادي المنادي عليهم: {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ
إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجن: 29].

* * *

(5)

من ثمرات رمضان التوبة⁽⁷⁶⁾

الحمد لله ... تتبدل الأيام وهو لا يتبدل، وتتحول الأشياء والخلائق وهو لا يتحول، وتتغير السنون والأعوام وهو لا يتغير {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَ لَهُ أَلْحَمُّ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: 88].

أحمدته سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له. دعانا إلى حضرته، ونادانا إلى بابه، وأمرنا جميعاً بالتوبة إليه فقال: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: 31].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أخلص الناس لله، وأعرفهم بالله، وأنقاهم لله ... عرف ربه فلم يجهره، وذكره فلم ينسه، وشكر له فلم يكفره، وأقبل عليه فلم يعرض عنه ... ومع هذا كان يقول لأمته معلماً ومرشداً: «يا أيها الناس

(76) ألقيت هذه الخطبة في يوم الجمعة - 6 شوال 1372 هـ الموافق 19 يونيو 1953 م. ولفضية شيخنا العلامة القرضاوي خطبتان في الجزء الأول بعنوان: «التوبة» والثانية بعنوان: «أركان التوبة وشروطها»، كما أن لفضيلة الشيخ ضمن سلسلة «تيسير فقه السلوك في ضوء الكتاب والسنة» كتاب بعنوان «التوبة إلى الله» وقصد الشيخ من هذا الكتاب - وكذلك خطبه - إيقاظ القلوب الغافلة ورد العقول الشاردة وتقوية العزائم المسترخية (ص8) طبعة مكتبة وهبة القاهرة، ط. الأولى 1998 م. ومما تجدر الإشارة إليه: أن عناصر هذه الخطبة وما جاء فيها من أدلة ودلالات لم تتغير كثيراً عما سجله شيخنا في كتابه «التوبة إلى الله» وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على رسوخ هذه الأفكار والمعاني منذ زمن بعيد في ذهن الشيخ وفكره.

توبوا إلى الله فإنني أتوب إليه في اليوم مائة مرة»(77).

صلوات الله وسلامه على هذا النبي الكريم، ورضوان الله على آله وصحابته، {فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ} أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ { [الأعراف: 157].

وارض اللهم عن الداعين بدعوته، والسالكين منهاجه، المجاهدين في الله حق جهاده إلى يوم الدين.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

وماذا بعد رمضان؟

ها نحن قد ودعنا رمضان(78)، واستقبلنا شوال ... فماذا ننوي أن نفعل؟

لعل هناك كثيرًا من الناس قد عادوا سيرتهم الأولى: إلى ترك الصلوات واتباع الشهوات، وساروا في ركاب الشيطان.

إن الشياطين قد انطلقت من عقلها(79) في شوال، وكثيرًا من شياطين الإنس سيعودون على شياطين الجن ليستمتع بعضهم ببعض، ويتعاون بعضهم مع بعض، على معصية الرحمن!!

(77) رواه مسلم في الذكر والدعاء (2702) عن الأغر المزني.

(78) لفضيلة الشيخ القرضاوي خطبة في الجزء الثالث من الخطب بعنوان: «وقفات بعد رمضان»، وبها معان مائة، ووقفات نافلة، فلترجع (ج3/218 - 229).

(79) جمع عقال: وهو القيد وفضيلة الشيخ يشير إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا دخل شهر رمضان؛ فتحت أبواب السماء، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين» متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (652)، رواه البخاري في الصوم (1898)، ومسلم في الصيام (1079) عن أبي هريرة.

هذا دليل على أن هؤلاء لم يعرفوا الله حقاً في رمضان.

إن المقبول في رمضان من نراه يرجع إلى الله في شوال.

إن علامة قبول الصيام، وأمانة قبول القيام: أن يظل بعد ذلك مع الله، وأن يرجع إليه، وأن يقول قولة أبيه وأمه «آدم وحواء» {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخُسِرِينَ} [الأعراف: 23].

من كان يعبد رمضان فإن رمضان قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، إن الله محمود بكل لسان، معبود في كل زمان، مقصود في كل أوان، يجب أن يطاع في كل شهر، ويكره أن يعصى في كل حين {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} [الزمر: 7]. {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: 58]. {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [المائدة: 64]. {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} [النساء: 107]. {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} [النساء: 36].

فلماذا نعبد الله في رمضان ونعرض عن الله في شوال؟! إن أعظم ثمرة يخرج بها المسلم من رمضان هي: التوبة الصادقة النصوح من الذنوب، توبة من المعاصي، توبة من الآثام، ورجوع إلى الله رب العالمين.
موانع التوبة(80):-

هذه التوبة هي الثمرة الناضجة التي يقتطفها المسلم من شهر رمضان ...

(80) ذكر شيخنا في كتابه «التوبة إلى الله» الموانع من التوبة، وعدد شيخنا من هذه الموانع ستة، وهي:

- 1 - الإستهانة بالذنوب.
- 2 - طول الأمل.
- 3 - الاتكال على أمانى العفو الإلهي.
- 4 - استحكام الذنوب واليأس من المغفرة.
- 5 - الجهل بحقيقة المعصية.
- 6 - الاحتجاج بالقدر.

فماذا يحول بين المسلم والتوبة؟ ماذا يحول بين العبد والرجوع إلى الله تعالى؟

1 - الاستهانة بالمعصية:

لعل هناك قومًا يستهينون بالمعصية، ويستصغرون الذنوب، ولقد كان السلف الصالح يقول: «إن الذنب الذي يخشى ألا يغفر هو: أن يقول العبد: ليت كل ذنب فعلت مثل هذا».

ولقد أوحى الله إلى نبي من أنبيائه: لا تنظر إلى صغر الهدية ولكن انظر إلى عظمة مهديها، ولا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى كبرياء من عصيته بها.

وفي الحديث الشريف: «المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وأن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا»⁽⁸¹⁾.

كان السلف يخشون من الذنب الصغير الضئيل، ونحن الآن لا يهمنا الذنب العظيم.

ولقد مر جماعة على أحد الصالحين وهو يبكي بكاءً مرًا، ويزرف دموعًا ثخينة، فقال بعضهم: يا أبا فلان: ما لنا نراك تبكي، وما رأينا منك فريضة تركتها، ولا حرمة انتهكتها؟ فقال: والله ما أبكي على ذنب فعلته، ولا على واجب أهملته. إنما أبكي لأنني أخشى أن أكون قد أتيت ذنبًا أحسبه هينا وهو عند الله عظيم⁽⁸²⁾.

(81) رواه البخاري في الدعوات (6308) عن ابن مسعود.

(82)، وهو يشير إلى ما ذكره القرآن في قصة أم المؤمنين عائشة وكيف لاكت بعض السنة

وقد ذكرت عائشة مرة إحدى ضرائرها فأشارت إلى أنها قصيرة القامة!
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا عائشة لقد قلت كلمة لو مزجت
بماء البحر لمزجته»(83).

وكان أنس رضي الله عنه يقول: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم
من الشعر كنا نعتها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من
الموبات(84).

هذه هي ضمائرهم الحساسة، وقلوبهم اليقظة، لم يكونوا يستصغرون
الذنوب بل كانوا يستصغرون الطاعات.

2 - التسوية وطول الأمل(85):

فماذا يحول بين العبد وربّه؟

استهانة بالمعصية؟ أم تسوية وتأجيل وتأخير؟

إن أكثرنا يقول: غداً أتوب ... ثم يأتي الغد فيقول: بعد غد أتوب ... يقول
ابن العشرين: سأتوب في الثلاثين، ويقول ابن الثلاثين: سأتوب في الأربعين،
ويقول ابن الأربعين: سأتوب في الخمسين ... وهكذا نرى الصغير والكبير،
والشباب والكهل، كلهم يسوفون ويؤجلون، ولا يدرون أن كل امرئ مهدد

المسلمين حديث الإفك عنها، الذي أشاعه المنافقون فتلقفوه بسذاجة وغباء، ونقله بعضهم
عن بعض باستهتار، وبلا تهيب، فجاء القرآن يعقب ويقول: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} [النور: 15].

(83) رواه أبو داود في الأدب (4875)، والترمذي في الأدب (2504).

(84) رواه البخاري في الرقاق (6492) عن أنس.

(85) للمزيد انظر كتاب الشيخ: «التوبة إلى الله» (ص 247).

بالموت في أي لحظة، وأن الموت أدنى إليه من شرك نعله، ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: 77].

إن كل إنسان يخرج من بيته ولا يدري أيعود حيًّا أم ميتًا؟ يخرج ولا يعرف أيعود حاملاً أم محمولاً؟ إنك تلبس الثوب فلا تدري أنتزعه بيديك أم تنزعه عنك يد الغاسل؟

إن الأجل مجهول، وإن العمر خاتمته غير معروفة، أخفاها الله عن الإنسان ليبادر إلى التوبة، ويسرع إلى الطاعة، ويفر من المعصية.

إن الذنوب شجرة خبيثة، كلما أذنبت ذنباً، تمكن جذر هذه الشجرة من القلب، فعلى المسلم أن يبادر بالتوبة قبل أن تتراكم الذنوب على قلبه، فالقلب كالمرآة المجلوة الصافية، إذا أذنبت ذنباً، نكت فيه نكتة سوداء، فإذا تاب محبت، وإذا عاد صارت نكتة بجانبها، حتى يتراكم السواد على القلب⁽⁸⁶⁾. فهذا هو الران الذي قال الله فيه: ﴿كَلَّا بَلَّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14].

إن تأخير التوبة، وتسويق الرجوع إلى الله يؤدي إلى أن تتراكم الذنوب على القلب، فربما ختم على الإنسان بغير الإيمان، والعياذ بالله!!

(86) يشير فضيلة الشيخ هنا إلى حديث حذيفة وفيه يقول النبي صلى الله عليه وسلم : «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأى قلب أشربها» دخلت فيه دخولاً تاماً» نكت فيه نكتة «نقطة» سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: قلب أبيض مثل الصفا «الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء»، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مُرباد كالكوز مجخيا «مائلاً» لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه». رواه مسلم في الإيمان (144) عن حذيفة بن اليمان.

وربما جاءه الموت فيقول: ليتني فعلت، ليتني رجعت، هل لي من تأخير؟ هل لي من تأجيل؟؟ و هيهات هيهات أن يكون ذلك، وصدق الله العظيم: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: 10].

3 - الاتكال على أمانى العفو الإلهي:

ماذا يحول بين العبد وبين التوبة؟

أهو الاستهانة بالمعاصي والذنوب؟ أم هو التسويف والتأجيل؟ أم هو الاتكال على رحمة الله وعفوه؟

هذا اتكال المغرور الجاهل ... إن الله كما أخبر أنه غفور رحيم، حذرنا أن عذابه أليم شديد قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: 43]، وقال سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 98]، وقال أيضاً: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ﴾ [غافر: 3]، وقال جل شأنه: ﴿نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ 49 وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 49، 50].

فلماذا نأخذ بآية وننسى أخرى؟ لماذا نقول: هو الغفور الودود. وننسى قبلها ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

لقد كانت السيدة رابعة العدوية⁽⁸⁷⁾ تتغنى بهذه البيتين وتقول:

(87) رابعة العدوية من الشخصيات التي كثر الجدل حولها وحول ما ينسب إليها ولفضيلة الشيخ فتوى كاملة تحدث فيها عن رابعة وما يدور حولها، وما يقبل من كلامها وما لا يقبل، انظر: «فتاوى معاصرة» (503/2 - 512) طبعة دار القلم.

ما بال قلبك ترضى أن تدنسه وثوبك الدهر مغسول من
 ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على
 إن رحمة الله وسعت كل شيء ... ولكن هل يرمي بها بلا قاعدة ولا نظام
 ... لقد قال ربنا: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: 56]. والإحسان
 أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك⁽⁸⁸⁾. إن رحمة الله واسعة؛
 ولكن لمن كتبها؟ {فَسَأَلْتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا
 يُؤْمِنُونَ 156 الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} [الأعراف: 156، 157].

إن شؤم الذنب خطير⁽⁸⁹⁾ ... إن الله عاتب أنبياءه على هفوات صغرى ...
 لقد التقم الحوت يونس لغضبه غضبها في غير محلها، وعاتب ربنا نوحاً من
 أجل كلمة قالها ... {إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [هود: 46]، وعاتب الله آدم
 بل أخرجه من الجنة من أجل لقمة أكلها في غير ما أمر الله {وَقُلْنَا أَهْبِطُوا
 بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [البقرة: 36].

ماذا نكون نحن بعدهم؟ وقد نخوض في الذنوب خوفاً، ونغمس في
 المعاصي انغماساً، ونقول «هو الله الغفور الرحيم»!.

يا ناظرا يرنو بعيني راقد ومشاهدا للأمر غير مشاهد!
 أنسيت نفسك ضلة وأبحثها طرق الرجاء، وهن غير
 تصل الذنوب إلى الذنوب نيل الجنان بها وفوز العابد!

(88) إشارة إلى حديث جبريل الطويل، والحديث رواه مسلم في الإيمان (8) عن عمر ابن الخطاب.

(89) للإمام ابن القيم كلام طويل في آثار الذنوب وشؤم المعاصي، أطال النفس فيه في كتابه «الداء والدواء» فليراجع.

انسيت أن الله أخرج آدمًا منها إلى الدنيا بذنب واحد؟! أخرج الله آدم بمعصية ضئيلة من الجنة ... فكيف نحن وقد نأتي بالمعصية إثر المعصية، علينا ألا نتكل على عفو الله فقط، فليس هذا من الرجاء في شيء إنما هذا أمنية فارغة، وحمق باطل، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»⁽⁹⁰⁾.

وقال علي بن أبي طالب: إياكم والاتكال على الأماني، فإنها بضائع النوكي، أي الحمقى.

والشاعر يقول:

ولا تكن عبد المنى، فالمنى رؤوس أموال المفاليس
وقال آخر:

اعل بالمنى قلبي، لعلني أروح بالأماني الهم عني!
واعلم أن وصالك لا يرجي ولكن لا أقل من التمني!

4 - اليأس من رحمة الله:

ماذا يحول بين العبد وربه.

أهي استهانة بالمعاصي؟ أم طول الأمل وتسويق وتأجيل؟ أم هو اتكال على عفو الله؟ أم هو يأس من رحمة الله؟!

(90) رواه أحمد (17123) عن شداد بن أوس، وقال مخرجو «المسند» إسناده ضعيف، ورواه ابن ماجه في الزهد (4260)، والترمذي في صفة القيامة (2459)، وقال: هذا حديث حسن، ورواه الحاكم وقال: صحيح ووافقه الذهبي (251/4).

إن الذين يبأسون من رحمة الله، وينظرون إلى الدنيا وقد تقطعت أسبابها، فيعرضون عنه إعراضاً، ويصدون عنه صدوداً، وينفضون أيديهم من التوبة: جاهلون مخطئون في حق الله ... فإن الله «يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»⁽⁹¹⁾.

إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم»⁽⁹²⁾.

وقال الله في الحديث القدسي: «يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»⁽⁹³⁾.

التوبة ثمرة رمضان:

إن المسلم حقاً هو الذي اقتطف أعظم ثمرة من رمضان، وندم على المعصية، وعزم على الطاعة، واحترق قلبه بنار الحسرة على ما فات، ثم عاد مخلصاً ... فإن باب الله ليس عليه حاجب ولا بواب ... بابه مفتوح لكل طالب حتى تطلع الشمس من مغربها.

ليس عجباً أن يخطئ ابن آدم فهو مخلوق من طين، والطين لا يخلو من كدر، وما سمي الإنسان إنساناً إلا لنسيانه {وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَسَيِّ} كدر، وما سمي الإنسان إنساناً إلا لنسيانه {وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَسَيِّ}

(91) رواه مسلم في التوبة (2759) عن أبي موسى.

(92) رواه مسلم في التوبة (2749) عن أبي هريرة.

(93) رواه الترمذي في التوبة (3789) عن أنس بن مالك، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (2805)، ولمسلم عن أبي ذر: «ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة»، رواه مسلم في الذكر والادعاء (2686).

[طه: 115].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «مثل المؤمن كمثل السنبة تخر مرة وتستقيم مرة»⁽⁹⁴⁾.

إنما العجيب كل العجيب: أن يتشبث بالذنوب، ويتمادى في الخطأ ويصر على عدم مصالحته لربه.

أما إنه إذا أذنب ثم تاب فإن الله يقول: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوْبِينِ عُفُورًا} [الإسراء: 25]، والأواب: كثير الأوبة إلى الله، كلما عصى ربه أب إليه، ولم ييأس من روحه. فإن مغفرة الله تعالى أوسع من ذنوبه، وأكبر من معاصيه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»⁽⁹⁵⁾.

أيها المسلم:

إن أعظم ثمرة تقتطفها من رمضان: إنما هي توبة صادقة، توبة نصوح نقرع بها باب ربنا، ونغسل بها ذنوبنا بدموعنا، ونرجع بعدها بقلوب صافية،

(94) رواه أحمد (14762) عن جابر، وقال مخرجو «المسند»: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، ورواه عبد بن حميد (1010)، والبخاري (46). وقال الهيثمي: رواه أحمد وفيه ابن لهيعة، وفيه كلام، ورواه البزار ورجاله ثقات (293/2).

(95) رواه الترمذي في صفة القيامة (2612)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة، وابن ماجه في الزهد (4251)، والحاكم وقال: حديث صحيح الإسناد، وقال الذهبي: علي لين (244/4)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (2029)، وانظر: «المنتقى من الترغيب والترهيب» (1927).

وعزائم جديدة، لا تنتهي للشيطان، ولا تلين للغواة الغزاة، الذين يغزون القلوب، كما يغزو الاستعمار البلاد والشعوب.

علامة التوبة النصوح⁽⁹⁶⁾:

وعلامة هذه التوبة: أن يهجر الإنسان بيئة الشر ويبحث عن وسط خير، وبيئة طيبة كريمة ليتقبله الله، ويسلكه في حربه الغالبيين، ويدخله برحمته في عباده الصالحين.

وقد روي في بعض الآثار القدسية أن الله يقول: «إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد أتحبب إليهم بنعمي، وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي، وهم أفقر شيء إلي، من أقبل إلي تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني ناديته من قريب، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد، ومن أراد رضاي أردت ما يريد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألفت له الحديد.

أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيارتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطع من رحمتي، إن تابوا إلي فأنا حبيبهم، فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأظهرهم من المعائب.

(96) ذكر فضيلة الشيخ في كتابه «التوبة إلى الله» علامات التوبة وأطال النفس هناك، ونقل الشيخ هناك جزءاً من الكلام النفيس لابن القيم في «مدارج السالكين». فليراجع (ص

من أثرتني على سواي أثرتة على سواه، الحسنة عندي بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، والسيئة عندي بواحدة فإن ندم عليها واستغفرتني غفرتها له. أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الزلل، رحمتي سبقت غضبي وحلمي سبق مؤاخذتي وعفوي سبق عقوبتي».

* * *

(6)

نساء اليوم⁽⁹⁷⁾

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أدى الأمانة وبلغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً. صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله على آله وأصحابه، {فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: 157].

ورضى الله عن دعا بدعوته، ونهج نهجه، وسلك سبيله، ونصر دعوته إلى يوم الدين.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

أصل الداء ومحور البلاء:

لقد تحدثنا قبل الجمعة الماضية عن الشباب وما عليه من واجبات⁽⁹⁸⁾، وما

(97) ألقىت هذه الخطبة في 26 من ذي القعدة 1372 هـ الموافق 7 أغسطس 1953 م.

(98) لشيخنا ظلّظ اهتمام بالغ بالشباب في كتبه وخطبه، ومحاضراته وتوجيهاته، وله محاضرة مطبوعة بعنوان «واجب الشباب المسلم اليوم» ويظهر اهتمام شيخنا البالغ

يعقد عليه من آمال، ورأينا كيف فسد الشباب، وكيف ظل يتسكع في الطرقات، وكيف نسي مهمته، وأغفل واجبه، وتركه الآباء، وأطلقوا له العنان، وأهمل في حقه أولياء الأمور، ولكننا بجانب ذلك لا ننسى فساد النساء⁽⁹⁹⁾. إذا ذكرنا الشباب وإذا تألمنا للشباب فيجب أن نذكر أمرًا آخر هو: أصل الداء ومحور البلاء، يجب أن نذكر: فساد النساء فإذا فسد النساء فسد الشباب، أمران متلازمان، كل منهما سبب ونتيجة للآخر.

كيف نطالب الشباب بالاستقامة وبالسير على الجادة، وعلى أمر الله وكيف يتجنب الخطايا، ويتعد عن طريق الشيطان؟ وهو إذا سار سارت الفتنة بجانبه، إذا تطلع عن يمينه وعن شماله لم يجد إلا الخلاعة مجسمة، والفجور يسعى على قدمين.

كيف نطالب الشباب بالاستقامة، والحياة بجانبه تدعوه إلى الإثم، وتغريه بالفسوق، وتحضه على الرذيلة؟

كيف نضع الفحم بجوار النار، ثم نقول له: يا فحم إياك أن تشتعل!؟

بالشباب في خطبه، حيث جمع الجزء الرابع من خطب فضيلته أكثر من خطبة تتعلق بالشباب ومنها: حال شبابنا اليوم - حال فتياتنا اليوم - وصايا للشباب المسلم المغترب. (99) لشيخنا - أطل الله عمره وحسن عمله - اهتمام بالغ بالمرأة، فهو نصير من أنصارها، ومنصف من منصفها، نعم هو كذلك من أبرز الدعاة الذين انصفوا المرأة من الظلم الاجتماعي البين، الذي ينسب أحياناً إلى الدين والدين منه براء، لكن إنصاف الشيخ للمرأة ليس كإنصاف دعاة التحرير أو «التحليل» وإنما هو إنصاف نابع من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا رأينا قلم الشيخ لا يفتأ يُذكر بالمرأة وما لها وما عليها، ومن ذلك: مركز المرأة في الحياة الإسلامية، النقاب للمرأة بين القول ببديته والقول بوجوبه، فتاوى للمرأة المسلمة وأخيراً: بحثه الأصيل في «دية المرأة».

أدر بصرك على هذا المجتمع الذي نعيش فيه ثم انظر ماذا ترى. ترى فيه تحلاً، وترى فيه إباحية، وترى فيه فساداً عريضاً.

نساؤنا ونساء السلف:

لقد كانت المرأة أيام السلف الصالح تستحي أن تكشف النقاب عن وجهها، وكانت تعتقد أنها درة مكنونة، وجوهرة مصونة، إذا تعرضت لعبث الأيدي احتقرت وأبتذلت.

أما المرأة في هذه الأيام: فقد أصبحت تعتقد في نفسها أنها دُمية للعبث واللعب، تخوض الطرقات، وتزاحم الرجال بالمناكب في الأحفال والمراقص.

أما المرأة الآن فقد كشفت برقع الحياء عن وجهها وخالطت الرجال كأنها رجل، أو أقل حياء من الرجل، مع ما ورد في الآثار: «لو أن الله لم يستر المرأة بالحياء لكانت لا تساوي كفا من تراب» فكم تساوي المرأة اليوم بميزان الإسلام وقد فقدت الحياء وقلدت المرأة الغربية شبراً بشبر، وذراعاً بذراع؟!!

اكتبوها في مكارم الأخلاق:

حدثوا أن امرأة اشتكت زوجها بالمتأخر من مهرها، فذهبت إلى القاضي، وأراد القاضي أن يرى الشهود وجهها. فقالت المرأة: ولماذا هذا؟ فقال القاضي: لا بد من أن يرى الشهود وجهك ليكون الحكم عادلاً. فقالت: إذا أدى الأمر إلى أن يرى الشهود وجهي فأشهدكم أنني تنازلت عن حقي. وبلغ ذلك الزوج، فقال: أما وقد فعلت ذلك، فإني أعطيها ما طلبت بلا محاكمة ولا

قضاء. فقال القاضي: تكتب هذه من مكارم الأخلاق!

هذا مع أن القول الصحيح: إن النقاب فضيلة - لا فريضة.

هكذا كان المجتمع الإسلامي، وكانت الفضيلة في قوم أشربت قلوبهم

الإيمان.

عُزى مقبوت وتبرج مرفوض:

ماذا نرى اليوم؟ نرى ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»⁽¹⁰⁰⁾.

هذا ما نرى اليوم، أنسات وهن متبجحات، وزوجات وهن متحلات، لابسات وهن عاريات.

أي وربي ... ملبس يصف ما تحته، ويكشف عما وراءه كأنما صنع من زجاج، لا يستر عورة، ولا يغطي مكشوفاً، فكيف نرضى لأنفسنا أن نصل إلى هذا؟

إنك لو ذهبت إلى أحد الشواطئ والمصايف، ورأيت ما هناك لهالك ما رأيت. ترى النساء العاريات، أو شبه العاريات. ترى الحياء وهو يذبح، ترى الفضيلة ودمها يراق، ترى الأجسام التي تعرض لحوماً رخيصة تباع على أعين الناس. وبعد هذا يقال: مسلمون ومسلمات⁽¹⁰¹⁾! وقد قال النبي صلى الله

(100) جزء من حديث رواه مسلم في «اللباس والزينة» (2128) عن أبي هريرة، ومطلع الحديث: «صنفان من أهل النار لم أرهما...» وذكر منهما هذا الصنف من النساء.

(101) لا يقصد فضيلة الشيخ نفي الإسلام عن هؤلاء، فهو يرفض التكفير المعاصي حتى

عليه وسلم : «أيما امرأة نزع ثيابها في غير بيت زوجها، إلا هتكت
ستر ما بينها وبين ربها»⁽¹⁰²⁾.

وما هن اللاتي يخلعن ثيابهن على «البلاج» وعلى جوانب البحار، وعلى
مرأى من الشباب والرجال.
أي رجولة بقيت للرجل الذي لا يغار؟! وأي أنوثة بقيت للمرأة التي لا
تخجل!!؟

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
فساد المرأة فساد لكل شيء:

إن الأمة التي تفسد فيها المرأة يفسد فيها كل شيء.

فساد المرأة يفسد الشباب، وفساد الشباب تفسد الأمة، وفساد الأمة يفسد
اجتماعها، تفسد سياستها، ويفسد جيشها، وتفسد شرطتها، ويفسد اقتصادها،
لأن الشباب بمثابة قلبها، وإذا صلح القلب صلح الجسد كله، وإذا فسد القلب
فسد الجسد كله.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما تركت بعدي فتنة أضر

وإن كانت كبائر، إنما يقصد نفي الإيمان الكامل. راجع رسالة الشيخ «ظاهرة الغلو في
التكفير».

(102) رواه أحمد (24140) عن عائشة وقال مخرجوه «المسند»: حديث حسن، وأخرجه
الدارمي (2651)، وأبو يعلى (4390)، ورواه أحمد أيضًا برقم (26569) عن أم سلمة
بلفظ: «أيما امرأة نزع ثيابها في غير بيتها، خرق الله لها سترا» وقال محققو
«المسند»: حسن لغيره.

على الرجال من النساء» (103).

وإنما تكون المرأة فتننة إذا تركت مكانها الطبيعي، ومقرها الفطري، إذا فقدت خلق الحياء، الذي هو حليتها قبل الذهب والجواهر. تكون فتننة إذا تركت بيتها، وخرجت إلى الشارع لغير حاجة، إلا لتجذب أنظار الرجال، وتثير غرائز الشباب! المرأة هي مديرة البيت أو مربيته ورئيسته، تطهو طعامه، وتنظم أثاثه، وترعى أولاده، وتعمل ما تستطيع من راحة لزوجها.

مكانها أن تجعل البيت جنة من جنات الفردوس في الدنيا. فيه راحة البدن، وسكون النفس، وطمأنينة القلب، ونعيم الحياة، يجيء الرجل من عمله متعبًا فيرتاح في بيته، منغصًا فيسعد بين أهله، فما للحال أصبحت غير الحال؟! لمن تكون الزينة؟

يفرض الإسلام أن تتزين المرأة في بيتها وأن تتجمل وتتعطر لزوجها، ولكن الآية قد انقلبت، تظل المرأة في البيت على أسوأ حال. تلبس الخلق البالي من الثياب، حتى إذا تهيأت للخروج إلى الشارع وقفت أمام المرأة ساعة، أو أكثر، تضع ألوان الأصباغ وفنون المساحيق.

نعم تطمئن على أناقة الملابس، وجمال الهنّام، وروعة المنظر، وتصنع النماذج والبروفات، للبسمات والضحكات، واللففات والإشارات.

أجل تقف المرأة ساعة أو ساعات، وتكسل أن تقف بين يدي الله دقائق معدودات، وتخرج المرأة بكل ما عندها من زينة، وبكامل ما عندها من

(103) متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (1744)، رواه البخاري في النكاح (5096)، ومسلم في الذكر والدعاء (2740) عن أسامة بن زيد.

صلى الله عليه وسلم : «كيف أنتم إذا طغى نساؤكم - أي خرجن على رجالهن وطبيعتهن - وفسق شبابكم، وتركتن جهادكم؟» فقال الصحابة: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم. والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون» قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: «كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر» قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم. والذي نفسي بيده، وأشد منه سيكون!» قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: «كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكراً، والمنكر معروفاً». قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم. والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون» قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: «كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟» قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم. والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون، قال الله تعالى: **بي حلفت لأتحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران**»⁽¹⁰⁵⁾ هكذا علمنا هذا الحديث الشريف، كيف يتوالد الفساد، ويتسلسل الانحراف.

كأن الفساد سلسلة متماسكة الحلقات، حلقة تتبعها حلقة.

تطغى النساء، يفسد الشباب، فتضعف الهمم، فيترك الجهاد، فيترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإذا فشا المنكر أنس الناس به، واطمأنوا له، صار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً.

(105) رواه أبو يعلى (304/11) عن أبي أمامة، وقال الحافظ العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف، دون قوله: «كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف»، ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة مقتصرًا على الأسئلة الثلاثة الأولى، وإسناده ضعيف (380/2)، وذكر الألباني المختصر في «السلسلة الضعيفة» (5204).

ثم تتدرج الحال من سيئ إلى أسوأ. فيأمر الناس بالمنكر وينهون عن المعروف، شأن مجتمع المنافقين الذي وصفهم الله بقوله: {الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ} [التوبة: 67] إنها فتنة يصير الحليم فيها حيران ... بدأها طغيان النساء وفساد الشباب.

إن القرآن الكريم يقول: {الرِّجَالُ قَوُّمُونَ عَلَى النِّسَاءِ} [النساء: 34]، ولكن العصر الحديث ومنطق الحضارة الأوروبية يقول: «النساء قوامات على الرجال».

المرأة أصبحت تتحكم في زوجها وتمسك بزمامه، وتبدد ثروته في أحداث الأزياء وأعلى الأصباغ ... فتعس عبد الزوجة. وفي الحديث: «إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاؤكم، وأموركم إلى نساءكم، فبطن الأرض خير من ظهرها»⁽¹⁰⁶⁾.

يا أيها الناس، يا أيها المسلمون: عودوا إلى الفطرة، عودوا إلى فصائل الإسلام ... ليعرف الرجل حقه، ولتعرف المرأة وظيفتها، وليعرف الشباب رسالته، وليطلب كل ما له، ويؤدي ما عليه والله معنا ولن يترنا أعمالنا.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: الديوث، والرجلة، ومدمن خمر» قالت الصحابة: أما مدمن الخمر فقد عرفناه يا رسول الله، فما الرجلة من النساء؟ فقال: «التي تشبهه

(106) رواه الترمذي في الفتن (2266)، وقال: حديث غريب، وذكره الألباني في «ضعيب الترغيب» (1557).

بالرجل» (107).

لا تسمعوا لهذه الشائعات:

كأنني أحس ببعض الجاهلين الذين ضلت عقولهم، أو المغرضين الذين مرضت قلوبهم، يشيعون عنا: أننا نريد أن نحجر على فم المرأة حتى لا تتكلم، وعلى صدرها حتى لا تتنفس، وعلى عقلها حتى لا تتعلم، وعلى قلبها حتى لا تحب ولا تكره، وعلى جسدها حتى لا تتزين. لا نعجب أن يشيعوا عنا مثل هذا، فالغرض مرض، والهوى إله معبود {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ...}.

نظرة الإسلام للمرأة (108):

ونسى هؤلاء أو تناسوا أن الإسلام أول رسالة كرّمت المرأة من هوان، وأعزتها من ذل، وعلمتها من جهل، وانتشلتها من هوة سحيقة، ونقلتها من متاع رخيص إلى إنسان عاقل، له حقوق وعليه واجبات!! إنسان ذي أهلية كاملة للتكليف، وله ذمة مالية كاملة، يملك ويتصرف، ويبيع ويشترى كما يشاء. وجعلت طلب العلم فريضة عليه، كما هو فريضة على الرجل.

وصنعت في مصنع البطولة نساء مسلمات بجانب الرجال المسلمين.

(107) رواه الطبراني عن عمار بن ياسر، وقال الهيثمي في «المجمع»: رواه الطبراني، وفيه مساتير وليس فيهم من قيل إنه ضعيف (327/4). قال القرظاوي في «المنتقى»: فالحديث ضعيف، ولكنه حسن بشواهد كما أشار المنذري (173/2)، وذكره الألباني في «صحيح الترغيب» (2367).

(108) للمزيد من تكريم المرأة راجع ما ذكره فضيلة الشيخ في كتابه: «ملاحم المجتمع المسلم الذي ننشده» (ص321) وما بعدها، وانظر كذلك: «مركز المرأة في الحياة الإسلامية» (ص9) وما بعدها.

لقد كرم الإسلام المرأة بنتاً لأب، وكرمها زوجها لرجل، وكرمها أمّاً لأولاد ...

نعم كرمها الدين بنتاً فأنقذها من الواد المقيت، وأنكر هذا الجرم الشنيع {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} [التكوير: 8، 9] وجعل ولادتها يُشْرَى، وتربيتها رحمة ومثوبة.

وكرمها زوجة فجعل لها مثل ما عليها، إلا درجة الإشراف والقوامة للرجل، وأمر بمعاشرتها بالمعروف ومعاملتها بالحسنى، وجعل الزواج بها من آيات الله البيّنات، ومن نعمه الباهرة «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة» (109).

وكرمها أمّاً، فجعل الجنة تحت أقدامها، وضاعف الوصية بها: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك» (110).

وكرمها مثل ذلك، عضواً في المجتمع المؤمن {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [التوبة: 71].

فهل بعد هذا التكريم من تكريم لو فقها؟ وهل بعد هذه العناية من عناية لو أنصفوا؟ ولكنهم لا يفقهون ولا ينصفون.

إنما تنفع المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الفؤاد

(109) رواه مسلم في الرضاع (1467) عن عبد الله بن عمرو.

(110) متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (1652)، رواه البخاري في الأدب (5971)، ومسلم في البر والصلة (2548) عن أبي هريرة.

من حقوق المرأة في الإسلام:

نحن نطالب بحق المرأة - بل واجبها - في أن تتعلم ما أمكنها من علوم الدين والدنيا. فالعلم ليس مقصوراً على الرجال، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

ونطالب بحق المرأة أن تعمل، وأن تهيأ لها سبل العمل الملائم لها، ما دامت ملتزمة بأدب المسلمة في اللباس والمشى والنظر والحركة واللقاء بالرجال.

ونطالب بحقها - بل واجبها - أن يكون لها نشاطها في خدمة المجتمع، وعمل الخير، والمشاركة في الدعوة إلى الله، وتعليم الناس الخير.

أما أن تتمرد المرأة على أنوثتها، وتتنكر لفطرتها ورسالتها، وتتحدى الأمومة الكامنة في حناياها، لتذرع الشوارع ذهاباً وإياباً، ولتكون نائبة من «النواب»، أو وزيرة من «أوزار» الدولة، أو سفيرة من «السفائر»، فتذهب إلى أمريكا، وتخلف زوجها في مصر ينعي الوحدة، ويشكو الوحشة، فليس هذا مما يشرف المرأة أو يسعدها، فليتها تعرف قدرها فتعود إلى عرينها، تربي فيه أشبال اليوم وأسود الغد⁽¹¹¹⁾.

(111) كانت هذه أفكار الشيخ في شبابه عن المرأة، وهي متفقة في عمومها مع آرائه اليوم، إلا في الحقوق السياسية للمرأة، وقد عرفت مرحلة الشباب بالحماسة والفتوة، ثم نضجت أفكار الشيخ، نضوجاً علمياً، تؤيده الحجج، وتؤصله الأدلة والبراهين، لهذا عدل الشيخ عن التشدد في هذا الأمر، وأفتى بمشروعية ترشيح المرأة للمجالس النيابية، وتوليها المناصب القضائية والسياسية، وقد استند الشيخ في هذا إلى أئمة أعلام، منهم: أبو حنيفة حيث أجاز للمرأة أن تتولى القضاء، فيما تجوز شهادتها فيه؛ أي في غير الأمور

لا. لا يا أخت فاطمة الزهراء، وعائشة أم المؤمنين، وأسماء ذات النطاقين، وسكينة بنت الحسين.

عودي إلى عشك الأمين، عودي إلى حضنك المكين، عودي إلى ميدانك الذي خصصت به دون الرجال، فرابطي فيه، وجاهدي هناك بسلاح القدوة الحسنة، والتربية الحية والخلق المتين.

عودي يا أختاه ولا تسمعي عواء ذئاب الطرقات، وحيل الصقور التي تريد إخراجك من عشك الوديع.

اسعى يا أختاه: أن تخرجي لنا عمرًا كعمر، وخالدًا كخالد، ومعاذًا كمعاذ. ربي الأجيال، واصنعي الأبطال، وقومي على تنشئة الرجال، ورحم الله شاعر النيل الذي قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق!
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «صنفان من أهل النار لم أرهما: رجال معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا

الجنائية، وزاد الطبري وابن حزم جواز توليتها القضاء في الجنائيات وغيرها، ومما يجدر التنبيه عليه: أن الشيخ لا يعد هذا واجبًا لازم الحدوث، ولكن ينظر إليه في ضوء مصلحة المرأة، ومصلحة الأسرة، ومصلحة المجتمع، ومصلحة الإسلام.
راجع «فتاوى معاصرة» (320/2) وما بعدها، وانظر: «مركز المرأة في الحياة الإسلامية» (ص 29) وما بعدها.

وكذا» (112).

والحديث كما نرى من أعلام النبوة، فهو تصوير دقيق من وراء الغيب
لنساء عصرنا، كما ربط بين الاستبداد السياسي والانحلال الأخلاقي، وهو
أمر واقع.

ادعو الله يستجب لكم ...

* * *

(112) رواه مسلم في اللباس والزينة (2128) عن أبي هريرة، ومميلات: يعلمن غيرهن
الميل، ومائلت: يمشن المشية المائلة.

(7)

هذا ماضيها فأين حاضرنا؟؟!! (113)

الحمد لله يعز من اعتز به، ويهدي من اعتصم بحبله، وينجي من التجأ إلى جنابه {ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: 103].

سبحانه لا إله إلا هو. أحمدوه وأتوب إليه، وأؤمن إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه. ورضي الله عن آله وأصحابه الذين كانوا يكثرون عند الفزع، ويقفون عند الطمع، وكانوا رهبان الليل وفرسان النهار، وكانوا قادة الدنيا وأئمة الدين، فرضي الله عنهم، وحشرنا في زميرهم. اللهم احشرنا في زميرهم يا رب العالمين؛ يوم يحشر المتقن إلى الرحمن وفداً، ويساق المجرمون إلى جهنم ورداً.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

بين الأمس واليوم:

ننظر إلى ماضيها ثم نقارن بينه وبين حاضرنا، فيرتد الطرف خاسئاً وهو حسير، باكياً والقلب حزين، نعود وتفيض العيون عبرات وعبرات، ويوقد في القلب حسرات وحسرات.

(113) ألقيت هذه الخطبة في 11 ربيع الثاني 1373هـ، الموافق 18 ديسمبر 1953م.

كنا أقوياء؛ فأصبحنا ضعفاء!!

كنا أعزة؛ فصرنا أذلاء!!

كنا أغنياء، فبتنا فقراء!!

كنا سادة؛ فأصبحنا عبيدًا!!

كنا نحكم الدنيا؛ فأصبحنا أذل المحكومين!!

كانت كلمتنا هي المسموعة، ورأينا هو السائد، وقولنا صدق، وحكمنا عدل، فأصبحنا لا يُسمع لنا رأي، ولا يُطاع لنا أمر، ولا يُحترم لنا قول، بل تعزز علينا الذليل، واستقوى علينا الضعيف، واستنسر بأرضنا البغاث. حتى الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة أصبحوا يذيقوننا كؤوس الأذى ومرير العذاب، ونحن مع هذا غافلون، وفي سكرتنا لاهون، وفي غمرتنا ساهون.

قوة يحسب لها ألف حساب:

لقد كنا أقوياء. وكانت الدنيا تحسب لنا ألف حساب وحساب. وكان الشرق والغرب يعرف لنا قدرنا وحققنا، ويدرك قوتنا وعزتنا. لقد صاحت امرأة في بلاد الروم للمعتصم العباسي فقالت - حينما أريد لها الذلة - : وامعتصماه ... وبلغ نداؤها الخليفة المعتصم، رغم الجبال والبحار، فلم يسد أذنا من طين، وأذنا من عجين، ولم يبعث باحتجاج تافه حقير، ولم يرسل خطابًا تهديديًا، ولكنه كان مجيبًا جوابًا واقعيًا. جوابه - احتجاجه - أن جيش الجيوش، وجند الجنود لتؤدب أعداء الله المستكبرين⁽¹¹⁴⁾.

(114) للمزيد راجع «فتح عمورية» تاريخ الطبري (233/5).

وفي عهد عمر بن عبد العزيز بلغه أن رجلاً أسيراً مسلماً في بلاد الروم أهانه أسروه واستنلوه، فأرسل «عمر» هذه الكلمات بمثابة إنذار وتهديد لملك الروم. قال: أما بعد ... فقد بلغني أنكم أردتم أن تستنلوا أسيراً مسلماً كتب الله له العزة، فإذا وصلك خطابي هذا فأطلق سراحه، وفك أسره، وإلا بعثت إليك بجنود أولها عندك وآخرها عندي! وما كان لهؤلاء الأعداء إلا أن أطلقوا سراحه، وخلّوا سبيله⁽¹¹⁵⁾.

وكان الخليفة العباسي الشهير هارون الرشيد يتحدى السحابة في السماء، ويقول لها بعد أن تحركت وبعدت عن بغداد. شرقي أيها السحابة أو غربي، وأمطري حيث شئت، فسيأتيني خراجك.

هكذا كنا أقوياء ... كانت جيوشنا تتطلق في أرض الله. القرآن في صدورهم، والسيوف في أيديهم، والإيمان في قلوبهم، لا دنيا يريدونها، ولا أموالاً يطلبونها، ولا سلطاناً يبتغونه، ولا جاهاً يتطلعون إليه. فهم يعلمون أن المال ظل زائل، وأن الجاه عرض حائل، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، «ولو كانت النيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء.»⁽¹¹⁶⁾ ولكنهم انطلقوا يدعون إلى الله، ويهدون البشرية للتي هي أقوم، ويخرجون الناس من الظلمات إلى النور وذهب بعضهم⁽¹¹⁷⁾ إلى

(115) راجع القصة في كتاب «عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم (ص143 - 144).

(116) رواه الترمذي في الزهد (2321)، وابن ماجه في الزهد (4110) عن سهل بن سعد، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (1889).

(117) هو ربعي بن عامر، والمعركة: القادسية، وقائدها: سعد بن أبي وقاص، وفيها دارت حوارات ومراسلات بين جند المسلمين وقادة الفرس. انظر: «تاريخ الطبراني» (401/2).

«رستم» قائد الفرس. فدخل هذا العربي المسلم المجاهد، على هذا القائد، وحوله الخدم والحشم، والحجاب والحرس، والعرش والتاج، والسندس والاستبرق، وظن هؤلاء أن المظاهر والزخارف والزينات ستأخذ بلباب هذا العربي المقبل من الصحراء القاحلة، والأرض المقفرة. ولكن الرجل المسلم - دخل على القائد الكبير - يدوس على الوسائد، لا يبالي أخرجها برمحه؟ لم تغره هذه البسط والتمارق، والزرابي، والمظاهر.

ثم دخل على القائد فجلس بجواره. فغضبوا وكلموه في ذلك فقال: كنت أحسب أنكم مثلنا، ما كنت أحسب أن بعضكم أرباب لبعض؟! نحن أخوة بعضنا لبعض. أميرنا كواحد منا، يجلس ونجلس معه، ويحدثنا ونحدثه، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، ثم قال له: من أنتم؟ فقال له: نحن قوم قد ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. فمن تبعنا إلى ذلك فله ما لنا وعليه ما علينا، ومن وقف في سبيلنا، وصدنا عن غرضنا، قاتلناه حتى نقضي إلى موعود ربنا ... قال: وما موعود ربكم؟ قال: الجنة لمن مات والفوز والنصر لمن بقي.

هكذا كانت قوتهم، وهكذا كان جهادهم وعزتهم.

كنا أغنى الأمم:

وكانوا أغنى الناس في الدنيا مع أنهم زهدوا في زخارفها، ووضعوها في أيديهم ولكنهم لم يسكنوها في قلوبهم، وتقبل إليهم بوجهها وهم عنها معرضون ... كانوا أغنى الناس ... بحثوا عن فقير مسلم في عهد عمر بن

عبد العزيز ليعطوه الزكاة فلم يجدوا. وقالوا: لقد عمّ عدل الإسلام الجميع، فقال عمر: اشتروا بها رقاباً فأعتقوها. أي بعد أن حرر الإسلام الناس من الفقر، شرع يحررهم من الرق (118).

وصدق الله العظيم: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف: 96].

كنا سعداء بإيماننا ورسالتنا:

وكانوا سعداء في دينهم ودنياهم بإيمانهم وأخلاقهم.

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد (119)

(118) هذه رائعة من روائع الإسلام وسماحته مع غير المسلمين الذين يعيشون في المجتمع الغربي، ولقد تحدث شيخنا الفاضل عن هذا في عدد من كتاباته، ولعل أوفاهما: «غير المسلمين في المجتمع المسلم» طبعة ونشر مكتبة وهبة.

(119) لشيخنا الفاضل في السعادة قصيدة شرقت وغربت، وتحدث فيها الركبان، واقتبس منها الشيوخ والشبان، وهي القصيدة التي جعلت الشيخين: البهي والغزالي، يختلفان على مستقبل القرضاوي، فرأى البهي فيه فقيهاً ناضجاً، ورأى الغزالي فيه شاعراً صاعداً، وأبى الله إلا أن تتزواج الرؤيتان لتنتجب لنا: أديب الفقهاء وفقية الأدباء. أطال الله لنا عمره، وبارك لنا في جهده.

ومما قال الشيخ في القصيدة:

أمل إليه هفت قلوب الناس في الزمن التليد
أمل له غور القديم كماله سحر الجديد
أمل إليه سعى الملوك كما إليه رنا العبيد
وتزاحموا كالهيم يد فعها الصدى عند الورود
وتسائلوا عنه ولكن من يجيب؟ ومن يفيد؟

ويجيب الشيخ السائلين والباحثين عن السعادة بقوله:

قل للذي يبغى السعادة هل علمت من السعيد؟

هي السعادة التي تتبع من القلب، وتطمئن بها النفس {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28] {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: 82] ... حدثوا أن عمر غاضب زوجته أم كلثوم بنت عليّ فقال لها متوعداً: لأشقيتك! فقالت: لا تستطيع أن تشقيني، لأنني لا أرى سعادتي في مال تستطيع أن تقطعه عني، ولكنني أرى سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير الله ربي (120).

كنا أساتذة الدنيا:

كنا أساتذة الدنيا، وقادة الحضارة، ومعلمي البشرية، نحو ثمانية قرون. اقتبست منا أوروبا المنهج العلمي والتجربة، وتعلمت منا في الحروب الصليبية، وفي الأندلس، وفي صقلية وغيرها. وكانت كتبنا العلمية مراجعهم الأولى، وعن طريق علمائنا وحدهم عرفوا فلسفة أرسطو، وعلوم أرسطو.

إن السعادة: أن تعيش لفكرة الحق التليد
لعقيدة كبرى تحل قضية الكون العتيد
وتجيب عما يسأل الحير ان في وعي رشيد
من أين جنت؟ وأين أذهب؟ لم خلقت؟ وهل أعود
هذه العقيدة للسعيد هي الأساس هي العمود
من عاش يحملها ويهتف باسمها فهو السعيد

انظر: «نفحات ولفحات» (ص 96) وما بعدها.

(120) لفضية الشيخ كلام رائع في كتابه: «الإيمان والحياة» تحت عنوان: «الإيمان والسعادة». (ص76) وما بعدها. ط. مكتبة وهبة.

كنا في رأس القافلة، وكنا نحن الآخذين بزمامها، وكنا نعلم الناس العلم والإيمان، فعلمهم أخلاق الدين وإبداع الدنيا.

كذلك كنا ... وهكذا أصبحنا!!

لقد أصبحنا في المؤخرة بعد أن كنا في الطليعة والمقدمة، وأصبحنا في الحضيض بعد أن كنا في الذروة، وأصبحنا تلاميذ بعد أن كنا أساتذة الدنيا وقادتها، وأصبحنا نتلقى العلم على يد غيرنا بعد أن كنا نلقنه لغيرنا. لقد أهدى هارون الرشيد ساعة دقاقة تدور بالماء إلى «شرلمان» إمبراطور الروم فارتعشت فرائصهم، وخافوا وقالوا: إن المسلمين يسخرون الجن والعمالقة. لقد كانت «قرطبة» عاصمة الأندلس منارة العلوم والمعارف، وظلّت نحو ثمانية قرون تنتشر العلم والنور.

«قرطبة» كانت تضاء بالمصابيح، بينما كانت أوروبا تغيب في ظلام الليل.

«قرطبة» كانت شوارعها مرصوفة بينما كانت أوروبا غارقة في الأوحال.

«قرطبة» كان فيها (600) حمام؛ بينما كان أهل أوروبا لا يهتمون بالنظافة، حتى القسيسون والرهبان يقولون: إن النظافة بُعد عن الله، ويقول أحدهم: رحم الله القديس فلانًا ... لقد عاش خمسين عامًا ولم يقترف إنه غسل الرجلين!!!

ويقولون: وا أسفاه!! لقد كان من قبلنا يعيش طول عمره، ولا يبيل أطرافه بالماء، ولكننا أصبحنا في زمن يدخل فيه الناس الحمام!! فانتهلت العدى

إليهم⁽¹²¹⁾. كان كثير من سراة أوروبا لا يعرفون توقيع أسمائهم بينما كانت قرطبة منارة العلم والعرفان.

ينظر الإنسان إلى هذا الماضي العزيز فيعود بأعين باكية، وقلوب حسرى، ويفكر في هذا الماضي، كنا أمراء وكنا أقوياء، وكنا أوصياء على هذه البشرية القاصرة فأصبحنا هكذا في مؤخرة القافلة!!

حاضر مؤسف:

يا معشر المسلمين: هذا هو ماضينا العظيم، أما حاضرنا فالحال كما ترون.

محنة فلسطين:

هذه مصر ومراكش وتونس والجزائر وفلسطين ... فلسطين الجريحة، فلسطين الذبيحة التي يلاقي أهلها الأمرين، ويذوقون الظلم، فلقد عاد العائدون من مؤتمر القدس ببعض الأنباء التي تثير الأعصاب، المسجد الأقصى، أولى القبلتين وثالث الحرمين⁽¹²²⁾ - الذي بارك الله حوله - ثالث مساجد الله التي لا تشد الرحال إلا إليها. هذا المسجد بيتت له المؤامرات اليهودية، ولا ندري ماذا سيكون إن لم يتيقظ المسلمون. وهيهات هيهات!!

هذه الحفنة أخذت فلسطين واغتصبتها أمام أعيننا، ونحن نسمع ونرى!!

(121) للمزيد من معرفة أوروبا في عصور الظلام انظر ما كتبه العلامة أبو الحسن الندوى في كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» (ص 158 - 160). نقلاً عن كتاب «تاريخ أوروبا» لمؤلفه مستر «ليكي».

(122) الأولى أن يقال: ثالث المسجدين المعظمين، إذ لا حرم ثالث بعد الحرم المكي والحرم المدني.

وكنا نقول: لا يمكن أن يأتي شذاذ الأفاق، وحجاج الشعوب ويقيموا لهم وطنًا في قلب ديارنا ونحن أحياء!! ولكنهم أقاموا الوطن، وأقاموا الدولة، وظللنا نقول: «إسرائيل المزعومة» حتى رأينا الخزي يملأ أفواهنا، فلم نعد نراها مزعومة. بل رأيناها حقيقة... بل أصبحت تتحدى الدول العربية والشعوب الإسلامية فتحتل فلسطين وتصفح هذه الجبهة، وتركل الأخرى.

كل هذا ولا نقدم شيئًا، إلا أن نرسل احتجاجات إلى هيئة الأمم، أو مجلس الأمن، أو مراقب الهدنة. يا للفجيعة ويا للعار، ويا للمصيبة ويا للشنار!!

يا قومنا: إن فلسطين هي الأنشودة الحزينة، نعرفها ونرددتها دائمًا. إنه لا ينبغي أن تشغلنا قضية مصر عن قضية فلسطين. فإن مصيرنا واحد. ولقد قال الزعيم المراكشي «علال الفاسي»: أنا لا أنسى أبدًا قضية فلسطين، وربما أنسى قضية مراكش!! لأن فلسطين ليست بلدًا عاديًا، بل حرماً مقدساً من حرمان المسلمين، على المسلمين جميعًا أن يدافعوا عنه.

يا قومنا: إن مليونًا من اليهود أو أقل يعملون هذا كله. أربعة عشر مليونًا متفرقين استطاعوا أن يقيموا دولة، على الرغم من وجود خمسمائة مليون مسلم وثمانين مليون عربي⁽¹²³⁾.

كارثة اللاجئين:

أليست هذه مصيبة؟ أليست هذه فضيحة الفضائح ومأساة المآسي؟! لقد رأيت اللاجئين بعيني حين زرتهم في مخيماتهم في صيف سنة 1952م، وإن قصة اللاجئين لها قصة الطير الذبيح، والأسير الجريح، واللحن الحزين،

(123) عدد المسلمين الآن زاد على المليار وثلاث مليارات.

والدمع الثخين، والألم الدفين ... فنحن هنا نلبس القطن والصوف، ونسكن البيوت والقصور، ومنتغى الثقيل، ومع هذا كله نشكو البرد، ونرتعد من البرد. فكيف هؤلاء الذين يعيشون في خيام ممزقة، إذا جرت الرياح الهوج، وعصفت العواصف، خلعت الخيام، فيجرون وراءها حتى يمسكوها!

إنهم لا يحصلون من مواد التموين إلا على بعض «الكيلوات» من الدقيق تنتهي في الخامس عشر من الشهر، إن مليوناً من اللاجئين سيكون ولكن لغير حبيب، ويشكون ولكن لغير طيبب، وينادون ولكن أين المجيب؟ فهل نجيب الدعاء، ونلبي النداء، وننصر إخواننا والله يقول: {وَأِنْ أَسْتَصْرَوْكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ ...} [الأنفال: 72]، {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: 10].

يا قومنا: إن إخواننا يذوقون المر، ويلاقون الأسي، ويقاسون العذاب. وهكذا أصبح حالنا. والله در الشاعر (124) إذ يقول:

إنى تذكرت والذكرى مؤرقة مجدا تليدا بأيدينا أضعناه
ويح العروبة كان الكون فأصبحت تتوارى في زواياه
كم صرفتنا يد كنا نصرها وبات يملكنا شعب ملكناه
أنى اتجهت إلى الإسلام في بلد تجده كالطير مقصوصاً

بين وعد بلفور ووعد الله تعالى:

يا قومنا: إن وعداً من الإنجليز حفز اليهود على أن يقيموا وطناً قومياً، من وزير خارجية بريطانيا «بلفور» في نوفمبر سنة (1917م) في الحرب

(124) الشاعر هو: محمود غنيم. وهذه الأبيات من قصيدته الرائعة «وقفة على ظل» وهي من روائع الشعر العربي في العصر الحديث.

العالمية الأولى. حفزهم هذا الوعد على العمل، وأشعل الحماسة في صدورهم، وأخذ «هرتزل» يجوب الآفاق، ويجمع الأموال، ويجمع الشباب والشابات، فهاجروا من كل مكان تاركين العزب والضياع، في سبيل أن يعيدوا مجدًا قديمًا تحطم، ودولة أفنى عليها الدهر، ملك سليمان كما يقولون

...

وفعلًا أقاموا هذه الدولة، وليست هي كل شيء عندهم؛ بل ما هي إلا لقمة بعدها لقيمات، ولطمة بعدها لطمات، فليس الأمر أمر قطعة أرض ملكوها يلتمسون المزيد، بل إنهم يتغنون بهذا النشيد: ملك إسرائيل من الفرت إلى النيل!! أي من العراق إلى مصر.

وعد الإنجليز لليهود وعدًا فعملوا وجاهدوا، ووعدنا الله وعدًا، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} [النور: 55].

وعدنا الله بهذا. فهل حفزنا وعد الله على العمل، هل أوقد شعلة الحماسة في الصدور؟ وهل جمع المتفرقين؟ وهل ألف بين المتخاصمين؟ وهل عملنا وجاهدنا؟! كلا كلا. لا زلنا في غفلة. لا زلنا في نوم عميق، لا زال يلعب بأعيننا النوم رغم أن الشمس ساطعة.

القدس قضية الأمة الأولى:

يا قومنا: هذا هو حاضرنا ... علينا أن ننظر إليه ونستعد للعمل والبذل، وإن قضية فلسطين يجب أن نذكرها دائمًا فهي قضيتنا الأولى، قضية الأمة

المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها. يجب أن نبذل لهم المال والطعام، والغطاء والثياب، ونحن وقتذاك نبذله للإسلام، نبذله لكرامة القرآن. نبذله لله رب العالمين، نبذله لأنفسنا {وَمَنْ جُهِدَ فَإِنَّمَا يَجُهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [العنكبوت: 6].

هؤلاء الخمسمائة مليون مسلم. ليت معنا بدلاً منهم خمسين ألفاً من الرجال الذين يكثرون عند الفزع ويقفون عند الطمع، لا تغريهم المنحة، ولا تفتنهم المحنة، ولا يغريهم وعد، ولا يثنيهم وعيد!!
ليت لنا اثنا عشر ألفاً يحملون اللواء، ويكونون من الصادقين.

يا معشر الناس: يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة - أو الأكلة - إلى قصعتها» ... قالوا: أو من قلة نحن يا رسول الله؟ قال: «لا أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولنزعن الله المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن»، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»⁽¹²⁵⁾.

وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان: «لن تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود فيختبئ اليهودي وراء الحجر. فيقول الحجر: يا عبد الله - وفي رواية يا مسلم - هذا يهودي ورائي فاقتله»⁽¹²⁶⁾.

وإننا لهذا اليوم لمنتظرون؟؟

(125) رواه أحمد (22397) عن ثوبان، وقال مخرجوه «السند»: إسناده حسن، ورواه أبو داود (4297)، والبيهقي في «الشعب» (10372)، وابن أبي شيبة (15/5).
(126) رواه البخاري في الجهاد والسير (2926)، ومسلم في الفتن (2922) عن أبي هريرة.

* * *

إن الله جلت قدرته قد اختصنا بكتاب كريم، وبدستور عظيم، ذلك هو القرآن الكريم. خير كتاب أنزله الله على خير نبي أرسله الله لخير أمة أخرجت للناس... وإنما حينما نسمع المتحدثين عن الدستور والتشريعات والقوانين يجب أن نتحدث عن القرآن الذي لم تضعه لجنة، ولم تؤلفه جماعة من الناس. وإنما أنزله الله رب العالمين {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ... } [الإسراء: 105].

القرآن الكريم منهاج للفرد (131):

منهاج للفرد: يضع له أسس حياته، وينير الطريق أمامه، ويأخذ بيده إلى الله رب العالمين {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا} [النساء: 174]، {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ} [المائدة: 16].

(131) لفضيحة الشيخ القرضاوي إسهامات متعددة في خدمة القرآن الكريم منها: ثقافة الداعية، تفسير سورة الرعد، المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة، وكذلك بعض الخطب، وقد جمع الأخ د. خالد السعد في الجزء الثاني من خطب الشيخ القرضاوي اثنتي عشرة خطبة تناول شيخنا فيها «صفات عباد الرحمن» كما جاءت في سورة الفرقان، ولعل أهم كتب الشيخ خدمة للقرآن هو: «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» وهو كتاب صاغه الشيخ بطريقة منهجية ليكون مرافقاً لتوأمه: «كيف نتعامل مع السنة؟» وقد قسم الشيخ كتابه «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» إلى أربعة أبواب رئيسية:

الباب الأول: خصائص القرآن ومقاصده.

الباب الثاني: التعامل مع القرآن حفظاً وتلاوة وسماعاً.

الباب الثالث: التعامل مع القرآن فهماً وتفسيراً. مع الكشف عن المزالق والمحاذير.

الباب الرابع: التعامل مع القرآن اتباعاً وعملاً ودعوة.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن أحد الباحثين اليمنيين قد حصل على رسالة الدكتوراة في «منهج يوسف القرضاوي في التفسير وعلوم القرآن» - «دراسة في النظرية والتطبيق». وكان هذا في عام (2004م) من كلية الآداب جامعة أسيوط بمصر.

النور المبين الذي يأخذ بيد المسلم إلى الجنة، ويهديه إلى الله إنما هو: القرآن الكريم. وصدق رسول الله إذ يقول: «القرآن شافع مشفع، وماحل (132) مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار» (133).

ذلك هو القرآن الكريم، في حفظه رحمة، وفي تلاوته نعمة، وفي اتباعه بركة، والتجمع عليه سكينة، وصدق رسول الله إذ يقول: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» (134).

القرآن يعلم الفرد المسلم عقيدته:

أول ما يُعنى القرآن: أن يعلم الفرد المسلم: عقيدته التي يدين بها، ويلقي الله عليها يعلمه الإيمان بوجود الله تعالى، وقيم البراهين على ذلك من فطرة الإنسان {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [الروم: 30].

ومن مظاهر الكون علويه وسفليه، جماداته ونباتاته، وحيوان وإنسان: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ 6 وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُوسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [ق: 6، 7]، {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ 20 وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: 20، 21].

(132) ماحل: أي ساع

(133) رواه الطبراني في «الكبير» (132/9)، وابن أبي شيبة (131/6) عن ابن مسعود، وذكره الألباني في «السلسلة الصحيحة» (2019).

(134) رواه مسلم في الذكر والدعاء (2699) عن أبي هريرة.

والإيمان بصفاته العلياء، وأسمائه الحسنى {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّهَرُ
وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ 3 هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ 4 لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ 5 يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ
وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الحديد: 3 - 6].

والتركيز على (135) توحيد الخالق، بل لا بد من إثبات توحيد الإلهية، فقد كانت مشركو العرب إذا سألتهم: من خلق السموات والأرض؟ يقولون: «خلقهن الله» ومع هذا كانوا يشركون بالله، ويعبدون الأصنام، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى! ومن هنا كان تركيز القرآن على الدعوة إلى عبادة الله وحده، فهي الغاية من خلق الإنسان {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56]، ولا غرو أن كثرت الآيات الأمرة بالصلاة والزكاة والصيام والحج، وغيرها من العبادات الظاهرة والباطنة.

ويعلم القرآن المسلم كذلك: أن وراء هذه الحياة الدنيا، حياة أخرى، توفى فيها كل نفس ما كسبت، وتخلد فيما عملت، {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ 7 وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: 7، 8].

وأن هذه الحياة القصيرة التي نعيشها إنما هي مزرعة للحياة الباقية الدائمة، فنحن نزرع هنا لنحصد هناك، يوم تنتشر الدواوين، وتتصب الموازين،

(135) توحيدة تعالى، فلا خالق غيره، ولا رب سواه، ولا معبود إلا هو، فلا يكفي إثبات.

ويبعث الناس ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

أقام القرآن الأدلة الناصعة على إمكان البعث الذي استعبده المشركون، وقالوا: {أَعْدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكُمْ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [ق: 3] وبين لهم أن الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم كما بدأهم، وهو أهون عليه.

وبين القرآن الكريم بوضوح: أن من العيب المنكر، والباطل المرفوض: أن ينتهي العالم وتنقض سوقه، ولا يُجزى المحسن بإحسانه، ولا المسيء بسئته، فأين عدل الله؟ وأين حكمة الله؟ يقول تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ 27 أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص: 27، 28].

ويقول سبحانه: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ 115 فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ} [المؤمنون: 115، 116].

ويعلم القرآن المسلم أيضاً عقيدة النبوة، وأن الله تعالى بحكمته ورحمته، لم ينزل الإنسان سدى، ولم يدع خلقه هملاً، بل بعث إليهم النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، كانت مهمة هؤلاء الرسل: أن يحرروا البشر من عبادة الطواغيت، وأن يبينوا لهم معالم الطريق إلى الله، ويعينوهم على تزكية أنفسهم، وكسب محبة ربهم، واتقاء عقوبته، وأن يعيشوا معهم متحابين متكافلين، ولا يظلم بعضهم بعضاً، مهتدين بشرع الله سبحانه.

هذا أول ما علمه القرآن للفرد المسلم، وهو أساس البقاء كله.

تَفْسَحُوا فِي الْمَجْلِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا} [المجادلة: 11].

القرآن يخاطب العقول والقلوب:

يعلمنا القرآن كثيراً من هذه الآداب العامة التي يتوصى الناس بها، ويعيش المجتمع على ضوئها. والقرآن هو المصباح المنير الذي ينيير الطريق إلى الله، والذي يعتمد في هذا كله على مخاطبة القلوب، وهز المشاعر، وأخذ الوجدانات إلى الله ...

يملاً بخشية الله، ويؤثر فيها، ويرغبها فيما عند الله، ويخوفها من عذاب الله، {اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: 23].

كتاب تقشعر له الأبدان، وتطمئن له القلوب، وتلين له الجلود، يؤثر في الأرواح، والقلوب والضمانر حتى في المشركين ... سمعه الوليد بن المغيرة فعاد مدهوشاً، وقال: والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ... وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلي عليه⁽¹³⁷⁾.

بهذا أدهش الكفار وقالوا: {سِحْرٌ مُّبِينٌ} [سبأ: 43، الأحقاف: 7]، {إِنَّ هَذَا إِلَّا

(137) ذكر القرطبي ذلك في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ...} [النحل: 90]، وقد أعجب الوليد بما سمع فقال قولته المشهورة. انظر: القرطبي (10/165)، وانظر «الاستيعاب» لابن عبد البر (1/433). وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء»: إسناده جيد.

سِحْرٌ يُؤَثِّرُ} [المدثر: 24]، لأنه سحر قلوبهم⁽¹³⁸⁾.

القرآن يزلزل قلوب المشركين:

هذا القرآن استطاع أن يؤثر في المشركين؛ حتى خاف زعماء الكفار على عامتهم أن يتأثروا به، فكانوا يشوشون على قراءته {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ} ⁽¹³⁹⁾ [فصلت: 26].

وإنما دخل الداخلون في الإسلام لا بقوة السيف، ولا بكنرة العدد، ولا برهبة الجيوش، فما كان عندهم في فجر الإسلام - في العهد المكي - سيوف ولا رماح ولكن كان السلاح الوحيد الذي يغزون به: كتاب الله ... لقد سمع القرآن عمر بن الخطاب فاستسلم له، وألقى السلاح من يده، وأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعلن إيمانه، ويشهر إسلامه، فقد هز القرآن فواده هذا عندما سمع {طه 1 مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى 2 إِلَّا تَذِكْرَةً لِمَنْ يَخْشَى 3 تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى 4 الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى 5 لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى 6 وَإِنْ تَجَهَّرَ بِأَقْوَلٍ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى 7 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} ⁽¹⁴⁰⁾ [طه: 1 - 8].

بهذه الآيات هز القرآن قلب عمر بن الخطاب فأعلن الإسلام بعد أن كان

(138) للأستاذ سيد قطب رحمه الله كلام رائع في كتابه: «التصوير الفني في القرآن» تحدث فيه عن القرآن وسحره لقلوب المشركين وشغف أفئدتهم به، وقد كتب الشيخ ذلك تحت عنوان: «سحر القرآن»، «ومنبع السحر في القرآن» فليراجع.
(139) ذكره القرطبي عن ابن عباس قال: قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول. القرطبي (366/15).
(140) لمعرفة المزيد عن إسلام عمر راجع «السيرة النبوية» لابن هشام (187/2).

ذاهباً ليقتل نبي الإسلام، وهكذا يفعل القرآن في نفوس المشركين قبل نفوس المؤمنين، أراد الله به أن يحيي القلوب الميتة، وينعش النفوس الخاملة، ويهز الأفتدة الجامدة، ويأخذ بيد هذه البشرية إلى نفحات الله، إلى رياض جنة الفردوس {أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام: 122].

كيف نقرأ القرآن:

لا يستوي هذا وذاك ... لهذا أمرنا الله تعالى أن نتدبر القرآن إذا قرأنا، ونتدبره إذا سمعنا، {كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: 29]، {أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: 24]، {أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: 82] ليسمع هذا القرآن الذين لا يعرفون القرآن إلا أحياناً وأناشيد، وليفهم هذا: «السمعية»، الذين لا يعرفونه إلا أصواتاً حلوة، ولا يفهمون من معانيها شيئاً (141).

علينا أن نتدبره إذا قرأنا، عملاً بوصية الله لنبيه {يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ 1 فَمِ الْيَلِّ إِلَّا قَلِيلًا 2 نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا 3 أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [المزمل: 1-4].

ترتيل القرآن والتخشع في تلاوته، والتبكي عند قراءته فقد قال صلى الله

(141) يحمل القرآن هنا على من يجعل القرآن أحياناً وطرباً، ولهذا عقد الشيخ فصلاً في كتابه: «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» أسماه: «تلاوة القرآن وسماعه»، وقد تحدث الشيخ فيه عن آداب الاستماع، وذكر من أهمها:

1 - الإنصات والإصغاء. 2 - التأدب والتأثر والتجاوب. (ص 187) وما بعدها.

عليه وسلم : «إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منا» (142).

وقد وصف الله المؤمنين فقال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال: 2]. {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا} [الأعراف: 204]، على القارئ أن يقرأ بتدبير، ويسمع بتأمل وتفهم، قال الدكتور إقبال «شاعر الإسلام» أوصاني أبي فقال: يا بني إذا قرأت القرآن فاقراه وكأنما عليك أنزل.
القرآن يجيب عن الأسئلة الخالدة (143):

هكذا يجب أن يقرأ القارئ، وهكذا يجب أن يسمع السامع، ولو أننا أعطينا القرآن حق القراءة، وحق الاستماع، لأثر في قلوبنا حق التأثير.
ستجد فيه جواباً عن كل سؤال يجول بنفسك، أو يسير على لسانك.

إذا سألت نفسك ماذا كان مبدئي، وماذا ستكون نهايتي وأخرتي؟ ستجد القرآن يحدثك عن مبدأ حياتك، وعن نهاية أمرك، وعن موقفك في آخرتك.
واسمع قول الله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَةٍ مِنْ طِينٍ 12 ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي

(142) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (1337) عن سعد بن أبي وقاص، وذكره الألباني في «ضعيف ابن ماجه» (281)، ولكن البكاء عند القراءة مشروع غير ممنوع ففي «الصحيحين» أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء وفيه: «فإذا عيناه تذرفان الدمع» متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (463)، رواه البخاري في فضائل القرآن (5050)، ومسلم في صلاة المسافرين (800).
(143) راجع ما كتبه الشيخ في كتابه: «العبادة في الإسلام» تحت عنوان: «الأسئلة الخالدة» (ص11) وما بعدها.

قَرَارٍ مَكِينٍ 13 ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: 12 - 14]، ذلك هو مبدأك.

أما منتهاك فاسمع قول الله {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ} [المؤمنون: 15].

ثم ماذا لك عند الله؟ اعرض نفسك على القرآن يجيبك {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ 13 وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [الانفطار: 13، 14]، {يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى 35 وَبُرِّرَّتِ الْأَجْجِيمُ لِمَنْ يَرَى 36 فَأَمَّا مَنْ طَغَى 37 وَعَاشَرَ الْחَيَوَةَ الدُّنْيَا 38 فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى 39 وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى 40 فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: 35 - 41].

القرآن يجيبك عن كل سؤال تسأل به نفسك ... إذا خلوت مع صاحبك وظننت أن الليل قد أرخى سدوله، وأن النجوم قد اختفت وراء السحاب، وأنت تستطيع أن ترتكب المحرمات، ولا عين تراك، ولا لسان يتحدث عنك. فارجع إلى القرآن واقرأ آياته {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ 16 إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ 17 مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 16 - 18]. وإذا ظننت أن الحياة كل شيء فاسمع قول الله: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ 19 وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ} [ق: 19، 20].

وإذا ظننت أن الآخرة سيطول أمدها، وهيهات أن تأتي، وقلت: إن المسافة طويلة، وأن الأمد بعيد فاقرأ قول الله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ 20 وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} [ق: 20، 21].

وإذا ظننت أن العمل الذي تعمله يذهب وينتهي والناس لا يعرفون، فاعلم أن الأعمى سيبصر يوم القيامة، وأن الغطاء سينكشف عن العيون، **{لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}** [ق: 22].

تجاوب السلف مع القرآن:

لنرجع إلى القرآن أيها الناس لنحيي به موات نفوسنا، ونتخذة دستور حياتنا، نتعلم بعلمه، ونقتبس من سناه، ونهتدي بهداه، ونتأدب بأدابه، ونسير وفق تعاليمه، ولن يكون ذلك إلا إذا قرأنا فأحسنا القراءة، وسمعنا فأحسنا السماع، لقد كان الرجل يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيسمع سورة [الزلزلة] **{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا 1 وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا 2 وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا 3 يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا 4 بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا 5 يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا يُرَوِّا أَعْمَلَهُمْ 6 فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ 7 وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}** فيقول حسبي يا رسول الله ... لا أبالي لا أسمع من القرآن غيرها ...

وفي رواية: أن رسول الله قال: **«دعه فقد فقهه»**. وفي رواية: أن رسول الله قرأها وعنده أعرابي، فقال الأعرابي: يا رسول الله أمثقال ذرة؟ قال: **«نعم»**، فقال الأعرابي: واسوأته، ثم قام وهو يقولها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان»**.

وفي رواية أخرى: فقام رجل يضع يده على رأسه، وهو يقول: واسوأته. فقال النبي: **«أما الرجل فقد آمن»**⁽¹⁴⁴⁾.

(144) ذكر السيوطي هذه الآثار في «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (380/6 - 382)، وانظر: «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» (ص 412) وما بعدها. وفيه ذكر شيخنا

هذه الآية وحدها لو عمل الناس بها، وساروا وراء هديها، لعاشوا أعزة كرماء، كان الرجل بعد هذا حينما يتصدق بالصدقة اليسيرة - بحبة العنب - يقول: يا عجا كم في هذه من ذرات؟! لا يحاسب نفسه بالقطار ولكن يحاسب نفسه بالذرة {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ 7 وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} حال المسلمين اليوم مع القرآن:

إننا لم نعد الآن نقرأ القرآن كما ينبغي ... إن القارئ يقرأ غالباً آيات الوعد، فإذا وصل إلى آيات الوعيد - التي تذكر الناس بالنار وبطش الله الجبار - فروا منها كأنما يريدون أن يعدلوا على الله، فإذا قرؤوها، قرؤوها بطريقة لا تشعر السامع أبداً أنهم يتلون آيات وعيدية مخيفة، كأنها زفير جهنم بين يديه. إنه يقرأ {إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ 43 طَعَامَ الْأَثِيمِ 44 كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ 45 كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ 46 خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ 47 ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ 48 ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}. فيقرؤها بطريقة تجعل السامعين يقولون: «أعد أعد» كأنهم لا يفهمون عن النار، وطعام الأثيم، وشجرة الزقوم شيئاً!

هكذا صارت قراءتنا ... ولو أننا قرأناه كما ينبغي لما كان أعداؤنا يذيعونه علينا ... إن إسرائيل تذيع القرآن علينا، إن لندن تذيعه علينا، إن محطة شرق الأدنى تذيعه علينا، لأنهم اطمأنوا إلى أن القرآن لا يحرك فينا ساكناً، ولا ينبه غافلاً. هذا وحده الذي حمل لندن أن تقرأ مثل: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ...} [البقرة: 190]، وتقرأ {أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة: 41]، لأنهم عرفوا أن المسلمين أصبحوا غير المسلمين.
خصائص القرآن (145):.

يا قومنا: علينا أن نعود إلى القرآن، نتدبره ونستمع إليه. فالقرآن كتاب سماوي ليس ككتب السماء. قد فضّله الله على كل كتاب أنزل. فضله على توراة موسى، وإنجيل عيسى، وصحف إبراهيم، لأنه امتاز بميزات منها:

1 - أنه كتاب معجز (146):.

جعل الله في آياته البيان والبلاغة، أعجز العرب وهم أصحاب الألسنة وأرباب الفصاحة أن يأتوا بأقصر سورة من مثله، وحقق عليهم الغلبة. وصدق الله العظيم {قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْأَجْنُ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: 88].

(145) تحدث فضيلة الشيخ هنا عن ثلاث خصائص فقط من خصائص القرآن؛ حيث إن المقام مقام إيجاز، ومع أنه أفراد في الخطبة التي تليها خصائص أخرى، إلا أنه ظظظ قد فصل في كتابه: «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» وعدد سبع خصائص، منها: هذه الثلاث، وزاد أربعاً هي:

1 - كتاب إلهي. 2 - كتاب الدين كله.

3 - كتاب الزمن كله. 4 - كتاب الإنسانية كلها. (ص 17 - 70).

(146) ذكر شيخنا ظظظ في كتابه: «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟»: أن الإيجاز لا يتم ولا يتحقق التسليم به إلا إذا توافرت له شروط ثلاثة:

1 - أن يوجد التحدي به، فهو الذي يدفع إلى المعارضة من الخصم.

2 - أن يوجد المقتضي للمعارضة من الخصوم، كالدفاع عن معتقداتهم.

3 - أن تنتقي الموانع من المعارضة.

وقد توافرت الشروط الثلاثة في إعجاز القرآن، وقرأ إن شئت قوله تعالى {أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَلَهُ قُلْ فَاتُوا بَعْثِرِ سُورٍ مِّثْلَهُ مَفْتَرِيَاتٍ} [هود: 13]، وقوله {أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَلَهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ}

[يونس: 38]. (ص 38، 39).

2 - وامتاز كذلك بالتيسير:

فالله قد يسره للذكر والحفظ. فلن تجد كتاباً سماوياً كالقرآن ينلى ويحفظ بسهولة، ويفهم منه العام والخاص، والفيلسوف والجاهل، والعالم والأمي {فَاتِمَا يَسْرَتُهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [الدخان: 58]، {وَلَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} [القمر: 17، 22، 32، 40]

{كُتِبَ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: 1]، {تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} [يوسف: 1، القصص: 2]، ميسر مبين واضح. ويحفظه من المسلمين عشرات الآلاف حتى من الصبيان. ولم تجد القسيسين ولا رجال الكهنوت أنفسهم يحفظون التوراة أو الإنجيل.

فالقرآن صاحب هذه الميزة الكبرى. يحفظه الحافظون، ويتعبد بتلاوته القارئون والسامعون، وبذلك يوصي رسول الله فيقول: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»⁽¹⁴⁷⁾ ويقول: «من قرأ القرآن وعمل به؛ ألبس والده يوم القيامة تاجاً من نور؛ ضوءه مثل ضوء الشمس، ويكسي والده حلتين لا يقوم لهما الدنيا، فيقولان: بما كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن»⁽¹⁴⁸⁾.

هذا في شأن الذي يقرأه؛ فما بالكم بالذي يعمل به؟ وهذا حث للناس على أن يحفظوا أبناءهم القرآن وإن كنا في زمن نخشى على مستقبل ضياع القرآن.

(147) رواه البخاري في فضائل القرآن (5027) عن عثمان.

(148) رواه الحاكم عن بريدة وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (568/1)، وذكره الألباني في «صحيح الترغيب» (1434).

3 - الميزة الثالثة: أنه محفوظ لا يعتريه تبديل ولا تغيير ولا نقص ولا زيادة:

لأن الذي تولى حراسته ليس بشراً من البشر؛ وإنما رب القوي والقدور. قال عز وجل {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9] لقد قرأ صبي قول الله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ} [آل عمران: 144] فقال: «وما محمد صلى الله عليه وسلم إلا رسول» فوكزه صبي بجانبه، وقال: من أين زدت على القرآن؟ فالصبي نفسه يشعر بأن القرآن الكريم لا ينتقص منه ولا يزداد عليه {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ 41 لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ تَنْزِيلًا مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 41، 42].

ليس في الدنيا كتاب سماوي لم يتغير، بل لعب رجال الدين بالكتب السماوية، وحرّفوا الكلم من بعد مواضعه، فإذا بالتوراة غير التوراة، والإنجيل عبارة عن أناجيل شتى، بلغت العشرات كإنجيل يوحنا وإنجيل مرقس، وإنجيل متى وإنجيل لوقا. أما القرآن الكريم فهو باق بعين الله محفوظاً ومحروساً، {وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة: 32].
ذلكم هو القرآن الكريم:

كمنهاج للفرد: يحيي قلبه، وينير عقله، ويشد عزمه، ويضع له الآداب، ويحل مشاكله، ويحيي نفسه بتقوى الله.
وكدستور للدولة ومنهاج للمجتمع، وقانون للحكومة، فسنحدث عنه في الأسبوع القادم إن شاء الله.

الحض على قراءة القرآن:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : «اقرأوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»⁽¹⁴⁹⁾، وقال صلى الله عليه وسلم : «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول آلم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»⁽¹⁵⁰⁾.

وقال صلى الله عليه وسلم : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»⁽¹⁵¹⁾.

وقال صلى الله عليه وسلم : «إن لله أهلين من الناس». قالوا: من هم يا رسول الله؟ فقال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»⁽¹⁵²⁾.

* * *

(149) رواه مسلم في صلاة المسافرين (804) عن أبي أمامة الباهلي.

(150) رواه الترمذي في فضائل القرآن (2912) عن ابن مسعود، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وذكره الألباني في «الصحيحة» (3327).

(151) رواه البخاري في فضائل القرآن (5027) عن عثمان بن عفان.

(152) رواه ابن ماجه (215)، والنسائي في «الكبرى» (8031)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (178).

(9)

القرآن الكريم دستور للدولة (153)

الحمد لله. أنعم علينا بخير كتاب أنزل، وأختصنا بأفضل نبي أرسل. محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم... نعمتان من نعم الله علينا؛ إذا قمنا بشكرهما، وأدينا حقهما فقد ضمنا سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، وإذا أعرضنا عنهما، وغفلنا عن حقهما فقد خسرنا خسراً مبيئاً.

نحمده تعالى ونتوب إليه ونؤمن به ونتوكل عليه، ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله على آله وصحبه، {فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ} [الأعراف: 157]، ورضوان الله عن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وسلك سبيله، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

تحدثنا في الأسبوع الماضي: عن القرآن ككتاب سماوي، وأن الله تعالى اختصه دون الكتب السماوية - دون التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم - بخصائص لا توجد في غيره.

اختصه بأنه كتاب ميسر {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} [القمر:

[17، 22، 32، 40]

(153) ألقى هذه الخطبة في يوم الجمعة: 26 ربيع آخر 1373 هـ الموافق أول يناير 1954م.

واختصه بأنه كتاب معجز {قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: 88].

واختصه بأنه كتاب محفوظ من التغيير والتبديل {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ 41 لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ تَنْزِيلًا مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 41، 42]، واختصه بأنه كتاب مهيمن على هذه الكتب كلها، يجمع كل ما فيها: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة: 48]، ويزيد عليها ما تحتاجه الإنسانية في كل عصر وفي كل مصر، وفي كل زمان ومكان. فهي النجوم الساطعة، والمصابيح الهادية والقرآن هو الشمس المشرقة، والمصباح الساطع المنير.

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قليلا

لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئ القنديلا

تحدثنا عن القرآن ككتاب سماوي كمنهاج للفرد: يحيي قلبه، ويضع له الآداب، ويحل مشاكله، ويحيي قلبه بتقوى الله. ونريد أن نتحدث اليوم عن القرآن كدستور يجب أن تحكم به الدولة، وأن تسير على منهاجه كل حكومة، وأن تتبع هديه كل أمة.

القرآن كتاب إلهي: (154)

هذا القرآن دستور لم تصنعه لجنة من الناس، ولم يؤلفه جماعة من البشر، فإن أي جماعة من البشر يصدرون قانونًا، ويؤلفون دستورًا، لا يخلو قانونهم، ولا يخلو دستورهم، مما فيهم من عيب ونقص {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: 28].

الإنسان عاجز، قليل الذهن، قليل العلم، فلا بد أن يكون الدستور فيه من ضعف الإنسان ما فيه. ثم لكل جماعة هوى؛ فلن يخلو الدستور من هوى لو وضعه، ينفذون إليه وإن يشعروا، أما القرآن فهو دستور الله، شرع الله العزيز الحكيم، كلام الله الذي أتقن كل شيء، شريعة الذي أحسن كل شيء خلقه وكل شيء شرعه.

إن أفضل ما وصلت إليه الإنسانية هو المصباح الكهربائي، فأين هذا من نور الشمس الإلهي؟ أين نور الصناعة من نور الطباخة؟ إن الإنسان يصور تمثالاً من حجر أو حيوان، وهل يستطيع أن يجعل فيها حياة، ويجعله يسعى ويتحرك على قدميه، ويحس بشعور، وينطق بلسان؟ لا يستطيع أن يفعل هذا. لأنه فرق بين قدرة الإنسان وقدرة الرحمن.

وهل يستوي وحي من الله وقافية في العالمين شرود؟

(154) هذه إحدى خصائص القرآن الكريم؛ والتي تحدث عنها فضيلة الشيخ بالتفصيل في كتابه: «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟». ومما قاله فضيلة الشيخ هناك: فهو إلهي المصدر: مائة في المائة (100%) لفظاً ومعنى، أوحاه الله إلى رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق «الوحي الجلي» وهو نزول «الرسول الملكي» جبريل على «الرسول البشري» محمد، وليس عن طرق الوحي الأخرى. (ص 19)، وما بعدها.

مميزات القرآن:

القرآن الكريم يمتاز عن الدساتير كلها بمميزات:

الميزة الأولى: بأنه دستور كامل:

وكماله من كمال منزله وشارعه. الكمال الذي لا يدركه عيب ولا تشوبه شائبة من الجهل والهوى. ولو شئنا أن نقارن بين أي قانون من قوانين القرآن، والقانون الذي وضعه الواضعون، وشرعه الشارعون، ووضعوه بأدمغتهم، فهيهات هيهات فأين الثريا من الثري؟

الميزة الثانية: أنه دستور شامل: (155)

لقد جعل لكل مشكلة خلأ، ولكل معضلة علاجاً، ووصف لكل داء دواء، ولكل جرح «مرهماً»، ولكل مرض علاجاً، هو صيدلية كبرى. الله مركب أدويتها، والمسيطر عليها، وصدق الله العظيم: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [الإسراء: 82]، شفاء للفرد، شفاء للأسرة، شفاء للمجتمع، شفاء للعالم كله {يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: 57] {قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً} [فصلت: 44].

القرآن الكريم كتاب شامل ودستور عام، عالج كل مشاكل الإنسان: الإنسان مادة، والإنسان روحاً، والإنسان عقلاً، والإنسان عاطفة، والإنسان

(155) ذكر فضيلة الشيخ في كتابه: «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» أن من خصائص القرآن: أنه كتاب الدين كله، ومما قاله الشيخ: والقرآن كذلك كتاب «الدين كله»، فهو عمدة الملة، وروح الوجود الإسلامي. منه تستمد العقيدة، وتؤخذ العبادة، وتلتبس الأخلاق، وتتوفر أصول التشريع والأحكام. (ص 49)، وما بعدها.

فردًا والإنسان مجتمعًا. فلا غرو أن يكون فيه: سياسة، واقتصاد، واجتماع، وثقافة وفكر وسلم وحرب، وروحانية، وعمل، وصلاة وجهاد، جمع فأوعى، وصدق الله العظيم: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: 89].

كان سيدنا أبو بكر يقول: «والله لو ضاع مني عقل بعير لوجدته في كتاب الله».

وقف عبد الله بن عباس ترجمان القرآن يومًا أمام المرأة يصلح من هندامه، ويصف من شعره، ويجمل من نفسه، فقال له نافع مولى عبد الله بن عمر: أتجمل نفسك؛ والناس يرحلون إليك من أطراف البلدان ليتعلموا منك. فقال: وماذا في هذا؟ أتزين لامرأتي كما تتزين لي امرأتي، وهذا في كتاب الله! قال وأين نجد هذا في كتاب الله، قال: في قوله تعالى: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} (156) [البقرة: 228]. هكذا كانوا يفهمون روح القرآن، ويأخذون منه كل شيء.

القرآن هو دستور شامل ... يقول بعض الناس ما للقرآن والسياسة؟ وما له وللاقتصاد؟ وما له وللمجتمع؟! ونقول لهم: إن لم تؤمنوا بهذا فاشطبوا من القرآن آيات شتى. تتعلق بالسياسة الخارجية والداخلية، فيه هداية الفرد وفيه نظام الأسرة، وفيه إرشاد المجتمع، وفيه توجيه الحكومة، لقد وضع الخطوط الرئيسية، ورسم الأهداف العامة لحياة الفرد وحياة الأمة كيف نترك

(156) رواه البيهقي في «الكبرى» (295/7)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» بلفظ: إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة لأن الله يقول: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} وما أحب أن أستنظف جميع حقي عليها لأن الله يقول: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ}.

هذا؟ (157).

هذا الكتاب وإن فيه سياسة أتراه أمرًا في الكتاب غريبًا
 إن كانت تؤذيكم سياسته دعوه ونقبوا عن غيره تنقيبًا
 أو اعرضوه على الرقيب أفتى فغادر نصفه مشطوبًا
 يا قوم سحقا للرقيب وأمره فكفى برب العالمين رقيبًا (158)
 لو اتبعناه لكنا في طليعة الأمم، ومقدمة الصفوف، إن الإنسانية لن تسعد

(157) تحدث فضيلة الشيخ عن خصيصة الشمول في كثير من كتبه ومحاضراته، وخطبه
 وندواته، وللمزيد من هذا راجع على سبيل المثال ما كتبه في:
 1 - شمول الإسلام. 2 - الخصائص العامة للإسلام.
 3 - السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها.
 4 - من فقه الدولة في الإسلام. 5 - فنارى معاصرة.
 وغيرها من كتب الشيخ كثير.

(158) هذه الأبيات للأديب الشاعر الدكتور: حسان تحنوت، ولفضيلة الشيخ أبيات رائعة
 يتحكم فيها على القائلين بفصل الدين عن السياسة، أو الدين عن الدنيا، ذكرها في قصيدة
 «في ذكرى المولد النبوي» وفيها يقول:

يا خير من ربت الأبطال بعثته	ومن بنى بهمو للحق أركاناً
خلفت جيلاً من الأصحاب سيرتهم	تضوع بين الورى روحاً وريحاناً
كانت فتوحهم برّاً ومرحمة	كانت سياستهم عدلاً وإحساناً
لم يعرفوا الدين أورادا ومسبحة	بل اشربوا الدين محراباً وميداناً
فقل لمن ظن أن الدين منفصل	عن السياسة: خذ يا غر برهاناً
هل كان أحمد يوماً حلس صومعة	أو كان أصحابه في الدير
هل كان غير كتاب الله مرجعهم	أو كان غير رسول الله سلطاناً؟!*
لا، بل مضى الدين دستوراً	وأصبح الدين للأشخاص ميزاناً
يرضى النبي أبا بكر لدينهمو	فيعلن الجمع: نرضاه لدنيانا

انظر: «نفحات ولفحات» (ص 49، 50).

ولن تهتدي إلا إذا اتبعت منهج الله وهداه وإذا اعرضت عنه كان مصيرها
ضنك المعيشة في الدنيا، وعذاب الله في الآخرة.

وهذا، ما قاله الله لأدم وزوجه حين خرجا من الجنة: {قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا
جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا
يَشْقَى 123 وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
أَعْمَى}.

سئل أحد العلماء: إنك تقول: إنك رأيت في القرآن أمثال العرب والعجم
كلها، فهل تجد في القرآن⁽¹⁵⁹⁾ «دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام
الساعة»؟ فقال: نعم في قول الله {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ
زَهُوقًا} [الإسراء: 81]، وقوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ
زَاهِقٌ} [الأنبياء: 18].

فقيل له: «الحجر المغصوب في الدار رهن بخرابها» فقال: نعم، في قوله
تعالى {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا} [النمل: 52].

(159) للإمام السيوطي رحمه الله كتاب اسمه: «التحبير في علم التفسير» وقد ذكر رحمه
الله في هذا الكتاب العلوم التي تتعلق بالقرآن الكريم وعد منها اثنتين بعد المائة، جمع
فيها ما سبق إليه في هذا الفن، وجاء بجديد لم يسبق إليه، وكان هذا همه في تأليف هذا
الكتاب، قال رحمه الله: «فظهر لي استخراج أنواع لم أسبق إليها، وزيادات مهمات لم
يستوف الكلام عليها، فجردت الهمة إلى وضع كتاب في هذا العلم أجمع فيه - إن شاء الله
تعالى - شوارده، وأضم إليه فوائده، وانظم في سلكه فرائده، لأكون في إيجاد هذا العلم
ثاني اثنين، وواحد في جمع الشيين» وبعد أن ذكر هذه الأنواع قال: «فهذه مائة نوع
ونوعان، زوائد فيها خمسون نوعاً، وها أنا أشرع في بيانها مستعيناً بالله، ومتوكلاً
عليه، وحبذا ذلك اتكالاً». انظر: «التحبير في علم التفسير» (81، وما بعدها) ط. وزارة
الأوقاف بدولة قطر، ط. الأولى 1995.

فقيل له: هل تجد معنى المثل القائل: «أعطه ثمرة فإن أبي فأعطه جمرة»؟ فقال في قوله تعالى: {وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف: 36].

فقيل: هل تجد المثل القائل: «خير الأمور الوسط»؟ قال: نعم في أربعة مواضع في البقرة: {بِقَرَّةٍ لَا فَارِضَ وَلَا بَكْرٍ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ} [البقرة: 68]، وفي الإنفاق: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} [الإسراء: 29]، وفي وصف الله لعباده المؤمنين {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: 67]، وفي أمر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بالصلاة {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} [الإسراء: 110]⁽¹⁶⁰⁾.

وهكذا كان القرآن لسلفنا الصالح مرجعهم في كل أمر، وبغيتهم في كل حكم، فاتخذوه هادياً، وساروا وراءه، فأفلحوا به {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: 157].

وهذه هي الميزة الثانية مكن ميزات القرآن: أنه شامل. شمل كل ما يفتقر إليه الإنسان هداية.

إن أي دستور ينظم ناحية ويترك أخرى. ينظم علاقة الفرد بالحاكم. أما علاقة الأفراد بعضهم ببعض، أو علاقة الفرد بنفسه فلا شأن له بهذا. ينظم العقوبات للمسيء، أما كيف ينظم المكافآت للمحسن؟ فلا شأن له بهذا. أما القرآن فيشمل كل هذه النواحي؛ لأنه كتاب الله الكريم {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْعَقَابَةُ ثُمَّ

(160) انظر «التحبير في علم التفسير» (519 - 522).

فَصَلَّتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ {هود: 1}، {لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ^ط
تَنْزِيلٍ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ {فصلت: 42}.

الميزة الثالثة: أنه كتاب مقدس:

له في كل نفس قدسية، وفي كل قلب تأثير، إن أي دستور وضعي لا يمكن أن يؤثر في القلوب، أو يهز الأعصاب، ويبكي العيون، إلا القرآن الذي يتأثر به {الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2]، {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: 23].

أي دستور يؤثر في النفس هذا التأثير؟! إلا دستور سماوي تقدسه النفوس، وتعظمه القلوب، لأنه نازل من عند ربهم. إن أي إنسان يستطيع أن يدخل بالذساتير الأخرى المراهيض، وقد يضعه تحت رجليه، أما القرآن فلا يمسه إلا متوضئاً مغتسلاً متطهراً، ولا يدخل به المراهيض، ولا يلمس ورقه وهو جنب، ولا يقرأه جنباً، بل يحترمه ويقده، وهذا مما يدفع الناس إلى العمل به {فَلَا أُفْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ 75 وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ 76 إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ 77 فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ 78 لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ 79 تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الواقعة:

الميزة الرابعة: في هذا الدستور أنه كتاب خالد: (161)

إن أناسًا كثيرين منا عاشوا عمرًا طويلًا، ورأوا دستورًا يوضع وآخر يلغي ... وضع دستور في سنة 1923م، وألغاه صدقي في سنة 1930م، ثم أعيد مرة أخرى. وهذا قد أُلغى في عهد الثورة، وهناك لجنة تضع دستورًا آخر. أما القرآن فلا يمكن أن يتغير فيه سطر بل كلمة، بل حرف، لأن حارسه وراعيه والمتكفل بحفظه ليس إنسانًا من البشر، وإنما خالق الخلق ومالك الملك، ورب الأرض والسماء {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9].

أي دستور في الدنيا يمكن أن تجتمع فيه هذه الميزات؟!!

الكمال: الذي لا يلحقه نقص.

والشمول: الذي لا يترك ناحية إلا عالجها.

والقدسية: التي تلج كل نفس إنسان فتعظمه وتحترمه.

والخلود: الذي يبقيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. {لَا يَأْتِيهِ أَبْطُلٌ

مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42].

(161) عبر فضيلة الشيخ عن هذه الميزة في كتابه: «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» بأنه

كتاب للزمان كله، ومما قاله فضيلة الشيخ: «ومن خصائص القرآن، أنه كتاب الزمن كله

وكتاب الإنسانية كلها، وكتاب الدين كله، وكتاب الحقيقة كلها».

ومعنى أن القرآن كتاب الزمن كله: أنه كتاب الخلود، ليس كتاب عصر معين، أو كتاب جيل

أو أجيال، ثم ينتهي أمده، أعني أن أحكام القرآن وأوامره ونواهيها ليست موقوتة بوقت

ما، ثم يتوقف العمل بها (ص 63).

موقفنا من القرآن:

هذا هو القرآن. فماذا كان موقفنا منه. لقد فرطنا فيه أفراداً، وفرطنا فيه أُسرًا، وفرطنا فيه جماعات. أين هو منا؟ أين هو من حياتنا؟

القرآن كتاب كنا نحفظه فهو الآن مهدد بخطر!! لقد كانت مصر مشهورة بتحفيظ القرآن. إن الكتاتيب قد بادت، وإن المدارس التي أنشأها «دانلوب» المستشار الإنجليزي الذي وضع مناهج وزارة المعارف هي خطة للقضاء على القرآن. فليس في المدارس لحفظ القرآن نصيب يذكر، وهذه مشكلة خطيرة، فبعد سنوات قليلة لن نجد من يحفظ القرآن.

لا بد من وجود أناس يدرسون الإسلام⁽¹⁶²⁾، ويحفظون القرآن، وينطلقون يعلمون الناس الاستنجاء والصلاة وأحكام المعاملات.

إنه بعد سنوات قليلة لن تجد الأزهر. وإن مستقبل الثقافة الإسلامية مهدد بخطر عظيم... من ذا الذي يترك ابنه حتى يحفظ القرآن، ثم يلتحق بمعهد في المنصورة أو في طنطا والمدارس كثيرة بجواره؟! وقبل أن يدخل الطالب الأزهر يكون التلميذ في السنة الثانية الإعدادية. ويتوظف قبله، ويأخذ مرتبًا أحسن منه. وها نحن الآن نطلب المساواة بمن هم أقل منا⁽¹⁶³⁾.

(162) لاحظ الشيخ في الأونة الأخيرة اهتمام كثير من الوزارات والهيئات والمؤسسات بحفظ القرآن الكريم، وإقامة المسابقات العالمية، وقد لفت الشيخ أنظار العديد من المسؤولين عن هذه المسابقات إلى ضرورة الاهتمام أيضًا بالدراسات القرآنية التي تخدم القرآن وواقع الناس.

(163) هذه المطالب وغيرها نادى بها فضيلة الشيخ من عشرات السنين منذ أكثر من نصف قرن، وكانت البداية حين كون الشيخ هو ومجموعة من زملائه لجنة أطلقوا عليها:

إنه أمر مدبر على حفظ القرآن وعلى دراسة الإسلام، وعلى الطائفة التي قال الله فيها: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: 122].

وإننا نتمنى والله لو عاد الزمان القديم الذي كان علماء الإسلام منصورين على الحكام، الزمان الذي كان يوقف فيه عشرات الألوف «من الأموال» على العلماء، على الأزهر، ليضمنوا لأبناء الدين مستقبلاً كريماً حتى لا تمد أيديهم إلى الحكام.

هجران تلاوة القرآن قراءة:

أين قراءة القرآن؟ لقد فقدنا حتى قراءة القرآن. ولم يعد يقرأ بالروح التي يجب أن يتلى أفضل كتاب بها. إننا نقرأه الآن على أنه ألحان ومغاني، لا على أنه أسرار ومعاني، نسمعه على أنه صوت فلان الجميل وألحان المقرئ الشهير. وإننا في ماتم من الماتم، نذهب لنستمع فلاناً فإذا كان غيره أعرضنا عنه، لأنه لا تعجبنا ألحانه ومغانيه، مع أن الله وصف سامع القرآن بقوله: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ} [المائدة: 83].

هجران العمل بالقرآن:

أين العمل بالقرآن؟ أين كتاب الله في حياتنا. إنك تمشي في الشارع فتري

«لجنة البعث الأزهرية» وهذه المجموعة آلت على نفسها أن ترفع صرح الأزهر عاليًا، أو تموت تحت أنقاضه، وقد سجل الشيخ أهداف هذه اللجنة في كتابه: «رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد» كما أشار إليها في مذكراته، وزاد عليها وفصل فيها، ووقف وقفة متأنية مع المناهج الدراسية. انظر: «ابن القرية والكتاب» (ج1/220 - 239).

مظاهر لا تتمشى مع الإسلام، سر في طنطا، سر في القاهرة، سر في الإسكندرية، لا تجد فرقاً بينها وبين بلاد أوروبا. الخمرات هي الخمرات، والقمار هو القمار، والمقاهي هي المقاهي، والنساء المتبرجات المتهتكات هن النساء المتبرجات المتهتكات، والناس هم الناس، فأين القرآن فينا؟ أتظنون أنه يكفي أن لنا اتحاداً للمقرئين ورابطة للقراء. وأن في مصر عدداً من الأصوات الجميلة تشنف أسماعنا. لا. لا. إننا نخشى أن يحادنا رسول الله، ويخاطبنا القرآن يوم القيامة، فماذا نقول حينما يقول رسول الله: **يُرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** {الفرقان: 30}. ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي: إنك قد أنزلتني لأفضي في المحاكم فإذا بهم يجعلوني تلاوة في المآتم؟

ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي إنك قد أنزلتني لهداية الأحياء فجعلوني للقراءة على الأموات؟

ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي إنك قد أنزلتني للتشريع والتوجيه فجعلوني في التسلية والترفيه؟

ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي إنك قد أنزلتني لأكون حرراً للإنسانية كلها من الضلال فجعلوني حرراً يعلق في صدور النساء والأطفال؟

ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي إنك نزلتني لأكون سنة للراقي فجعلوني تعاويذ للراقي؟ (164).

(164) لفضيلة الشيخ أبيات رائعة تتضمن هذا المعنى ذكرها في ديوانه الأول في قصيدة

بعنوان: «مناجاة في ليلة القدر» ومما قال هناك:

هذا الكتاب غدا في الشرق وأسفاه شمساً تضيء ولكن بين

من جهالة {كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} {إبراهيم: 1} {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} 15 يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ {المائدة: 15، 16}.

روى الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ستكون بعدي فتن كقطع الليل المظلم». قلت - أي علي - : وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله. فيه نبأ من قبلكم. وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل ... من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، الذي لا يزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولم تنته الجن حين سمعته حين قالوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا} 1 يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَأَمَّا بِهِ {الجن: 1، 2}. هو حبل الله المتين، والنور المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، ومن قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»⁽¹⁶⁵⁾.

وقال صلى الله عليه وسلم : «القرآن شافع مشفع، من جعله أمامه قاده إلى روضة من رياض الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار»⁽¹⁶⁶⁾.

* * *

(165) رواه الترمذي في «فضائل القرآن» (2906)، وذكره الألباني في «ضعيف الترمذي» (554).
(166) سبق تخريجه.

(10)

«المحنة» سنة الله في أصحاب الدعوات (167)

الحمد لله يجزي الصادقين بصدقهم، ويعاقب المجرمين على افترائهم.

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت، والمجازي لها بما عملت، والعالم بطوايا الصدور وإن خفيت {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ 13 أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: 13، 14]. لا تخفي عليه خافية، ولا يغيب عنه سر ولا علانية. يؤدب من طغى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى {فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء: 173].

أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة من يعترف بالعبودية له، والإذعان لأمره ونهيه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ابتلى فصير، وانتصر فشكر، فكان خير الصابرين، وأفضل الشاكرين.

ورضوان الله على آله وأصحابه {فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ} [الأعراف: 157]، ورضي الله عن دعا بدعوته،

(167) ألقيت هذه الخطبة في 28 رجب 1373 هـ الموافق 2 إبريل 1954م، وهي أول خطبة لفضيلة الشيخ بعد أن قضى مع الإخوان في المعتقل مدة تقرب من السبعين يوماً. «الاعتقال الأول في عهد الثورة».

وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

رسالة إلى المرجفين:

لقد عدنا إليكم، وقد ظن كثير من الغافلين ألا نعود ... وحق لنا أن نخاطب هؤلاء بقول الله للمنافقين: {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا 12 وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا} [الفتح: 12، 13].

ظن هؤلاء أن الرسول الذي خرج للغزو لن يعود هو وأصحابه سالمين، ولكن الله كذبهم، وعادوا سالمين غانمين منصورين.

الابتلاءات سنة:

ظن آخرون أن لن يعود رسول الله بعد أن أخرج من مكة مطرودًا مشردًا ... خرج منها خفية من قومه ... خرج منها في حلك الظلام خائفًا يترقب. ولكن الله خيب ظنون المنافقين، وحطم أحلام الكافرين، وعاد رسول الله إلى مكة فاتحًا بعد أن خرج منها طريدًا.

عاد إليها جهازًا، وقد خرج منها خفية.

عاد إليها نهارًا، وقد خرج منها ليلاً.

عاد يحطم الأصنام التي كانت حول الكعبة وهو يقول: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: 81].

أيها الناس: إن دولة الباطل ساعة، وإن دولة الحق إلى قيام الساعة.

إن الحق لا بد أن ينتصر مهما طال به المدى، ومهما امتدت الأيام.

إن عين الله لا تنام. وإن رقابة الله لا تغفل.

أفكار مغلوطة وأفهام خاطئة:

أيها الناس: إننا نريد أن نصح أفكار الناس. فإن كثيرين يظنون أن الذي ابتلي وعذب فذلك دليل على ضعف إيمانه، وانحرافه عن الحق. وكذبوا والله، فإننا لو مشينا على هذا الفكر الضال؛ لكان الأنبياء والمرسلون كلهم ضالين ومنحرفين.

أي نبي وأي رسول عاش داعيًا إلى الله، مجاهدًا في سبيله، ناصرًا للحق، خاذلاً للباطل، ولم يمتحن؟؟ ولم يضطهد من قومه؟؟

من ثمرات المحن (168):

إن سلسلة النبوة حلقات دامية كلها، وقد صب عليها الأذى والاضطهاد. إن الله سنة في خلقه لن تتبدل، وقانونًا ثابتًا لا يتحول. إن الله يربي عباده بالمحن، ويصقل جواهرهم بالابتلاء، ويصفي نفوسهم بالاضطهاد، حتى لا تعرف إلا

(168) ذكر شيخنا الفاضل في كتابه «الصبر في القرآن» حكمًا لهذه المحن أخصها فيما يلي:

- 1 - تطهير الصف من أدعياء الإيمان، من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، وإبان العافية والسراء يختلط فيها الحابل بالنابل، والخبيث بالطيب، وإنما يقع التمييز بين الأصل والدخيل بالمحن والبلاء.
- 2 - تربية المؤمنين، وصقل معادتهم، وتمحيص ما في قلوبهم فإنهم ينضجون بالمحن كما ينضج الطعام بالنار.
- 3 - زيادة رصيدهم ومقامهم عند الله، فهو يرفع درجاتهم، ويضاعف لهم حسناتهم، أو على الأقل يكفر خطاياهم. انظر: «الصبر في القرآن» (ص 18، 19) بتصرف.

إياه، ولا ترجع إلا إليه، ولا تعتمد إلا عليه، ولا تفزع إلى سواه، ولا تنظر إلى غيره، ولا تدعو إلا إياه، وحتى ترسل الزفرات الحارة، والدعوات الصارخة، تهز قوائم عرش الله.

قد يسخر الساخرون بالقلوب المؤمنة، وبالذعوات المظلومة. ولكننا نقول لهم:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه وما يدريك ما صنع الدعاء
سهام الليل لا تخطي ولكن لها أمد وللأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربي ويرسلها إذا نفذ القضاء

طريق الدعوة محفوف بالمخاطر:

أيها الناس: إن أنبياء الله جميعاً قد اضطهدوا، وإن الله لم يرسل رسولا إلا وأدبه بدروس الأذى والاضطهاد والابتلاء.

إنك لا تستطيع أن تشرب كوباً من الشاي إلا إذا أدخلته النار فينضج والمؤمن لا يكمل إيمانه إلا إذا انصهر في أفران المحن⁽¹⁶⁹⁾، وصدق الله

(169) لشيخنا كلام نفيس في الصبر ذكره في كتابه «الصبر في القرآن» ومما قاله في هذا الموضوع:

لقد عرف عشاق المجد وخطاب المعاني، وطلاب السيادة، أن الرفعة في الدنيا كالنور في الآخرة، لا تنال إلا بركوب متن المشقات، وتجرع غصص الآلام، والصبر عن كثير مما يحب، وعلى كثير مما يكره، وبدون هذا لا يتم عمل، ولا يتحقق أمل، ومن تخيل غير هذا الطريق كان كالذي قال لابن سيرين: إني رأيتني في النوم أسبح في غير ماء، وأطير بغير جناح!! فقال له: أنت رجل كثير الأمانى والأحلام، تتمنى ما لا يقع، وتحلم بما لا يتحقق، وفي شعر الحكم نقراً قول أحدهم:

لا تحسب المجد تمرًا أنت أكله لن تنال المجد حتى تلحق الصبر

العظيم: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: 22].

{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173].

إن نوحًا عليه السلام ظل يدعو ألف سنة إلا خمسين عامًا، ويقال عنه: مجنون وازدجر.

وإن إبراهيم عليه السلام قد أودى من قومه؛ حتى ألقوه في النار.

وإن إسماعيل عليه السلام قد تعرض للذبح.

وإن لوطًا عليه السلام قد أخرج قومه من قريتهم، أو أرادوا إخراجه، لا لشيء إلا لخلقه الجميل، ولسانه النظيف، وقلبه الطاهر {قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ}.

وإن موسى عليه السلام من أول يوم ولد رباه الله على المحن، فألقى في اليم {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: 7].

وإن يوسف عليه السلام منذ صغره قد لقي ما لقي، فقد ألقى في الجب، ولا ذنب له، وبيع بثمن بخس دراهم معدودة، كما تباع الشياه، ثم نراه يخدم في بيوت الأمراء كما يخدم الأرقاء. يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم، نبي ابن نبي ابن نبي هذا الرسول النسيب الحسيني، يخدم كما

تخدم العبيد، ثم يتهم كما يتهم ذوو الفاحشة، ثم يسجن ويأبث في السجن بضع سنين كما يسجن المجرمين!

إن زكريا عليه السلام نشره اليهود كما تنشر الخشب.

وإن السيد الحصور يحيى ذبح كما تذبح الأنعام.

وإن عيسى عليه السلام قد تأمر عليه اليهود، لولا أن رفعه الله إليه.

وإن رسول الله ظل في مكة ثلاثة عشر عامًا وهو يذوق العلقم من الجبهة المشركة، ثم يذهب إلى المدينة فيلقى من عنت المشركين ودسائس اليهود، ومكر المنافقين.

كل هذا ليزداد صفاءً و يقيناً وقرباً من ربه، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

هؤلاء هم الأنبياء فإن أردتم أن تتروا غيرهم فمن ذا تترون؟

والصحابية على دربهم سائرون:

أترون إلى عمر وقد مزقت أشلاءه يد مجوسية كافرة؟

أترون إلى عثمان وقد قتل وهو يتلو كتاب الله؟

أترون إلى علي وقد ضرب في شهر رمضان وهو ذاهب إلى صلاة

الفجر؟

أترون إلى الحسين وقد قتل ظمآن إلى شربة الماء؟

والدعاة والمصلحون على الطريق:

أترون إلى الدعاة من بعدهم والمصلحين؟

أترون إلى ابن تيمية وقد عاش سنين من عمره في السجون حتى قال: لا أجزع من سجنى ولا نفيى ولا قتلى، فسجنى خلوة لعبادة الله، ونفيى سياحة في سبيل الله، وقتلى شهادة في سبيل الله.

أترون إلى جمال الدين الأفغانى⁽¹⁷⁰⁾ وقد أخرج من مصر ونفى منها؛ لأنه رئيس جمعية سرية من الشباب نوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا! أترون إلى حسن البنا وقد قتل في شارع كبير من شوارع القاهرة، ليقدم رأسه هدية في عيد ميلاد ملك؟

هكذا كان أنبيأؤنا المرسلون. وهكذا كان المصلحون والمجددون ... كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط»⁽¹⁷¹⁾.

(170) الأستاذ جمال الدين الأفغانى من الشخصيات التي تضاربت فيها الأقوال، وكثر حولها اللغظ، حتى تناول عليه الكثيرون، وقد نال تلميذه محمد عبده نصيبًا من هذا اللغظ، والشيخ القرضاوى تعرض في كثير من كتاباته للشيخ الإمام محمد عبده، وأستاذه جمال الدين الأفغانى، وأكد ما كان للرجلين من مآثر، والعتذر عما كان لهما من زلات، والكمال عزيز. انظر ما كتبه فضيلة الشيخ القرضاوى في كتابه «من أجل صحوة راشدة» (ص 42، 43)، و«لقاءات ومحاورات» (ج 1/ص 75).

(171) رواه الترمذى في «الزهد» (2398)، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه في «الفتن» (4031) عن أنس، وحسنه الألبانى في «الصحيحه» (146).

الناس عند نزول المحن:

حظ كل إنسان من المحنة ومن المصيبة ما تحدث المحنة في نفسه: رضا يطمئن إلى غايته ومنهجه، أو سخطاً فينكر عبادته ودعوته. وصدق الله العظيم: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج: 11].

والقائل سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ} [العنكبوت: 10].

ومن هنا لم يكن الناس عند نزول المحن سواء، وإنما هم أنواع، فمنهم:

1 - قوم تحدث المحنة في نفوسهم سخطاً وفرعاً.

2 - قوم تحدث المحنة في نفوسهم صبراً جميلاً على قضاء الله ... أولئك الذين قال الله فيهم: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ 155 الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ 156 أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: 157].

3 - وقوم تحدث المحنة في نفوسهم الرضا بقضاء الله تعالى، أولئك الذين يعلمون أن الله يختار لهم الخير حيثما كانوا، ويتدبرون الأثر القدسي إذ أوصى الله إلى داود فقال: «يا داود أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لما أريد كفيتك ما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد».

يتدبرون الأثر القائل: «إن الله عز وجل جعل الفرح والروح في الرضا

واليقين، وجعل الهم والحزن في السخط والشك»⁽¹⁷²⁾

4 - وقوم تحدث المحنة في نفوسهم أكثر من الصبر والرضا، وهو: الشكر والسرور بقضاء الله تعالى، فيرون المحنة منحة، والنقمة نعمة، والبليّة هدية⁽¹⁷³⁾... يرون فيها نصر الله كما قال عبد الله بن عمر: «ما أصبت بمصيبة إلا كان لله عليّ فيها ثلاث نعم. النعمة الأولى: أنها لم تكن في ديني، والنعمة الثانية: أنها لم تكن أكبر منها، والنعمة الثالثة: أنني أرجو ثواب الله عليها.

لا بد من المحنة لأنها سنة الله في أصحاب الدعوات ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً، والله يقول للمؤمنين: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 142] ويقول: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: 214]، ويقول: {الْمَ ۙ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا

(172) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» موقوفاً على ابن مسعود (222/1).

(173) ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله في «منزلة الصبر»: أن الصبر في المحن يستعين

العبد عليه بثلاثة أشياء، وعد منها: تهوين البليّة، وذكر أن البليّة تهون بأمرين:

الأول: أن يعد نعم الله وأياديه عنده، فإذا عجز عن عدها، وأيس من حصرها، هان عليه ما

هو فيه من البلاء، وراه - بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه - كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوائف النعم التي أنعم الله بها عليه، فهذا يتعلق بالماضي. وتعداد أيادي المنن:

يتعلق بالحال. ويحكي عن امرأة من العابدات أنها عثرت. فانقطعت إصبعها. فضحكت.

فقال لها بعض من معها: أتضحكين وقد انقطع أصبعك؟ فقالت: أخاطبك على قدر عقلك

حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها.

انظر: «تهذيب مدارج السالكين» (ص 359، 360).

ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۖ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ} [العنكبوت: 1 - 3].

أيها الناس: هذه سنة الله في أصحاب الدعوات.

الدنيا دار التعب:

ونظرة أخرى حتى في غير أصحاب الدعوات، في طبيعة هذه الحياة الدنيا
... إنها لا تخلو من عنت ومشقة ... ودلوني بربكم على إنسان مرتاح النفس،
هادئ الضمير، سعيد الفؤاد، ولا يكدر حياته مكدر ... دلوني عليه نكن مثله
... ليس في هذه الدنيا سعيد، لا غني ولا فقير، ولا ذو سلطان ولا خامل ...
ربما كان أصحاب الجاه والسلطان أشد الناس ألماً وأكثرهم مرارة وتعباً {لَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} [البلد: 4].

من أول يوم ينزل فيه الإنسان من بطن أمه يجد العناء. وقد قيل لسيدنا
علي: صف الدنيا: فقال: ماذا أصف من دار أولها بكاء، وأوسطها عناء،
وأخرها فناء؟ من افتقر فيها حزن، ومن اغتنى فيها افتتن، في حلالها
الحساب، وفي حرامها العقاب، وفي متشابها العتاب.

إذا كان أهل الدنيا متعبين، وطلاب الآخرة متعبين. ما دام التعب ضرورة،
فلنتعب للآخرة بدلاً من أن نتعب للدنيا، ولنتعب لله بدلاً من أن نتعب للناس،
ولنتعب للرحمن بدلاً من أن نتعب للشيطان، اجعلوا تعبكم ومعاناتكم للآخرة
وللإسلام أيها الناس.

نسأل الله تعالى أن يتقبل أعمالنا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره

كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»⁽¹⁷⁴⁾.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من جابههم إلا ما أصابهم من لأواء «أذى»، حتى يأتي أمر الله»⁽¹⁷⁵⁾.

الخطبة الثانية:

الحمد لله ...

هكذا الدنيا أيها الناس ... كل إنسان معرض فيها لبلية نازلة، أو لنعمة زائلة، أو لجائحة في نفسه، أو في أهله، أو في ماله، أو فيمن يحب من أهله وعشيرته، ربما كان أشد الناس تعباً هم الذين تعدونهم سعداء، وربما كان أشد الناس سعادة هم الذين تعدونهم مغربين أو مضطهدين.

لأن المؤمن يشعر بالأمان في نفسه، والاطمئنان إلى مصيره، وإن خاف الناس من حوله {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 29].

وقديماً قال إبراهيم لقومه حينما حاجوه. وناقشوه: {أَتُحْجَوْنَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَبْنَا وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ 80 وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ «أصنامكم الكبيرة» وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ لِمُؤَن

(174) رواه مسلم في «الزهد» (2999) عن صهيب.

(175) رواه أحمد والطبراني عن أبي أمامة.

81 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ} [الأنعام: 82].

لقد قالت امرأة عمر حينما قال لها: لأشقيتك - لأرينك الشقاء والهوان - فقالت: لا تستطيع يا عمر أن تشقيني. فما كانت سعادتي في مال تمنعني منه، ولا في زينة في صدري ولا في أذني لتقطعها عني، وما هي في شيء من هذه الدنيا ولكني يا عمر أرى سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير ربي (176).

إننا نسعد أيها الناس بعقيدتنا ...

إننا نسعد أيها الناس بدعوتنا ...

إننا نسعد أيها الناس بإيماننا ...

ليست سعادتنا في فخامة الدور، ولكنها في طوايا الصدور.

وليس إيماننا في البنيان والطوب، ولكن في شغاف القلوب.

فليعملوا ما شاءت لهم أهواؤهم وأغراضهم فإن القافلة تسير، وإن دين الله

(176) لسماحة الشيخ في «الملحمة التونسية» شعر في هذا المعنى، يقول فيه:
 تالله ما الطغيان يهزم دعوة يوماً وفي التاريخ بر يميني
 ضع في يدي القيد ألهب أضلعي بالسوط ضع عنقي على
 لن تستطيع حصار فكري ساعة أو نزع إيماني ونور يقيني!
 فالنور في قلبي وقلبي في يدي ربي وربى ناصري ومعيني!
 سأعيش معتزاً بحبل عقيدتي وأموت مبتسماً ليحيا ديني!

انظر: «نفحات ولفحات» (ص 91، 92).

باق، وإن دعوة الله ماضية {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا
بِكُفْرِينَ} [الأنعام: 89].

ورد أن في يوم الجمعة ساعة، إجابة لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير
إلا استجيب له (177).

اللهم نسألك رحمة من عندك تجمع بها شملنا، وتلم بها شعثنا، وتقوم بها
عوجنا، وتصلح بها فسادنا، وتهدى بها قلوبنا، وترفع بها شأننا، وتركي بها
أعمالنا ...

ربنا أعنا ولا تعن علينا، وانصرنا ولا تنتصر علينا، وأمكر لنا ولا تمكر
علينا، واهدنا ويسر الهدى إلينا، وانصرنا على من بغى علينا.

* * *

(177) يشير فضيلة الشيخ إلى حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر
يوم الجمعة فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى
شيئاً إلا أعطاه الله إياه». متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (495)، رواه البخاري
في الجمعة (935)، ومسلم في الجمعة (852)، وذكر ابن القيم للعلماء في هذه الساعة
أحد عشر قولاً، رجح القول بأنها بعد العصر. انظر: «زاد المعاد» (376/1 - 378).

(11)

الناس أصناف أربعة⁽¹⁷⁸⁾

الحمد لله، لا يزيد في ملكه حمد الحامدين، ولا ينقصه جحود الجاحدين.

الحمد لله. لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضره معصية من عصاه.

{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} [الجمعة: 15].

أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء، على الطريقة الواضحة الغراء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله على آله وصحبه الطيبين الطاهرين. {فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: 157]، ورضي الله عن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

واحشرنا اللهم في زمرة هؤلاء الطيبين، يوم يحشر المتقون إلى الرحمن وفدا ويساق المجرمون إلى جهنم وردا.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

(178) أُلقيت هذه الخطبة في يوم الجمعة: 6 شعبان 1373 هـ الموافق 9 إبريل 1954 م.

أصناف الناس:

الناس في هذه الدنيا أصناف شتى، وأنواع كثيرة:

1 - صنف يعيش للشهوة، فهذا حيوان.

2 - صنف يعيش للأذى: فهذا سبع.

3 - صنف يعيش للباطل: فهذا شيطان.

4 - صنف يعيش للحق: فهذا ملاك.

الصنف الأول: من يعيش لشهوته:

من الناس من يعيش في هذه الدنيا ولا غاية له، ولا مبدأ له، ولا فكرة له، ولا هدف له، تسأله كيف يعيش؟ ولم يعيش؟ وإلى أين يسير؟ وفي أي طريق يمشي؟ فلا يعطيك جوابًا، بل ربما لا يعرف معنى السؤال.

هذا جحد نعم الله الكبرى عليه. فلماذا أنزل الله له الكتب؟ ولماذا أرسل له الرسل؟ ولماذا منحه العقل الذي به يميز؟ والقلب الذي به يحس؟ والإرادة التي بها يرجح ويختار؟

هذا لم يعرف قدره، فتراه حيًّا كميت، وموجودًا كمفقود، وإنسانًا كحيوان. همه كما قال القائل:

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام

فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

هذا صنف من الناس لا يمكن أبدًا أن نعهده في زمرة الإنسانية، وأن نحسبه على الطائفة البشرية. يعيش في الدنيا كأنه ليس منها، يعيش كأنه ليس فيها، لا

يحس بالحياة، ولا تحس به الحياة، لا يشعر بحقيقة الوجود، ولا يشعر بسر الوجود، هذا هو الصنف الذي حدثنا عنه الله تعالى فقال: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: 179].

لهم حواس ولهم مشاعر؛ ولكنهم عطلوها، وغطوا عليها، وأهملوها. فكانوا كالأنعام؛ بل كانوا أضل من الأنعام، وإنما كانوا أضل من الأنعام، وكانوا أخط درجة، وأنزل شأنًا لأن الحيوان معذور. لماذا هذا الصنف أضل من الأنعام؟

وهذا الصنف من الناس أضل من الأنعام لحقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن الأنعام لا عقل لها تفكر، ولا حس به تشعر، ليس لها تلك القلوب الخافقة، وليس لها تلك الأنفس الناضجة، وليس لها تلك الأفكار العالية، لم تنزل عليها الكتب، ولم ترسل إليها الرسل، فلا عجب إذا سارت وراء شهواتها، وانحطت في دركاتها، وانغمست في ملذاتها، أما هذا الإنسان العجيب الذي سخر الله له السموات والأرض؛ ما عذره إذا أهمل سر الله في كيانه؟ لا عذر له.

لهذا كان مثل هذا الصنف من الناس أضل من الأنعام سببًا!!

والحقيقة الثانية: أن الأنعام والبهائم، والجواميس والأبقار، والخيل والبغال والحمير: لها مهمة تؤديها، ولها رسالة لا تتأخر عن أدائها. الجاموسة إذا دعيت للحرث والنسل لا تتردد، ولا تتأخر عن أن تجر

المحراث، ثم هي تربي أولادها، ثم تأتينا باللبن خالصاً سائغاً للشاربين. فهي تؤدي مهمتها، وتقوم برسالتها، لا تتمرد ولا تعصي، فما بالك بالإنسان ومهمته عبادة الله وحده، وخلافة الله في هذه الأرض، فما بالك بهذا الذي لا يعرف مبدأ يعيش له، وإنما يعيش للشهوات، يعيش للبطن وللمعدة، يعيش للفرج وللغريزة، يعيش للمرأة، يعيش للهو واللعب، يعيش لهذه الغايات الضئيلة التي تفنى.

الصنف الثاني: من يعيش لأذى غيره:

وهناك صنف آخر: لا يكتفي فقط أن يأكل ويشرب، ويلهو ويلعب؛ بل راحته في إيذاء الناس، وسعادته في ظلم الناس، طبيعته طبيعة الوحوش الضاربة، والثعابين النفاثة، والعقارب اللادغة، لا يرتاح ولا ينشرح إلا بنفث السموم، تسمع له القول المعسول، واللفظ اللين، ولكنه يضمّر في نفسه شراً.

لو كشفت عن أسنانه وأضراسه لوجدتها أسنان وحش ضار، وأنياب نمر مفترس، ولو كشفت عن ثيابه لوجدت تحت الثياب كلباً عقوراً، وصدق الله العظيم إذ يقول: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ 204 وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفٰسَادَ} [البقرة: 205].

لا تقل: إن هذا الصنف بشر، إنهم شر من السباع والوحوش، لأن الوحوش لا تؤذي فرائسها بقصد الأذى والعدوان، بل هي تقصد أن تشبع جوعها، وتملاً بطنها، بخلاف هؤلاء الذين يؤذون لغرض الأذى.

الصنف الثالث: من يعيش للباطل:

وهناك صنف ثالث: يعيش لمبدأ؛ ولكن لمبدأ باطل، ويحيا لفكرة؛ ولكن لفكرة ضالة، إنه قد ضل وُخدع، إنه قد غرر بعقله، وانحرف تفكيره، فسار وراء السراب يظنه ماء، وظن الورم شحمًا، وظن الشر خيرًا والباطل حقًا، هذا هو المخدوع كما قال الله تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} [فاطر: 8]، وقال تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا 103 الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: 103، 104].

ولهذا كان من دعاء السلف: اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه. وكان من دعاء المسلمين في كل يوم في سبع عشرة ركعة: {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ 6 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: 6، 7].

المغضوب عليهم هم: الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه، خانهم الشيطان ... والضالون: هم الذين انحرفوا عن طريق الحق، لأنهم جهلوه ولم يعرفوه، أو التبس عليهم الحق بالباطل، واختلط عليهم الحابل بالنابل، كالذي ضل في الصحراء، فلم يعرف له وجهة: أبشرق أم بغرب؟

فاللهم اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم؛ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ... آمين.

الصنف الرابع: من يعيش للحق:

وهناك صنف رابع: هو الذي يعيش لغاية كريمة، يعيش لمثل عليا، يعيش لفكرة رفيعة، يعيش لهدف نبيل، يعيش لعقيدة سامية، لمبدأ حق.

إنه لا يعتقد أن الله سبحانه قد هيا له هذا الكون، وأوجد فيه سر الحياة، وأنزل عليه الكتب، وأرسل إليه الرسل؛ لا يعتقد أن هذا كله ليعيش عيشة الحيوان، بل ليعيش إنساناً كريماً يرتفع بنفسه إلى الله تعالى، ويسمو بروحه إلى الملائكة المقربين.

هؤلاء هم الذين قال الله فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} [البينة: 7].

غايات نبيلة وأخرى وضعية:

لقد قال الله تعالى مبيناً للناس الغايات الكريمة من الغايات الوضيعة: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآءِ 14 قُلْ أُو۟تِينَا بِخَيْرٍ مِّنۢ ذَٰلِكُمْ} [آل عمران: 14، 15]. هل أدلكم على أفضل من الحرث والأنعام، والنساء والبنين، والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة؟ نعم أنبئنا يا رب!! {لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ 15 الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ 16 الصَّٰبِرِينَ وَالصَّٰدِقِينَ وَالْقٰنِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْاَسْحٰرِ} [آل عمران: 17].

أولئك الذين عرفوا حقيقة وجودهم، أولئك الذين أدركوا سر حياتهم، أولئك الذين عرفوا أن كل ما في الوجود لا يساوي حبة خردلة، وأن الدنيا بأرضها وسمائها، وبحارها وأنهارها، وزروعها وأشجارها، وجناتها وإنسها، وفضتها وذهبها، لا تزن عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تساوي عند الله جناح

بعوضة ما شرب كافر منها شربة ماء(179).

تسبيحة أفضل من ملك سليمان!

لقد حكوا أن سليمان بن داود مر بملكه العريض، وموكبه العجيب - فيه الجن والإنس والطير، من كل صنف ولون - على رجل فلاح يلقي بذرته في الأرض، يبذر الحب ويرجو الثمار من الرب، فرأى فخامة ملكه وضخامته؛ فقال معجباً بهذا الملك: لقد أوتيت يا ابن داود ملكاً عظيماً، فبلغت مقالته سليمان، فقال في معرفة المتواضعين العارفين: والله لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود. فإن التسبيحة في صحيفة المؤمن تبقى، وما أوتي ابن داود يزول ويفنى.

هذا هو منطق المؤمنين، هذا هو فقه أصحاب القلوب: الذين بحثوا عن السعادة الحق فوجدوها، ولم يضلوا الطريق إليها.

ليست هذه هي السعادة(180).

إن السعادة ليست في المال؛ فالمال ظل زائل.

وليست في الجاه؛ فالجاه نجم آفل.

(179) إشارة: إلى حديث سهل بن سعد: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء». رواه الترمذي في «الزهد» (2321)، وابن ماجه في «الزهد» (4110)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (1889).

(180) لشيخنا ظظظ في كتابه «الإيمان والحياة» موضوع نفيس عن السعادة بعنوان: «الإيمان والسعادة» وفيه يقول الشيخ: السعادة هي جنة الأحلام التي ينشدها كل بشر، من الفيلسوف في قمة تفكيره وتجريده، إلى العامي في قاع سداجته وبساطته، ومن الملك في قصره المشيد، إلى الصعلوك في كوخه الصغير، ولا تحسب أحداً يبحث عن الشقاء لنفسه أو يرضى بتعاستها.

وليست في الأولاد؛ فالولد لا يبقى لك، وإن بقي فلن تبقى له.
وليست في الملك فالملك لا يدوم.

إن كل ما في الدنيا ومن في الدنيا إلى زوال ... كل جمع إلى شتات ...
وكل حي إلى ممات ... وكل ملك إلى فوات ...

هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذلك إلى انتقال؟
وما دنياك إلا مثل ظل أظلك ثم آذن بالزوال!
هذا هو شأن الدنيا!!

السعادة الحقة في القلوب:

لقد عرف أرباب العقول النيرة، وفقه أصحاب القلوب البصيرة: أن سعادة المرء ليست في مظهر من مظاهرها، ولا في مال من أموالها، ولا في عرض من أعراضها الزائفة، إنما سعادتها الحقة فيما ينبع من شغاف القلوب الطاهرة، وفيما يرفع إلى الله تعالى من العمل الصالح.

{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: 10]، {أَيَّتُّنَّوْنَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [النساء: 139].

هكذا عرف المؤمنون ... وهكذا فقه العارفون ... وهكذا يتربى الشباب الطاهرون.

يريد العبد أن يعطي مناه ويأبى الله إلا ما يريد
يقول العبد: فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما يفيد
ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد

السعادة إذًا ليست في وفرة المال، ولا سطوة الجاه، ولا كثرة الولد، ولا نيل المنفعة.

السعادة شيء معنوي لا يرى بالعين، ولا يقاس بالحجم، ولا تحتوي الخزائن، ولا يشتري بالدينار، ولا بالجنيه، أو الروبل، أو الدولار.

السعادة شيء يشعر به الإنسان بين جوانحه ... صفاء نفس، وطمأنينة قلب، وانسراح صدر، وراحة ضمير.

هؤلاء هم الناس حقًا:

هذا الصنف الرابع هو الذي يعيش للغاية الحقّة، يجب أن نعهده وحده من الناس، ويجب أن نحسبه وحده من المؤمنين الصادقين.

إن الإنسان ليس إنسانًا بضخامة جسمه، ولا بجمال منظره، ولا بفخامة مظهره، ولا بما أوتي من مال وجاه، وإنما هو إنسان بهذه المضغة التي بين جنبيه، هو إنسان بهذا القلب الذي به يصلح أو يفسد، ويسعد أو يشقى، قال تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ 88 إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: 89].

وفي «الصحيحين» قال صلى الله عليه وسلم : «ألا إن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب»⁽¹⁸¹⁾.

فأصلحوا أيها الناس هذه القلوب.

(181) متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (1028)، رواه البخاري في البيوع (2051)، ومسلم في المساقاة (1599) عن النعمان بن بشير.

كيف نعرف الحق من الباطل:

أيها الناس: بماذا نعرف المبدأ الحق من المبدأ الباطل؟

المبدأ الحق: هو الذي يتصل بالله تعالى، هو الذي يأمر به الله، لأن معنى الحق: الثابت الذي لا يتغير.

فكل متغير وزائل هو الباطل: لا يملك أساساً له.

والحقيقة الثابتة في النفوس، الراسية في القلوب، التي لا يعتبرها تغيير ولا زوال هي: الله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [الفصص: 88].

فليس في الدنيا حق إلا الله.

{فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ أَحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس: 32].

إن كل ما تظنه في الدنيا مما سوى الله حقاً، فأنت به مخدوع، فكم من شيء اعتقدت أنه حق وزال، ولكن الحق الباقي: هو الله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: 62]. من جهل هذا في الدنيا سيعرفه في الآخرة.

من عميت عينه عنه اليوم فسينكشف الغطاء غداً {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: 22]، {يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} [النور: 25].

أيها الناس:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

هذه أصدق كلمة قالها شاعر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (182)، فقيسوا المبدأ الحق بصلته بالله، وبكتابه، وبدينه، وبرسوله. فهو الحق الذي لا يمكن أن يزول؛ مهما تألبت عليه القوي، وتجمع عليه الناس، وكاد له الكائدون، وتربص به المتربصون، فإن الله من ورائهم محيط، وإن ربك بالمرصاد، وإن عين الله لا تغفل، وإن الله لا تأخذه سنة ولا نوم.

{أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}

[الزخرف: 80].

اختر لنفسك صنفاً:

أيها الناس: هؤلاء هم أصناف الناس:

صنف: ليس له فكرة ولا مبدأ ولا غاية، يعيش لبطنه وفرجه، ويدور حول أمعائه وأهوائه، ويحيا لمأكله ومشربه، وملبسه أو مسكنه، لامرأته أو لأهله، أو لأولاده، يعيش لمصلحته الذاتية، ومنفعته الشخصية.

وصف ثان: يعيش لإيذاء الناس، كما تعيش العقارب، والثعابين، ولا يتمكن إلا ليتمكن لنفسه، ولا يحسن القول والكلام إلا ليجد الفرصة لإيذاء خلق الله.

وصنف ثالث: خُدع عقله، فمشي وراء الأحلام، وظن الباطل حقاً، والضلال هدى، فهذا لا يهتدي حتى ينكشف له الغطاء، ويتضح الصبح لذي

(182) إشارة إلى الحديث المتفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (1454): «أصدق كلمة قالها الشاعر؛ كلمة لبيد...» رواه البخاري في مناقب الأنصار (3841)، ومسلم في الشعر (2256) عن أبي هريرة.

عينين، فإن الأمر سيظهر في الآخرة.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا لِلَّهِ سَرِيعَ الْحِسَابِ} [النور: 39].

وصنف رابع: هو الذي يعيش لغاية، ويحيا لفكرة، ويعمل لهدف رفيع نبيل، فهؤلاء هم المؤمنون {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28].

فاللهم اجعلنا منهم، وانفعنا بهم.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهاً؛ لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه - أي طلب البراءة لدينه وعرضه - ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا إن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(183).

وقال صلى الله عليه وسلم : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(184).

وقال صلى الله عليه وسلم : «إن من ورائكم لفتنة كقطع الليل المظلم،

(183) سبق تخريجه.

(184) رواه مسلم في البر والصلة (2564) عن أبي هريرة، وفي رواية «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم».

للعامل فيها أجر خمسين منكم» قالوا منهم يا رسول الله. قال: «بل منكم لأنكم تجدون على الخير أعواناً، وهم لا يجدون على الخير أعواناً»⁽¹⁸⁵⁾.

والحمد لله رب العالمين ...

* * *

(185) قال الحافظ العراقي في «الإحياء»: أخرجه الترمذي وحسنه، وأبو داود وابن ماجه، وللحديث رواية أخرى عند الطبراني في «الكبير» (117/17)، وفي «الأوسط» (272/3) عن عتبة بن غزوان بلفظ: «من ورائكم أيام الصبر، للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم»، قالوا: يا نبي الله أو منهم؟ قال: «بل منكم». قال الهيثمي في «المجمع»: رواه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» عن شيخه بكر بن سهل عن عبد الله بن يوسف وكلاهما قد وثق، وفيهما خلاف (282/7)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (494).

(12)

جهاد الجزائر (186)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وصحبه، ومن نهج نهجه، واتبع سنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أما بعد ... فيا أيها العرب أيها المسلمون:

هل أتاكم نبأ الجزائر المؤمنة المجاهدة؟ ذلك الجزء العزيز من وطننا العربي الكبير، والذي يعد واسطة عقد المغرب العربي، وفلذة كبد العروبة في الشمال الإفريقي.

عطفتان مختلفتان:

إن الحديث عن الجزائر العربية يثير في النفس عاطفتين مختلفتين: يثير الغضب والحقد والكراهية إذا ذكرت فرنسا ووحشيتها، ويثير الإشفاق والإعجاب والتقدير إذا ذكرت الجزائر وبسالتها ...

(186) نص الخطبة التي أذيعت من إذاعة القاهرة من مسجد الزمالك، في أول رجب 1371 هـ الموافق 1957م.

ثورة مدوية كأنها الرعد:

لقد نكبت الجزائر بالاستعمار الفرنسي في غفلة من الزمن سنة 1830م، وكانت أول قطر عربي حلت به كارثة الاستعمار. ولكن الجزائر الأبية لم تركع على قدميها صاغرة، ولم تفتح ذراعيها للمستعمر، بل قاومت وصمدت، وبذلك وضحت غايتها، وقام أبناؤها بحركات عديدة ضد بغي فرنسا، قتل فيها الألو، وعشرات الألو، وهدمت منازل ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، وأبيدت قرى بأسرها، فلم يثن ذلك للجزائريين عزمًا، ولم يفل لهم حدًا، بل كانوا كالشعلة المتقدة كلما هبت عليها الريح زادت اشتعالًا، ولم يزلوا مصممين على التحرر من عبودية فرنسا، تحطيم قيود الذل والهوان، حتى قامت ثورتهم المباركة الأخيرة منذ ثلاث سنوات، مدوية كأنها الرعد، كاسحة كأنها العاصفة، راسية كأنها الجبل، جبارة كأنها قدر من الأقدار.

وَجُن جنون فرنسا، فجمعت جموعها، وحشدت جيوشها؛ تزحف من البر وتضرب من البحر وتقذف بالحمم من الجو.

نصف مليون جندي فرنسي بكل ما لدى فرنسا من أسلحة حديثة بل بأسلحة أوربا الغربية، وحلف الأطلنطي كله، بهذا كله وقفت فرنسا تحارب جيش التحرير؛ المحدودة العدد، الضئيل السلاح.

هل أخاف هذا العدد والعدد أبناء الجزائر؟ لا. ثم لا. إنهم نظروا إليه نظرة خبير بشباب فرنسا المنحل المنهار، ورددوا ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم حين نظر إلى جموع المشركين يوم هوزان: «تلك غنيمة المسلمين

غَدَاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ» (187) وكانوا مثلاً رائعاً للمؤمنين (188) {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 172].

جهود ابن باديس ورفاقه:

وطار لب فرنسا من تصميم الأحرار، وضربات المجاهدين؛ فاعتقلت الزعماء الخمسة، تحسب أن الثورة ستخدم ناراها، وجعلوا أن حركة الجزائر ليست حركة أشخاص، ولكنها حركة أمة، ويقظة عملاق، وامتداد حضارة، وانتفاضة تاريخ.

إنها نتيجة تعليم طويل المدى وتربية عميقة الجذور لعلماء مخلصين ورجال مؤمنين {صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 23].

إنها ثمرة لما غرسه الإمام المجدد: عبد الحميد بن باديس ورفقاء دربه: الإبراهيمي، وإخوانه من أعضاء جمعية العلماء الجزائريين المسلمين، الذين وقفوا أمام الاستعمار الفرنسي يقاومون «فرنسته» بالأسلحة والتعريب وتجهيله للشعب بالتعليم، ويربون الجيل الحر الذي حمل اليوم السلاح

(187) رواه أبو داود في الجهاد (2501) عن سهل بن الحنظلية، والحاكم (93/2)، والنسائي في «الكبرى» (73/5)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (2183).
(188) هم الصحابة الذين حضروا غزوة أحد، وقد جاءهم أن أبا سفيان ومن معه أجمعوا على السير إلى المدينة ليستأصلوا المسلمين، فقال الرسول ومن معه: {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قال ابن عباس: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها محمد صلى الله عليه وسلم ، حين قالوا: «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ...» رواه البخاري في «التفسير» (4563).

ليحارب الوحش الاستعماري، أو الاستعمار الوحشي.

ابن باديس هو الذي حفظ الشعب الجزائري النشيد الخالد:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال: حاد عن أصله أو قال: مات قد كذب

حرب على العروبة والإسلام:

أيها العرب أيها المسلمون: لقد عرف الفرنسيون المستعمرون أن قوام الشخصية الجزائرية هو العروبة والإسلام، فحاولوا بكل ما استطاعوا من قوة وكيد أن يحطموا تلك الشخصية لتنتهار مقاومتها، ويذوب كيانهها، ويسهل ابتلاعها وإدماجها.

حاربت فرنسا اللغة العربية، وأصدر أحد وزراء خارجيتها قراراً بأن اللغة العربية لغة أجنبية بالنسبة لجميع سكان الجزائر، واعتبر تعليمها «محاولة عدائية» ضد فرنسا لصيغ الجزائر بالصيغة العربية.

وحاربت فرنسا الحرة المتسامحة!! الدين الإسلامي حرباً خسيصة فاجرة، وحسبنا هذا النص الواحد دليلاً على سياسة فرنسا مع الإسلام:

قال أحد الفرنسيين في الإدارة الإسلامية: «لقد بلغ مدى إذلالنا للدين الإسلامي أنه أصبح يتعين على كل من يرغب في شغل منصب من مناصب الإمامة والإفتاء أن يعمل جاسوساً لفرنسا!! وهو لا ينال بعد ذلك تقدماً أو ترقية إلا بقدر ما يظهر من وفاء، ويثبت من طاعة للإدارة العامة الفرنسية».

فشل ذريع لفرنسا:

تلك كانت سياسة فرنسا في قرن وربع قرن من الزمان: سياسة فرنسا الجزائر، وإلغاء شخصيتها العربية المسلمة. فهل أفلحت سياسة فرنسا؟ لا، وأيم الحق: إن جهودها الجبارة المتتابعة، المؤيدة بالحديد والنار، والعلم والمال، والخبث والدهاء؛ باءت بالفشل الذريع، وبقيت الجزائر عربية صريحة العروبة، مسلمة عميقة الإسلام، وأضافت إلى كتاب العروبة والإسلام صفحة خلود جديدة، أثبتت بها أن العروبة أصلب عوداً، وأشد قوة، وأن الإسلام أعظم صموداً واستعصاء على كل محاولات الخادعين والمخادعين.

أيها المسلمون: لقد تجلت الجوائز المؤمنة بربها وبنفسها وبحقها في جيش تحريرها المنصور، الذي ألقى على الطغاة الفرنسيين دروساً بليغة في احترام الشعوب، وعلمهم أن في الزوايا خبايا، وأن في العرين أسوداً لا يستباح حماها، وأن الجزائر ليست غنيمة باردة ولا لقمة سائغة، ولكن طعمها مر المذاق، ولحمها سم زعاف.

النعام تستأسد:

ولما فشل جيش فرنسا في مواجهة ثلاثين ألفاً من المجاهدين الذين لا يملكون سوى البنادق والرشاشات ولى وجهه شطر المدنيين الأمنيين. جيش فرنسا الذي خر على ركبته منذ الضربة الأولى للألمان سنة 1940م، وفاز ببطولة العدو أمام جنود هتلر!! هؤلاء النعام يريدون أن يكونوا أسوداً تثبت زئيرها ونابها ومخلبها، ولكن على من؟؟ على النساء الحوامل، والفتيات العذارى، والأطفال الرضع، والشيوخ المحطمين.

وحوش في لبوس بشر:

لقد صب الاستعمار الفرنسي جام غضبه على القرى الآمنة فحرق بلادًا بأسرها، وهدم دورًا ومنازل، وقتل أعدادًا هائلة من الناس، وتفنن في صنوف التنكيل والتعذيب مما لا عين رأت ولا أذن سمعت!

ألم تروا إلى القرية العامرة، تمر عليها في الصباح نابضة بالحياة أهلة بالسكان وادعين، وبالزراع كادحين، وبالأطفال لاعبين، فتمر عليها في المساء فلا تجد مكان الدور إلا خرائب، ولا مكان الحياة إلا موتا، ولا مكان الأدميين إلا أشلاء متناثرة، سلطت عليها الآلات الجهنمية فجعلتها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس؟

ألم تروا! إلى الرجل الأعزل، أو المرأة الضعيفة، أو الصبي الناعم الأظفار أمسك به كلاب الصيد من الفرنسيين فصبوا عليه صفائح البنزين، ثم أشعلوا في جسده النار؛ ليتلذذوا برؤية تلك الشمعة الأدمية وهي تحترق، وهم بين الضحك الوحشي، والعريضة النكراء!!!

ألم يأتكم حديث القرية الجزائرية التي دخلوا عليها كالريح العقيم، فساقوا أهلها كما يسوق الجزائر الشياها إلى المجزرة، وأمروهم أن يخلعوا ملابسهم، ويعروا أجسادهم رجالًا ونساءً، كبارًا وصغارًا، تحت ضغط السياط التي تلهب الظهر، والمدافع المصوبة إلى الصدور، ثم يحدث ما يستحي من ذكره اللسان، وتقشعر من هول الأبدان!!

وكم من سيدة شريفة أو فتاة عذراء قتلت من أجل ذلك نفسها؛ حتى لا تدنس عرضها!! وكم من رجال - بعد هذه المناظر - اعتصموا في الجبال

مصممين على الانتقام للعرض والشرف أو الموت في ميدان الجهاد.

لمثل هذا يزوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

فرنسا نسيت تاريخها:

أيها العرب أيها المسلمون:

تلك هي فرنسا!! مهد الثورة، وأم الحرية، وبلد الإخاء والمساواة. كما

يزعمون ولا يستحون!!!

هي فرنسا!! التي سبرنا غورها، وعجنا عودها؛ فعرقتنا وعرفناها منذ

قرون:

عرقتنا فرنسا في العصور الوسطى حين تكتل الغرب الصليبي للاعتداء

على الشرق الإسلامي، فلقتها صلاح الدين الأيوبي درسًا قاسيًا لم تكن لتنتساه؛

فلما نسيتها وعادت تزحف بجيوشها إلى مصر، واحتلت دمياط واتجهت نحو

المنصورة لقيها جيش مصر، فهزمتها شر هزيمة، وأخذ ملكها «لويس

التاسع» أسيرًا، وحبس في دار ابن لقمان بالمنصورة، ولم يفك أسره إلا بعد

دفع فدية ضخمة، وأصبح الفرنسيون بعدها موضع الازدراء والسخرية،

حتى تنذر بهم الشاعر المصري ابن مطروح فقال:

قل للفرنسيس إذا جئتَه مقال صدق عن قوول فصيح

أتيت مصر تبتغي ملكها تحسب أن الزمر يا طبل ريح

وكل أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح

خمسین ألفًا لا ترى منهمو غير قتيل أو أسير جريح

ألهمك الله إلى مثلها لعل عيسى منكمو يستريح

إذا كان بباكمو بذاراضيا فرب غش قد أتى من نصيح
 وقل لهم إن أضمرُوا عودة لأخذ ثأر أو لقصد قبيح
 دار ابن لقمان على حالها والقيد باقٍ والطواشي
 أيها العرب أيها المسلمون: اعرفوا عدوكم حتى تحذروا منه، وتوجهوا
 القوى إلى حربه لتقتضي منا توحيد الجهود، وإعداد العدة: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ
 يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَيْنَ مَرَّصُونَ} [الصف: 4].

وفي الحديث: يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «والذي نفس محمد
 بيده، لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلف سرية تغزو في سبيل
 الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فيتبعوني، ولا تطيب أنفسهم فيتخلفون بعدي،
 والذي نفس محمد بيده، لو ددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو
 فأقتل، ثم أغزو فأقتل» (190).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً
 عبده ورسوله، أرسله {بِالْهُدَىٰ وَدِينٍ الْبَاقِ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
 الْمُشْرِكُونَ} [الصف: 9].

أما بعد:

أفليس من العجب أن يتفق الغرب المسيحي مع إسرائيل اليهودية؟ ولكن

(189) انظر: الحروب الصليبية: أسبابها، نتائجها، حملاتها، سيد علي الحرير - تحقيق
 عصام شيارو - ط. دار التضامن (253/1).
 (190) رواه مسلم في الجهاد (1876) عن أبي هريرة.

العارفين يعلمون أن الغرب الاستعماري لا دين له، كما أن إسرائيل الصهيونية لا دين لها: الاستعمار والصهيونية كلاهما لص عالمي مهمته أن يسرق ويقتل، وغايته خراب البلاد، وذل العباد، وإشاعة الفساد، لهذا تعاوننا واتفقا {وإنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [الجنّة: 19].

لقد كان هناك في الماضي من يقول: «ما لنا وللجزائر الآن؟ نحن في قضية مصر؛ فكيف نوزع الجهود؟ ونبعثر القوي هنا وهناك» ولكننا عرفنا اليوم أن معركتنا - نحن العرب - واحدة، وإن نشب القتال في جبهات شتى، وأن عدونا واحد وإن ظهر في ثياب أشخاص متعددين. فإذا سدّدنا إلى هذا العدو سهمًا في أي شخص من أشخاصه وفي أي جبهة من جبهاته؛ فإنما نصيب أعداءنا جميعًا.

وإن أية حركة تقوم بها - أيها العربي المسلم في مصر - لنصرة إخوانك الجزائريين ضد فرنسا أو نصرته إخوانك اليمنيين ضد بريطانيا، أو لنصرة إخوانك الفلسطينيين ضد إسرائيل، إنما هي في الواقع حركة ضد الاستعمار والعدوان على مصر.

يا ثمانين مليونًا من العرب⁽¹⁹¹⁾: جميل أن تضربوا من أجل الجزائر تعبيرًا عن مشاعركم وإعلانًا لتضامنكم، ولكن الأجل والأحرى: أن تتحول العواطف والمشاعر إلى مال وسلاح يقدمان للجزائر.

يا أربعمائة مليون من المسلمين: هبوا من مرقدكم فإن الإسلام يفرض

(191) هذه الأرقام كانت في خمسينيات القرن الماضي، ولم تكن هي الأرقام الحقيقية للمسلمين أو العرب، وإنما كانت أعدادهم تفوق هذه بكثير.

عليكم أن تمدوا أيديكم، وتقفوا بجوار إخوانكم بالنفس والمال.

يا أحرار العالم، ومحبي السلام، وأنصار الإنسانية في كل مكان: ها هي فرنسا قد انتهكت حرمة المواثيق الدولية. واعتدت على حقوق الإنسان، وأقامت من أهل الجزائر موانع بشرية واقية، فقولوا كلمتكم، وقفوا عدوان المعتدين، فقد قالت الجزائر كلمتها وسجلتها بالدم الزكي الغالي على صفحات التاريخ.

أما أنتم - يا أبناء الجزائر الأعزاء - فامضوا على بركة الله في جهادكم، فالعرب جميعاً من ورائكم، ومئات الملايين من المسلمين بجانبكم، وجميع الأحرار في صفكم، وجند السماء الخفي يحارب معكم، والله تعالى يؤيدكم بنصره، وير عاكم بعينه، والعاقبة للمتقين، {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [الشعراء: 227].

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، و {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [العنكبوت: 45].

واقم الصلاة ...

* * *

(13)

لماذا نرفض العلمانية⁽¹⁹²⁾

الخطبة الأولى:

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خصنا بخير كتاب أنزل، وأكرمنا بخير نبي أرسل، وأتم علينا النعمة بأعظم منهاج شرع منهاج الإسلام: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3].

وأشهد أن سيدنا وإمامنا، وأسوتنا وحبيبنا؛ محمداً عبد الله ورسوله، معلم الناس الخير، وهادي البشرية إلى الرشده، وقائد الخلق إلى الحق، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم، وعلى آله وصحابه، وأحينا اللهم على سنته، وأمتنا على ملته، واحشرنا في زمرة، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

(192) أقيمت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في 1 صفر 1417هـ - 6 يونيو 1997م.

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

رفضى الحوار مع علماني في قناة الجزيرة:

في الأسبوع الماضي شاركت في حلقة في قناة الجزيرة الفضائية القطرية حول الإسلام والعلمانية. اتصل بي الإخوة المسئولون في الجزيرة، وطلبوا إليّ أن أشرك فاعتذرت في أول الأمر، وقلت لهم: إن كان ولا بد من هذه الحلقة فليس الشخص الذي ترشحونه هو المناسب للحوار فيها، لأن الأصل في الحوار بين الإسلام والعلمانية أن يكون الإنسان مؤمناً بالإسلام باعتباره عقيدة على الأقل، ولكنه يشكك أو يرتاب في الشريعة أو أحكام معينة من الشريعة. أما أن يكون الشخص ملحدًا لا يؤمن بالإسلام، لا يؤمن بالله ربا، ولا بالإسلام ديناً، ولا بالقرآن منهجاً، ولا بمحمد رسولا، بل لا يؤمن بالألوهية أصلاً، ولا بالرسالات السماوية، ولا بالوحي الإلهي، فكيف نلتقي مع مثل هذا الإنسان؟ وما هي الأرضية المشتركة بيننا وبينه؟

لو كانت الحلقة حواراً بين الإيمان والإلحاد لكان هذا مناسباً، أما أن يكون بين الإسلام والعلمانية فليس هذا هو الشخص المناسب. وذلك أني قرأت لهذا الشخص من قديم كتابه «نقض الفكر الديني» الذي ينقض فيه الفكر الديني، إسلامياً كان أو مسيحياً أو أي دين، وينكر الأديان جملة وتفصيلاً. وزادها بكتاب آخر سمّاه «ذهنية التحريم» أنكر فيه الأديان، ووقف فيه أمام كل مؤمن بالله.

ومع أنه رجل نصري من الناحية السياسية، فقد عاب على عبد الناصر أنه بعد حرب الخامس من حزيران - أو يونيو - 1967م بعث إلى الملك

حسين يقول له: إننا قوم نؤمن بالله، ونؤمن أن الله تعالى لن يتخلى عنا، ولعله يفتح علينا بنصر من عنده. عاب ذلك على عبد الناصر وقال: هذه رجعة إلى الوراء وانتكاسة، كيف يدخل الدين في هذه القضية؟!

فهذا رجل لا دين له، ولذلك كان اعتراضى على الرجل من أول الأمر.

إلحاح إخواني إثنائي عن الرفض:

ولكن الإخوة سامحهم الله قالوا: إننا ارتبطنا بالرجل، ولا بد من لقاء معه. وقد رشحت لهم عددًا من الإخوة الذين يمكنهم أن يحاوروه، ولكن يبدو للأسف أنهم لم يجدوا واحدًا ممن رشحتهم، واضطروا أن يعودوا إليّ، ويلحوا عليّ أن أشارك في هذا الحوار أو في هذه الحلقة. وأنا رجل أضعف أمام الإلحاد، واستجبت لهذا الأمر، وكان هذا اللقاء الذي شاهده وسمعه الكثير منكم، أو قرأ التعقيب عليه في الصحف المختلفة.

محاوّر لا يتحلّى بأدب الحوار:

المهم نحن لسنا ضعفاء، نحن مستعدون أن ننازل كل ملحد وكل مكابر، على أن يكون إنسانًا يعرف أدب الحوار وأدب الاختلاف. ولكن الرجل للأسف لم يكن يعرف أدب الحوار.

قلت له من أول الأمر: إن الإسلام يدعونا إلى الحوار بالتّي هي أحسن. في الموعظة اكتفي بأن تكون موعظة حسنة: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} [النحل: 125]. ولكنه في الجدل قال: {وَجِدْ لَهُم بِأَتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: 125]. وذلك أن الموعظة تكون مع الموافق، والجدل يكون مع المخالف.

تساؤلات لها أجوبة:

هناك تساؤلات: هل يقف الدين عائقًا عن تقدم المجتمعات الإسلامية؟ هل الإسلام سبب في التخلف الذي تعانيه أمتنا؟ هل تقدمت الأقطار التي تبنت العلمانية؟ هل نحن في حاجة إلى العلمانية أو هي أمر دخيل علينا من عند غيرنا؟ هذه أسئلة مهمة.

هل الدين عقبة أمام التقدم؟

الدين - وخصوصًا الإسلام - لا يقف عائقًا أبدًا أمام التقدم، بالعكس، الدين قوة هادية {وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: 11]، ينير الطريق للإنسان، يجعل الأمور أمامه واضحة، بحيث لا يتزعزع ولا يتزلزل، ولا يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.

الإنسان المؤمن المتدين عرف غايته، وعرف طريقه، فاستقام له الأمر، ومضى قدمًا إلى الأمام.

والإيمان قوة حافزة، تحفز الإنسان على الخير ... على العمل ... على الإنتاج، تجعله يتعبد لله بالعمل، يعتبر العمل في دنياه ... في معاشه ... في كسب رزقه ... في عمارة الأرض عبادة وجهادًا في سبيل الله.

هذا ما تحتاج إليه أمتنا.

الإيمان قوة حافزة، وقوة ضابطة أيضًا، تضبط سلوك الإنسان، تردعه عن الشر، تزرعه عن المنكرات، تجعله إنسانًا ملتزمًا لا يبيع ضميره، ولا يبيع شرفه، ولا يبيع وطنه، ولا يبيع قيمة من القيم بملء الأرض ذهبًا.

هذا هو الإيمان، هذا هو الدين.

الدين لا يقف عقبة أبداً، إلا الدين الخرافي. وهذا هو الذي حدث في أوروبا حينما كانت الكنيسة تتحكم في رقاب الناس وفي ضمائرهم. وقفت الكنيسة مع الملوك ضد الشعوب، ومع الاقطاعيين ضد الفلاحين، ومع الرأسمالية ضد العمال، مع الجمود ضد التحرر، مع الجهل ضد العلم، مع الظلام ضد النور، ولذلك ثار الناس عليها، وقالوا قولتهم الشهيرة: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس. لسنا في حاجة لا إلى الملوك، ولا إلى رجال الدين، هؤلاء أفسدوا الدنيا، وهؤلاء أفسدوا الدين. هذا ما حدث.

كان هناك محاكم التفتيش في أوروبا التي حاكمت العلماء، وأحرقت جثثهم، لأنهم اكتشفوا أشياء غير ما كان عليه العلم المعروف في الكنيسة... العلم المدرسي. «جاليليو» و«كوبرنيكس» وغيرهما اكتشفوا أشياء جديدة، هذه الأشياء الجديدة كانت عندنا نحن المسلمين. اكتشفوا أن الأرض كروية، وهذا أمر كان يدرسه طلاب المسلمين، ابن حزم في «الفصل في الملل والأهواء والنحل» يدل على كروية الأرض بعدة أمور⁽¹⁹³⁾، في كتب التوحيد مثل «شرح المواقف» في كتب التفسير مثل «تفسير الرازي» كانوا يتحدثون عن هذه الأمور وكأنها قضايا مسلمة. وكان الغربيون يعتبرون من وصل إلى هذه النتيجة «مهرطفاً» وملحداً وجاحداً للدين، ويستحق أن يعاقب. عاقبوا الناس حتى بعد موتهم، بعد أن ماتوا حاكموهم وأحرقوا جثثهم! وهذا ليس عندنا.

(193) انظر: «مطلب بيان كروية الأرض» في الجزء الثاني من «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (241 - 255)، تحقيق الدكتورين: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، نشر مكتبات عكاظ بالسعودية، ط1 (1402هـ - 1982م).

التدين المرفوض:

الدين الذي يقف عائقًا هو الدين الذي يتبنى الخرافات، يتبنى الجبرية في العقيدة، يتبنى الشركيات في التوحيد، يتبنى الشكلية في العبادة، والسلبية في الأخلاق، والمظهرية في الحياة، والسطحية في التفكير، والجمود في الفقه، هذا هو الذي يمكن أن يجمد الحياة، ونحن ضد هذا النوع من التدين، نحن نحارب هذا النوع من التدين.

التدين الذي يلغي شخصية الإنسان ويقول: المرید بین یدی الشیخ کالمیت بین یدی الغاسل، من قال لشیخه: لم؟ لا یفلح! - مع أن الصحابة كانوا یناقشون رسول الله صلی الله علیه وسلم فی كثير من آرائه ویقولون له: لیس الأمر كذلك یا رسول الله وإنما هو کذا وكذا⁽¹⁹⁴⁾.

التدين الذي يقول للناس إذا رأوا المنكر يستشروني، والفساد يتفاقم، والشر يستعلن وتستعلني: دعوا الملك للمالك، واتركوا الخلق للخالق، أقام العباد فيما أراد هذا النوع من التدين هو الذي يفسد الحياة ويدمرها.

(194) كما فعل الحباب بن المنذر حينما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبيل معركة بدر فقال: رأيت هذا المنزل، أنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل. ثم أشار عليه بمكان أفضل ليعسكر فيه المسلمون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد أشرت بالرأي» ثم أمر بإنقاذه. والأمثلة على هذا كثيرة. لكن مما ينبغي أن نلاحظه هو أن هذه المناقشة منحصرة في أمور دنيوية بحثة لا علاقة لها بالتشريع ولا مبنية على الوحي، فلا تكون دليلًا ولا يلزم اتباعها، ولهذا بوب الإمام مسلم لهذه المسألة في «صحيحه» فقال: «باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره صلى الله عليه وسلم من معاش الدنيا على سبيل الرأي».

التدين الحقيقي:

التدين الحقيقي هو الذي يعطي المؤمن القوة لمقاومة الباطل ... لمقاومة الطاغوت ... للوقوف في وجه الشر ... للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... لنصيحة أئمة المسلمين وعامتهم.

النبى عليه الصلاة والسلام يقول: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»⁽¹⁹⁵⁾.

«سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»⁽¹⁹⁶⁾.

«إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم فقد تودع منهم»⁽¹⁹⁷⁾.

(195) رواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري، وكذا أبو داود والترمذي، وفيه: عطية العوفي، ضعفه. ورواه أحمد والطبراني في «الكبير» والبيهقي في «الشعب» عن أبي أمامة الباهلي، قال البيهقي: وإسناده لين، وقال: وله شاهد مرسل بإسناد جيد، ثم ساقه عن الزهري بلفظ: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر». ورواه أحمد والنسائي والبيهقي في «الشعب»، والضياء عن طارق بن شهاب، قال في «الرياض»: رواه النسائي بإسناد صحيح، وكذا قال المنذري فالمتن صحيح. «فيض القدير» للمناوي (30/2 - 31) برقم (1246). رواه أحمد (18828) عن طارق بن شهاب، وقال مخرجه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (7582)، والبيهقي في «الكبرى» (7834).

(196) رواه الحاكم والديلمي والضياء المقدسي عن جابر بن عبد الله، قال الحاكم: صحيح. وتعقبه الذهبي بأن فيه «حفيد الصغار» لا يدري من هو. وعند الطبراني عن ابن عباس، قال الهيثمي: وفيه ضعف. «فيض القدير» للمناوي (121/4 برقم 4747). ولكن الشيخ الألباني صححه من طريق رواها الخطيب في «تاريخه». انظر: «الصحيحة» رقم (374).

(197) رواه أحمد في «المسند» (6776، 6784) عن عبد الله بن عمرو، وقال محققو

«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» (198).

هذا هو الذي جاء به الإسلام.

في القنوت ... قنوت ابن مسعود المعروف في المذهب الحنفي، من ضمن عباراته: «نشكرك اللهم ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك». انظروا إلى هذه الألفاظ: «نخلع ونترك من يفجرك»، هذا هو الإسلام.

ما هو التقدم الذي يريدون؟ التقدم المادي؟

الإسلام والتقدم:

الإسلام يُعنى بالتقدم المادي، والتقدم الروحي، التقدم الحسي، والتقدم المعنوي.

التقدم المادي أساس العلم، والإسلام يعتبر كل علم نافع فريضة على الأمة، ينبغي أن تتفوق الأمة في كل العلوم بحيث لا تكون عالية على غيرها، وبحيث تكتفي اكتفاء ذاتيًا فيما يتعلق بالعلوم والتكنولوجيا. ولذلك قال علماءنا من قديم: إن تعلم الطب والهندسة والرياضيات وغير ذلك فرض كفاية على

«المسند»: إسناده ضعيف لانقطاعه، وصححه الشيخ شاکر، ودافع عن تصحيحه دفاعاً بليغاً، وقال الهيتمي: رواه أحمد والبيزار بإسنادين رجال إسنادهما رجال الصحيح (262/7)، ورواه الحاكم (96/4)، وصححه ووافقه الذهبي.

(198) رواه أحمد (1) عن أبي بكر، وقال محققوا «المسند»: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ورواه أبو داود في الملاحم (4338)، والترمذي في التفسير (3059)، وابن ماجه في الفتن وبنحوه (4005)، وقال النووي في «الأذكار» و «الرياض»: أسانيده صحيحة.

الأمة، وكذلك تعلم الصناعات.

ومعنى هذا أن الإسلام يفرض على الأمة، بالتضامن، أن تكون أمة قوية: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: 60]. كيف تعد الأمة ما استطاعت من قوة؟ تعد نفسها علمياً وتكنولوجياً، هذه فريضة على الأمة.

العلم عندنا ليس مقابل الدين، الفكر ليس مناقضاً للإيمان، الحكمة ليست مناقضة للشريعة، هذا في أديان أخرى، أما عندنا فهناك تأخي بين هذه القيم بعضها وبعض، الدين عندنا علم، والعلم عندنا دين.

وقد رأينا كثيراً من علمائنا أئمة في علوم الدين: الفقه والتفسير ونحو ذلك، وأئمة في علوم أخرى⁽¹⁹⁹⁾. كان الفخر الرازي إماماً في التفسير، وفي الفقه، وفي أصول الفقه وله كتبه المعروفة، وقالوا: كانت شهرته في الطب لا تقل عن شهرته في التفسير والفقه وأصول الفقه.

ابن النفيس الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى، كان من فقهاء الشافعية، ترجم له ابن السبكي في كتابه «طبقات الشافعية».

كذلك وجدنا العلامة ابن رشد أعظم شارح لأرسطو، وبعض مؤرخي الفلسفة اعتبره أعظم فيلسوف إسلامي على الإطلاق، وهو طبيب شهير له كتاب «الكليات في الطب» انتفعت به أوروبا عدة قرون وترجموه إلى اللاتينية، وهو كذلك فقيه مالكي من أعظم الفقهاء، وكان قاضياً شرعياً، وله كتابه الشهير «بداية المجتهد ونهاية المقتصد».

(199) انظر كتاب فضيلة الشيخ «تاريخنا المفترى عليه» فصل «تاريخ له مآثر ومفاخر» (ص125).

ليس عندنا صراع بين الدين والعلم كما عرف ذلك في تاريخ أوروبا(200).
إن كانوا يريدون التقدم العلمي، فالإسلام يرحب بالتقدم العلمي، ويعتبره
فريضة على الأمة الإسلامية في مجموعها.

الإسلام والتقدم الاقتصادي:

إن كانوا يريدون التقدم الاقتصادي، فالإسلام يفسح المجال للاقتصاد.
تعاليم القرآن والسنة جاءت تدعو إلى زيادة الانتاج، وإلى ترشيد الاستهلاك،
وإلى سلامة التداول، وإلى عدالة التوزيع، وتجند الأمة تجنيداً لترتفع
بمستواها.

لم يعتبر الإسلام المال كما اعتبرته المسيحية: «لا يدخل الغني ملكوت
السماوات حتى يدخل الجمل في سم الخياط» كما رُوي عن المسيح. لا، ليس
في الإسلام هذا. حكوا أن رجلاً جاء إلى المسيح عليه السلام يقول: أريد أن
أؤمن بك وأتبعك، قال له: اذهب فبع مالك واتبعني! لم يقل الإسلام ذلك، بل
قال: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»(201)، وقال: «ما نفعني مال قط
ما نفعني مال أبي بكر»(202)، وكان عليه الصلاة والسلام يدعو الله فيقول:

(200) انظر: رسالة «الدين في عصر العلم» - أو الفصل الأول من كتاب «بيانات الحل
الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين» لسماحة العلامة القرضاوي - نشر مكتبة
وهبة بالقاهرة.

(201) جزء من حديث رواه أحمد (17763، 17764) عن عمرو بن العاص، وقال
مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. ورواه ابن حبان (3210)، والطبراني في
«الأوسط» (3213)، والحاكم (236/2).

(202) جزء من حديث، وتامه «فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟»
رواه أحمد (7446، 8790) عن أبي هريرة، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط

«اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»⁽²⁰³⁾، وامتن عليه ربه فقال: {وَوَجَدَكَ عَانِلًا فَأَعْنَيْ} [الضحى: 8] أي وجدك فقيرًا فأغناك. وكان يستعيز بالله من الفقر والكفر⁽²⁰⁴⁾، أي يعتبر الفقر مصيبة يستعاذ بالله من شرها. هذا ما جاء به الإسلام.

فإذا كان التقدم يعني التقدم الاقتصادي فأهلاً وسهلاً به، الإسلام يرحب بذلك ويدعو إليه، ويحارب الفقر بكل وسيلة، وأول الوسائل: العمل ... تجنيد الأمة لتعمل ... لتنتج، لا تعيش أمة مستهلكة، لا تعيش مستوردة وغيرها يصدر إليها كما هو الحال في بلادنا نحن المسلمين، نستورد الأقوات، ونستورد السلاح، ونستورد الصناعات الثقيلة، وهكذا⁽²⁰⁵⁾.

نحن نقول: التقدم لا يقف الدين عائقاً أمامه.

الإسلام والتقدم الصحي:

إن كانوا يريدون تقدم الصحة، فالإسلام يريد أمة سليمة الأجسام، قوية الأبدان: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»⁽²⁰⁶⁾.

الشيخين، ورواه النسائي في «الكبرى» (8110)، وابن حبان (6858).

(203) رواه مسلم في الذكر والدعاء (2721) عن ابن مسعود.

(204) رواه أحمد (20409) عن أبي بكر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في دبر كل صلاة: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، وعذاب القبر» وقال مخرجو «المسند»: إسناده قوي على شرط مسلم، ورواه ابن أبي شيبة (374/3)، والبزار (3675)، والنسائي في «المجتبي» (73/3).

(205) انظر: فصل «القيم والأخلاق في مجال الإنتاج» وفصل «القيم والأخلاق في مجال الاستهلاك» من كتاب «دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي» لسماحة الشيخ القرضاوي. نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

(206) رواه مسلم في القدر (2664) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ولأول مرة في جو الدين يسمع الناس هذه الكلمة «فإن لجسدك عليك حقاً»⁽²⁰⁷⁾، الناس كانوا يسمعون: «إن لربك عليك حقاً» إنما أن يكون للبدن حق على الإنسان فأول مرة يسمعون هذا.

ومن حق هذا البدن عليك أن تطعمه إذا جاع ... أن تريحه إذا تعب ... أن تنظفه إذا اتسخ ... أن تداويه إذا مرض فـ «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء»⁽²⁰⁸⁾ «عرفه من عرفه وجهله من جهله»⁽²⁰⁹⁾ ... أن تحافظ عليه وتقيه من الأمراض فـ «الوقاية خير من العلاج»، فهذا حق البدن.

الإسلام جاء يدعو إلى أن يحافظ الناس على صحتهم بالعلاج، وبالوقاية قبل العلاج، ومن هذه الوقاية: النظافة ... الطهارة التي هي شرط في صحة الصلاة، وأول ما يدرس المسلم في كتب الفقه: كتاب الطهارة.

الإسلام يريد الإنسان النظيف، النظيف مادياً، والنظيف معنوياً، ويقول صلى الله عليه وسلم : «حق الله على كل مسلم: أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً يغسل فيه رأسه وجسده»⁽²¹⁰⁾، على الأقل كل أسبوع مرة، هذا هو الحد الأدنى. والمسلم تعتريه أشياء طبيعية توجب عليه الاغتسال وتوجب عليه الوضوء كلما أراد الصلاة أو أحدث.

(207) قطعة من حديث رواه البخاري في الصوم (1975) عن عبد الله بن عمرو.

(208) رواه البخاري في الطب (5678) عن أبي هريرة.

(209) جزء من حديث رواه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود، وأوله: «ما من داء إلا

وله دواء» قال العراقي: وإسناده حسن، وللترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك

«إلا الهرم». انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي بتخريج العراقي (284/4).

(210) رواه البخاري في الجمعة (896)، ومسلم في الجمعة (849) عن أبي هريرة.

جاء الإسلام يحافظ على الأمة، وينهاهم عن التبول والتبرز في الطرقات، وفي الظل، وفي موارد المياه، وغير ذلك⁽²¹¹⁾، واعتبر ذلك مما يجلب اللعنة. ونهى عن المسكرات والمخدرات⁽²¹²⁾، وتناول كل ما يضر ببدن الإنسان، فإن الإنسان لا يجوز له أن يقتل نفسه {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: 29]. هذا ما جاء به الإسلام.

الإسلام والتقدم العسكري:

إن كانوا يريدون التقدم العسكري والقوة العسكرية، فالإسلام قال: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: 60] {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ} [الحديد: 25] بأس شديد، إشارة إلى الصناعات الحربية ومنافع للناس: إشارة إلى الصناعات المدنية، واعتبر من يصنع السهم مثل الذي يرمي به، هو شريك في الأجر، ويعتبر من المجاهدين.

الصناعة الحربية نوع من الجهاد، لأنه لا جهاد إلا بأسلحة. وإذا كنت لا تصنع السلاح فسوف تضطر إلى أن تستورده من عدوك كما هو حالنا اليوم. لا نملك الأسلحة وإنما نشترها، يعطينا غيرنا ما لا يحتاج إليه من الأسلحة بعد أن ينفد وقتها يتخلص منها ببيعها لنا.

الإسلام يعطينا كل ما يحتاج إليه التقدم، الإسلام يعطينا الحوافز للوصول إليه، ويعطينا المناهج الصحيحة للوصول إليه بطريق صحيح، فلا يمكن أن

(211) ذكرت عددًا من الأحاديث الدالة على هذه المسائل في هامش الصفحتين (23، 24)

من الجزء الرابع من هذه السلسلة «خطبة: الرياضة في الإسلام».

(212) انظر خطبتي: «اليوم العالمي لمكافحة المخدرات» و«الشباب ووباء المسكرات» في

الجزء الرابع من هذه السلسلة.

يكون الدين عائقاً في طريقنا إلى التقدم.

بالعكس، الذين يريدون أن يفرغوا أمتنا من الجانب الديني، يريدون أن تدخل معركتها مع أعدائها خاوية ضعيفة رخوة العود.

اليهود يجندون الدين في المعركة معنا. ما الذي جمع اليهود من الشرق والغرب، ومن الشمال والجنوب؟ لقد عاشوا في أوطان مختلفة، وبيئات مختلفة، جمعوهم على أساس التوراة والتلمود، جمعوهم على أساس العقيدة الدينية، ودفعوهم للمعركة من أجل هدف ديني هو: أرض الميعاد. فكيف نرضى أن يستغل العدو الدين في المعركة ضدنا ونحن نطرد الدين من حياتنا ونريدها علمانية صريحة؟ لحساب من هذا؟ ليس لحساب أحد إلا لليهود ومن وراء اليهود.

اليهود يدخلون المعركة ومعهم التوراة، ونحن ندخلها وليس معنا القرآن، يقولون: موسى، ولا نقول: محمد، مع أننا أولى بموسى منهم، يعظمون يوم السبت، ونحن لا نعظم يوم الجمعة، يقولون: الهيكل، ولا نقول: المسجد الأقصى!.

من هو عدو الأمة؟ عدو الأمة هو الذي يريد أن يفرغ هذه المعاني من ضمير الأمة، لتدخل الأمة المعركة مجردة من أسلحتها الحقيقية ... سلاح الإيمان.

تجربتان معاصرتان مع الدين:

نحن جربنا معركتين:

1 - معركة (5 يونيو 1967م)، وبالأمس كانت ذكراها، مرت ثلاثون سنة

على هذه الذكرى الأليمة الحزينة، يسمونها معركة الأيام الستة، والحقيقة أنها معركة الساعات الست، لأن الساعات الست الأولى بينت نتيجة المعركة، انكشف كل شيء. كان شعار هذه المعركة «بر ... بحر ... جو»، ولم تنتصر في بر ولا بحر ولا جو، لأننا لم نجد جنودنا تحت اسم «الله»، لم نقذف في قلوبهم شرارة الإيمان. كنا نقول لهم: حاربوا ووراءكم فلانة المطربة، وفلان المطرب، وفلانة الممثلة، ويوزعون عليهم صور المطربين والمطربات والممثلين والممثلات. لم يوزعوا عليهم المصاحف، لم يقولوا: «لا إله إلا الله»؛ كما قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأنفال: 45].

هكذا ينبغي أن نعلم أبناءنا إذا خاضوا المعركة، أن يذكروا الله، أن يقولون: «اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».

كان الواجب أن يتطلعوا إلى السماء، ولكنهم علموهم أن يتطلعوا إلى كل جهة إلا إلى جهة السماء ... إلا إلى الله عز وجل . فكانت النتيجة أن حدث ما حدث: هزيمة سموها «نكسة»، وضياع سيناء والضفة الغربية والجولان.

هكذا كانت النتيجة.

وأصبحت السياسة العربية وقد تغيرت تمامًا، بعد أن كانت قبل ذلك تقول: إزالة إسرائيل هي الهدف، بعد عدوان (5 حزيران 1967) لم يعد الهدف إزالة إسرائيل، وإنما «إزالة آثار العدوان»! كأن العدوان الجديد أضفى

الشرعية على العدوانات القديمة فأصبحت مقبولة، وأصبح ما أخذت إسرائيل من قبل حلالاً زلاً لها. «حيفا» و «يافا» و «عكا» و «اللد» و «الرملة» وغيرها أصبحت ملكاً خالصاً وحقاً لها بهذا الاعتراف: إزالة آثار العدوان!

2 - معركة (6 أكتوبر 1973م) أو (العاشر من رمضان سنة 1393هـ)، أنا أفضل أن أسمى هذه المعركة: معركة العاشر من رمضان، لأن رمضان كانت له نفعاته وإيحاءاته. في هذه المعركة حدث شيء آخر، الجنود دخلوا المعركة تحت شعار «الله أكبر». الله أكبر فعلت فعلها: عبروا القناة، اقتحموا خط بارليف، وصلوا إلى القنطرة، وكان يمكن أن يصلوا أكثر وأكثر.

إن أمتنا لا يمكن أن تُجند إلا تحت لواء الإيمان ... تحت راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله». أمسك بالمصحف وقُد هذه الأمة تنقاد وراءك، وتفعل الأعاجيب، وتتخطى المستحيلات.

كل أمة لها مفتاح لشخصيتها كمفتاح السيارة، لا تستطيع أن تقود سيارة بمفتاح سيارة أخرى، إنما كل سيارة لها مفتاح خاص، ومفتاح أمتنا: الدين ... الإيمان ... أن نجندها ونفجر طاقاتها المكنونة باسم الله.

حينما تقول لها: يا رياح الجنة هبي، ويا خيل الله اركبي، ويا كتائب الله سيرى، ستجد هذه الأمة وقد تحولت إلى فرسان ... إلى أبطال. الإنسان العادي يصبح بطلاً لأن الإيمان سار في أعماقه، وخالط بشاشته قلبه، فتحول إلى إنسان آخر، كما رأينا الصحابة رضوان الله عليهم.

كيف أنشأ الإسلام الحضارة العربية؟

ما الذي غير الصحابة؟ ما الذي أنشأهم خلقاً آخر؟ كانوا يعبدون الأصنام، ويشربون الخمر، ويعيشون في اللهو واللعب، فجاء الإسلام فغيرهم، صبت في عروقهم الإيمان الصحيح ... التوحيد ... أن لا إله إلا الله ... لا يستحق العبادة إلا الله ... لا يُرجى ولا يخشى إلا الله ... لا يخضع له ولا يُذل له إلا الله، فأنشأ من هؤلاء أمة جديدة.

العرب لم تكن لهم فلسفة اليونان، ولا قانون الرومان، ولا تمدن الفرس، ولا حكمة الهند، ولا صنعة الصين، كانوا أمة بيان وبلاغة، لم يكن عندهم ما عند تلك الأمم، كانت تغلب عليهم الأمية والبداءة. ما الذي نفخ في هذه الأمة الروح وجعلها في أقل من قرن تمتد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً؟ وصلت إلى الصين شرقاً ووصلت إلى إسبانيا «الأندلس» غرباً، وأصبحت أمة ضخمة أقامت دولة العدل والإحسان، وحضارة العلم والإيمان. ما الذي فعل ذلك؟ إنه الإسلام.

يقولون: هل للإسلام علاقة بتخلف الأمة؟ لا والله، ولو كان للإسلام علاقة بالتخلف الذي نعانيه ما تحضرت أمتنا من قبل، كانت هي أمة الحضارة الأولى. نحن الآن يقولون عنا: «العالم الثالث»، وربما كان بعضنا في العالم الرابع لو كان هناك عالم رابع!

كنا نحن العالم الأول، وكانت حضارتنا هي الحضارة السائدة في العالم كله، منها يتعلم الناس، جامعاتنا هي موئل الطلاب في العالم، كتبنا وكتب علمائنا هي المراجع، لغتنا العربي هي لغة العالم. هكذا كنا قرونًا، ليس قرنًا

ولا قرنين ولا ثلاثة، قرونًا عدة ونحن في الصف الأول، ونحن أساتذة الحضارة، منا تعلم الأوروبيون، أخذوا المنهج العلمي التجريبي منا وطبقوه وتخلفنا بعد ذلك، تقدموا وتخلفنا، واستيقظوا ونمنا، ونشطوا وقعدنا.

نحن عندنا من الحوافز، وعندنا من القيم، وعندنا من المناهج، ما يمكن أن يعيدنا إلى ما كنا فيه مرة أخرى، ولسنا في حاجة إلى العلمانية قط.
التناقض بين العلمانية والإسلام:

العلمانية حلت مشكلة عند الغربيين، ولكنها هي نفسها مشكلة عندنا، لأنها تجعل المسلم في صراع بين عقيدته ومجتمعه، بين ما يؤمن به وما يعيشه. المسلم يعتقد أن الله أنزل القرآن حكمًا في كل شيء {وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [المائدة: 49]. لا يجوز أن يترك بعض ما أنزل الله حتى لا نكون كبني إسرائيل الذين قال الله فيهم: {أَفْتُونُونَ بَعْضُ الْكُتُبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: 85]. فالمسلم الذي يعيش في دولة علمانية تأخذ ببعض الكتاب وتدع بعضاً، تؤمن ببعض وتكفر ببعض، يعيش في صراع دائم وفي قلق مستمر بين ما يؤمن به وبين ما يعايشه ويشاهده. فالعلمانية مشكلة وليست حلاً لمشكلة في ديارنا.

يمكن للمسيحي أن يقبل العلمانية لأن المسيح قال له: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله⁽²¹³⁾. قبل قسمة الحياة وقسمة الإنسان. أما الدين عندنا فلا يقبل هذه

(213) وهذا الكلام المنسوب إلى المسيح عليه السلام على فرض صحته، فإن أقصى ما

القسمة، الإنسان وحده، والحياة وحدة.

قد نقسم الإنسان نظرياً إلى جسم وروح، وعقل وعاطفة، ولكنه شيء واحد، والحياة نهر واحد ونسيج واحد، ما يؤثر في جانب منها يؤثر في الجانب الآخر، ولذلك عندنا: قيصر وما لقيصر الله الواحد الأحد. لا يقبل الإسلام شريكاً مع الله، لا قيصر ولا كسرى ولا أحد، الله هو مالك هذا الكون كله، ومدبر هذا الكون كله، وحاكم هذا الكون كله، وهو الذي يأمر وينهى، ويشرع ويحل ويحرم {لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} [يونس: 66]، {وَاللَّهُ مِيرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} [آل عمران: 180]. {وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} [آل عمران: 189].

تركيا نموذج (214):

فالعلمانية في بلادنا تكون مشكلة ولا تحل مشكلة.

يمكن أن يدل عليه - كما يرى الأستاذ محمد قطب هو أنه يقول لهم: إننا لم نؤمر الآن بقتال قيصر، فإذا فرض عليكم الجزية ولا قبل لكم اليوم برد سطوته عنكم، فادفعوا له الجزية حتى يأتي اليوم الذي يؤذن لكم فيه بالقتال لإخضاع قيصر لشريعة الله، ولكن الكنيسة حملت هذا الكلام - على فرض صحته - فوق ما يحتمل وزعمت أن معناه أن من حق قيصر أن يحكم عالم الأرض على أن يحكم الله عالم السماء، أو أن الأبدان لقيصر يفعل ما يشاء في الحياة الدنيا، والله الأرواح في الآخرة. وهكذا سمحت للعالم المسيحي أن يحكمه القانون الروماني في كل شئونه، وأن ينحصر سلطان الله على عباده في الشعائر التعبدية والأحوال الشخصية. وتم بذلك فصل العقيدة عن الشريعة، وتم المسخ الكامل لدين الله. انظر «مذاهب فكرية معاصرة» لمحمد قطب (ص 16، 17).

(214) للمزيد من معرفة ما قامت به العلمانية في تركيا، راجع ما ذكر فضيلة الشيخ في كتابه: «التطرف العلماني في مواجهة الإسلام» فصل «العلمانية المتطرفة: النموذج التركي» طبعة أندلسية للنشر والتوزيع. المنصورة. مصر.

وقد رأينا البلاد التي تبنت العلمانية ماذا فعلت؟ أول بلد تبني العلمانية «تركيا»، ولم يرضى بذلك الشعب التركي. الشعب التركي قاوم وقدم الآلاف وعشرات الآلاف من الضحايا والشهداء، ولكن انتصرت العلمانية التي كانت مؤيدة من القوى الغربية والقوى الصليبية، انتصرت بالحديد والنار ... بالعنف والدم، وفرضت نفسها على الشعب التركي، وألغت تراث هذا الشعب، حالت بينه وبين تراثه الذي كان مكتوبًا بالحروف العربية. كانت التركية مثل الفارسية ومثل الأردية ومثل كثير من اللغات الإسلامية في آسيا وإفريقيا، كانت مكتوبة بالحرف العربي، ألغوا الحرف العربي، فأصبح هناك حاجز متين بين الأجيال الجديدة وبين هذا التراث، لا يستطيعون أن يقرأون ولا يعرفون.

حرموا على المسلمة أن ترتدي الحجاب، ولا زال هذا إلى اليوم، حرم ذلك أتاتورك وأصدر قانونًا يمنع المسلمة أن تلبس الحجاب، لم يجعلوا هذا من الحرية الشخصية.

حرموا على المشايخ أن يلبسوا العمامة والجبّة، خطباء المساجد كان لكل منهم عمامة وجبّة، يلبسها في المسجد، فصاروا لا يستطيعون أن يخرجوا بها إلى الشارع، القانون يمنع هذا.

حرموا الأذان باللغة العربية، حتى كلمة «الله أكبر» هذه منعوها باللغة العربية. ولم يُبح ذلك إلى في الستينات، حينما جاءت حكومة «عدنان مندريس» رحمه الله وغفر له، فأعاد الأذان باللغة العربية، وسمع الناس بعد سنين طويلة لأول مرة من المآذن «الله أكبر الله أكبر» فخرّوا سجودًا في الشوارع شكرًا لله عز وجل .

وجاء عدنان مندريس وسمح ببعض الأنشطة الدينية منها: إنشاء المدارس القرآنية... مدارس تحفيظ القرآن، وإنشاء مدرسة أو اثنتين لتخريج الأئمة والخطباء. عمل بعض الانفتاح فكانت النتيجة أن قام الجيش وانقلب عليه، وأخذه وأعدمه وأخفى قبره عن الناس.

وهذا الجيش هو الذي يقاوم التوجه الإسلام اليوم، الجيش التركي هو حامي حمى العلمانية - أتاتورك الذي مات من عشرات السنين يحكم تركيا من قبره - ويرفض توجه الشعب إلى الإسلام، والمعركة قائمة اليوم بين التوجه الإسلامي والتوجه العلماني، التوجه العلماني يؤيد الجيش وتأييده من ورائه القوى الغربية وتأييده إسرائيل والصهيونية.

فشل الأنظمة المستوردة في بلادنا:

هل نحن نرحب بهذه العلمانية؟ العلمانية التي تتعاون مع إسرائيل عدو الإسلام والمسلمين، ومع الصهيونية المغتصبة المعتدية ضد الفلسطينيين وضد العرب وضد المسلمين وضد المسجد الأقصى، من يرحب بالعلمانية هذه؟ وماذا كسبت تركيا من وراء العلمانية؟ لم تكسب شيئاً. قالت كاتبة تركية حليفة هذه الكلمة: كنا أول دولة في الشرق فأصبحنا آخر دولة في الغرب! أي أصبحنا ذليلاً للغرب، حتى الغرب في بعض الأحيان لا يعترف بها ويقول: إن تركيا لها حضارة غير حضارتنا - رغم ارتمائها في أحضان الغرب وسيرها في ركابه - وثقافة غير ثقافتنا.

هذه الأمة مفتاح شخصيتها الإسلام:

إن الأمة الإسلامية لا ينفعها أن تتبنى العلمانية، بالعكس، العلمانية شر

عليها وخطر على مادياتها ومعنوياتها. هذه الأمة أمة مسلمة، مفتاح شخصيتها الذي يحركها ويفجر طاقاتها ويستخرج مكنونات إبداعاتها هو الإسلام. حركها بالإسلام تتحرك، قُدها بالإسلام تنقد، الإسلام وحده هو الجدير بتحريك هذه الأمة وتجنيدها، والخروج بها من مآذق التخلف الذي تعانيه.

للأسف كل الأمة الإسلامية تقريبًا في دائرة البلاد النامية. هناك بلاد بدأت تنهض مثل ماليزيا وأندونيسيا، ولكن لا زلنا في الجملة في دائرة البلاد النامية، والبلاد النامية - كما قلت لكم من قبل - تعبير مؤدب مهذب للبلاد المتخلفة، ولا يخرجنا من هذه الدائرة إلى دائرة أعلى إلا إذا عدنا إلى هويتنا الحقيقية، وعرفنا من نحن؟ نحن مسلمون، لا يمكن أن نعيش بغير الإسلام، الإسلام هو هويتنا، هو انتماؤنا، هو محور حياتنا هو أساس وجودنا، لا مبرر لوجودنا إلا بالإسلام.

إذا تبيننا الرأسمالية وانتصرنا فلم ننتصر نحن، الرأسمالية الغربية هي التي انتصرت. إذا تبيننا الاشتراكية وانتصرنا فليس هذا انتصارًا لنا، هو انتصار للاشتراكية العالمية. إنما ننتصر إذا انتصرنا بالإسلام وللإسلام.

لا بد لأمتنا أن تتبنى هذا الدين ولا شيء غيره، وقد قالها إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

وبماذا صلح أول هذه الأمة؟ بالتمسك بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالإسلام الأول، الإسلام الذي لا يضاف إلى عصر من العصور، ولا إلى دولة من الدول، ولا إلى شخص من الأشخاص، لا يُضاف

إلا إلى القرآن والسنة.

الإسلام الأول هو أساس حياتنا، ومبرر وجودنا، وأساس نهضتنا وتقدمنا، فإذا اعتصمنا به فقد اعتصمنا بالحبلى المتن وهدينا إلى الصراط المستقيم.

أقول قولي هذا، واستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يسبح له ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. وأشهد أن سيدنا وإمامنا، وأسوتنا وحبیبنا محمداً عبد الله ورسوله، البشير النذير والسراج المنير، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته واهتدى بسنته وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها خيراً إلا استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر.

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم افتح لنا فتحًا مبينًا، واهدنا صراط مستقيمًا، وانصرنا نصرًا عزيزًا، وأتم علينا نعمتك، وأنزل في قلوبنا سكينتك، وانشر علينا فضلك ورحمتك، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم انصرنا على اليهود المعتدين الغادرين، اللهم انصرنا على الوثنيين المتعصبين، اللهم انصرنا على الصليبيين الحاقدين، اللهم انصرنا على الملاحدة الجاحدين، اللهم انصرنا على الطغاة الجبارين، اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم. اللهم رد عنا كيدهم، وقُل حدهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين، وخذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر يا رب العالمين.

اللهم انصر إخوتنا المجاهدين في سبيلك، اللهم انصر إخوتنا في فلسطين وفي لبنان، وانصر إخوتنا في كشمير وفي السودان، وانصر إخوتنا في الفلبين وفي كل مكان.

اللهم اجمع كلمة المختلفين من هذه الأمة على الهدى، وقلوبهم على النقى، ونفوسهم على المحبة، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيمننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا.

اللهم اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين.

اللهم لا تهلكننا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا.

{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147].

عباد الله: يقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56].

{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

(14)

معركة الإسلام والعلمانية⁽²¹⁵⁾

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

أمتنا اليوم - ومنذ سنين وعقود - تخوض أخطر معاركها الفكرية. أخطر المعارك الفكرية التي تخوضها أمتنا في مشرق ومغرب هي معركة الإسلام والعلمانية.

العلمانية تعني: فصل الدين عن الحياة، عزل الدين عن المجتمع والدولة، حصر الدين في ضمير الفرد، فإن خرج فإلى المسجد، ولكنه ليس حرًا طليقًا في المسجد يقول ما يشاء على المنبر.

كيف تسللت العلمانية إلى ديارنا:

الإسلام والعلمانية ضدان لا يلتقيان، ولهذا كانت المعركة بينهما أطول المعارك زمنًا، وأعمقها تأثيرًا، وأوسعها ميدانًا، وأكثرها ضحايا. منذ أن دخل الاستعمار إلى بلاد المسلمين وهذه المعركة قائمة.

ظل المسلمون يحكمون شريعتهم ويرجعون إليها في شئونهم، القاضي يحكم بالشريعة، والمفتي يفتي بالشريعة، والمسلم يعمل في خاصة نفسه وأهله بالشريعة، والتعليم في الكتاتيب والجوامع والمدارس يمضي على الشريعة،

(215) ألقيت في جامع عمر بن الخطاب. بالدوحة في 8 صفر 1417 هـ - 1997/6/13.

والتقاليد في الحياة الاجتماعية تحكمها الشريعة، حتى دخل الاستعمار بلاد المسلمين فعزل الإسلام عن الحياة، وجاء بقوانين من بلاده الأجنبية الغربية وحكمها في أعناق المسلمين، وأخضع التعليم لتأثيرات ومفاهيم غير إسلامية.

في مصر كان الذي يقود التعليم ويضع فلسفته ومناهجه: قسيس معروف اسمه «دنلوب»، كان وراء العملية التعليمية كلها. التقاليد أصبحت تتغير، بعد أن كانت المرأة المسلمة تلبس الملابس المحتشمة بدأت الطبقات العالية أو الارستقراطية كما يسمونها يقلدون الخواجات، والآخرون يقلدون هذه الطبقات، وهكذا بدأت الحياة تتغير بهذا المنهج التعليمي الجديد.

وهناك آخرون لم تكن بلادهم مستعمرة، ولكنهم فرضوا على قومهم العلمانية، كما في تركيا.

كانت تركيا دولة الخلافة، وكانت الخلافة العثمانية تمثل آخر تجمع للمسلمين تحت راية العقيدة، على ما كان بهذه الخلافة من مأخذ ونقاط ضعف وعيوب لا ننكرها، ولكنها كانت تقف سداً منيعاً أمام الاستعمار وأمام الصهيونية. رفض السلطان عبد الحميد أن يفرط في شبر من أرض فلسطين لليهود، وقد جاؤوا بملايين الجنيهات الذهبية، بعضها لشخصه وبعضها للدولة، ولكن الرجل أبى أن يفرط في شبر من أرض فلسطين لليهود.

تطرف العلمانية التركية:

ثم جاء كمال أتاتورك الذي انتصر بقوة المسلمين من ناحية، وبتأمر الحلفاء من ناحية أخرى، فقد كانوا يتنازلون له ويتراجعون لأنهم يعلمون أنه مكسب للغرب. وانتهت الحرب معهم، وكانت النتيجة إلغاء الخلافة

الإسلامية، وإلغاء الشريعة الإسلامية، وإلغاء التعليم الإسلامي، وإلغاء التقاليد الإسلامية، وإلغاء الحروف العربية التي كانت تكتب بها اللغة التركية.

حتى التقاليد ألغوها، لا يسمح لإنسان أن يلبس الطربوش وهذه حرية شخصية، لا يسمح لامرأة أن تلبس الحجاب وهذه حرية شخصية وفريضة دينية، لا يسمح لشيخ أن يمشي في الشارع يلبس جُبّة وعمامة وهذه حرية شخصية.

وهكذا فرضت العلمانية التركية التقاليد الأجنبية والقوانين الأجنبية، حتى الأحوال الشخصية - التي بقيت في كثير من بلاد المسلمين تمثل الجانب الإسلامي الشرعي في الناحية القانونية ... الزواج والطلاق والميراث والأسرة وهذه الأشياء - لم تنق في تركيا للمسلمين.

حُرّم تعدد الزوجات، حُرّم الطلاق، سوى بين الذكر والأنثى في الميراث، أجاز للمسلمة أن تتزوج بغير المسلم! الأمور القطعية التي لا تجوز في الإسلام بحال من الأحوال والمعلومة من الدين بالضرورة أنكرتها العلمانية التركية، فهي علمانية مرتدة من غير شك.

مبررات فرض العلمانية في بلادنا:

بماذا بررت العلمانية التركية موقفها؟ أصدرت تقريراً قالوا فيه ما خلاصته: إن الحياة متغيرة والدنيا متطورة والإنسان يتغير من وقت إلى آخر، ولكن الدين والشريعة ثابتة، ولا يمكن أن نعالج الحياة المتغيرة المتطورة بشريعة ثابتة جامدة، ولهذا ينبغي أن يظل الدين بين الإنسان وربه، وأن تحكم الحياة بقوانين يضعها الناس لأنفسهم، أو يستوردونها ويقتبسونها

من غيرهم، وبهذا تمضي الحياة!

هل هذه قضية صحيحة؟ لا، ليست الحياة كلها متغيرة، وليست الشريعة كلها ثابتة، القضيتان خاطئتان. الحياة فيها جزء ثابت وجزء متغير، والإنسان فيه جزء ثابت وجزء متغير، والكون فيه جزء ثابت وجزء متغير، فالدعوة بأن الحياة والدنيا والكون كله متغير دعوة غير مسلمة وغير صحيحة.

نحن في هذا الكون هناك أشياء ثابتة لا تتغير: الشمس والقمر والنجوم والأرض وسنن الله في الكون، هذه أشياء نعيش عليها وعاش عليها أجدادنا وعاش عليها الناس منذ آلاف السنين، ولكن هناك أشياء تتغير: هناك أراض خضراء تتصحر وهناك أراض صحراوية تخضر، هناك جزء تنشأ وجزر تذهب، هناك أشياء متغيرة، إنما جوهر الكون ثابت. الحياة فيها أشياء ثابتة وأشياء متغيرة، والإنسان فيه أشياء ثابتة وأشياء متغيرة.

الإنسان تغير، تغير ما يأكله، تغير ما يلبسه، تغير سكنه، تغيرت معارفه، تغيرت أدوات سلاحه وأدوات طبخه، بعد أن كان يضع الشيء على النار مباشرة صنع «وابور كاز»، وبعد ذلك صنع هذا الموقد «البوتكاز»، وبعد ذلك صنع الموقد الكهربائي. ولكن الإنسان هو الإنسان، لا زال يأكل، ولا زال يشرب، ولا زال يحتاج إلى الطعام وإلى الشراب، ولا زال كما قال الله تعالى لآدم: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ 118 وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ} [طه: 118، 119] أي لا تشعر بوقدة الشمس والحر، الجوع والعري والظما والضحى هذه أشياء ثابتة، حاجات الإنسان الأساسية هي هي.

منذ كانت البشرية أسرة واحدة من رجل وامرأة وأولادهما ... آدم وحواء

وأولادهما، قتل ابن آدم الشرير أخاه الطيب الخير: {وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ 27 لَنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ 28 إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ 29 فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [المائدة: 27 - 30]. وبعد أن قتله لم يكن يعرف ماذا يصنع بهذه الجثة، حتى بعث الله له غراباً يعلمه. وهذا دليل على أن هذا هو أول ميت في التاريخ، لم يعرف ميت قبل ذلك {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِيَةَ كَيْفَ يُؤْري سَوْءَةَ أَخِيهِ} [المائدة: 31]، الآن الناس يعرفون كيف يخفون آثار الجثث، وكيف يضعون محلولات كيماوية فتزيل آثار الجثة تماماً.

تطورت أساليب الإنسان ولكن الإنسان هو الإنسان، لا زال قابيل وهابيل، لا زال الخير والشر يتصارعان، لا زالت الفضيلة والرذيلة، لا زال الإنسان الظالم المعتدى والإنسان الطيب المستسلم، جوهر الإنسان لم يتغير.

اطبخ بما شئت، اركب ما شئت، اركب رجلك، أو اركب حماراً، أو دابة، أو اركب سفينة شراعية، أو اركب سفينة بخارية، أو اركب السيارة أو الطائرة أو الصاروخ، أنت أنت، جوهر الإنسان هو هو.

فالذين يزعمون أن الحياة متغيرة، كأنهم يوهموننا أن جوهر الحياة وجوهر الإنسان وجور الكون متغير لا، الجوهر ثابت، التغير في الأغراض ... في الصور ... في التفاصيل، أما الجوهر أما الحقيقة فهي هي.

الشريعة بين الثابت والتغير:

فقضية أن الحياة متغيرة ومتطورة وأن الشريعة ثابتة وجامدة ولا تقبل التغير والتطور، قضية خاطئة تمامًا، وليس الأمر كما يقولون.

العقيدة ثابتة لأن الله واحد، ولا يمكن أن يكون اثنين بعد ذلك أو ثلاثة، هناك ملائكة لله موجودون هذه حقيقة لا تتغير، هناك يوم آخر هذه حقيقة ثابتة.

أما الشريعة ففيها دائرتان:

دائرة لا تقبل التجديد ولا التطور ولا التغيير، وهذه التي ثبتت أحكامها بنصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة. وهي كما قلت لكم من قبل محدودة جدًا وقليلة جدًا، ولكنها مهمة جدًا جدًا، لماذا؟ لأنها تمثل ثوابت الأمة، الثوابت التي لا يجوز اختراقها ولا يجوز الخروج عليها بحال من الأحوال، هذه دائرة.

وهناك دائرة واسعة تقبل التجديد، وتقبل الاجتهاد، وتقبل التطور.

من عوامل السعة والمرونة في شريعة الإسلام:

ومن أجل هذا نقول: عن الشريعة فيها عوامل عدة للسعة والمرونة ألفت

فيها كتابًا من قديم⁽²¹⁶⁾، من هذه العوامل:

(216) عنوانه: «عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية»، طبعة دار الصحوة للنشر

عام (1406هـ - 1985م)، ثم طبعته بعد ذلك مكتبة وهبة بالقاهرة.

العامل الأول:

أن الله لم يقيد الناس بنصوص في كل شيء، بل هناك أمور ليس فيها نص قط، تركها الله ععم منطقة فراغ تشريعي ليس فيها أمر ولا نهى سميتها منطقة «العفو» أخذنا من الحديث الشريف⁽²¹⁷⁾: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً» ثم تلا قول الله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [مريم: 65]، الله لا ينسى: {لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} [طه: 52]، ترك هذه الأشياء قصداً لتكون عفواً، نملاًها باجتهادنا في ضوء النصوص المحكمة، بالقياس على المنصوص، بالعمل بالمصلحة المرسلة، بالعمل بالاستحسان، بمراعاة العرف، بالاستصحاب، بكذا بكذا، هكذا أوسع الله علينا.

في الحديث الآخر من الأحاديث «الأربعين النووية» يقول: «إن الله حدا حدوداً فلا تعتدوها، وفرض أشياء فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»⁽²¹⁸⁾. سكت عن هذه الأشياء رحمة من الله تعالى، فهذه منطقة متروكة ليس فيها أمر ولا نهى.

أشياء تركها الله تعالى لنا، وخصوصاً الأشياء التي تتغير بتغير الزمان

(217) رواه البزار ورجاله ثقات، كما قال الهيتمي في «مجمع الزوائد» (55/7)، والحاكم في «المستدرک» (375/2)، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. «عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية» للقرضاوي (ص 12).

(218) رواه الدارقطني وحسنه النووي في «الأربعين»، وحسنه قبله أبو بكر السمعاني في «أمالیه» وفي «إسناده» مقال بينه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم». «عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية» للقرضاوي (ص 11).

والمكان والإنسان، لا تكاد تجد فيها نصوصاً. الإجراءات الإدارية والأشياء السياسية تجد فيها نصوصاً محدودة، والباقي متروك لاجتهاد الناس. هذا أول عامل من عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية.

والعامل الثاني:

أن الأشياء التي نص عليها القرآن والسنة كثيراً ما يكون النص عليها بطريق كلي ... بطريق إجمالي، يضع فيها قاعدة، يقرر فيها مبدأ، ثم يترك التفاصيل لاجتهاد المسلمين حسب الزمان والمكان والحال، كما في قضية الشورى، الله قرر الشورى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى: 38]، {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران: 159]، ولكن كيف تكون الشورى؟ من المستشار؟ من هم أهل الشورى، أو أهل الحل والعقد؟ وكيف نختارهم؟ لم يفصل الله في هذا، لأنه لو ألزمتنا بصورة مفصلة من الشورى لأصبحت شرعاً ثابتاً إلى يوم القيامة، ولكن الله أجمل في هذا وترك التفاصيل لاجتهادنا، رحمة منه بنا، وفضلاً منه علينا.

هذا أيضاً عامل من عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية.

العامل الثالث:

عامل ثالث: أن ما نص الله عليه بتفصيل نص عليه في أغلب الأحيان بنصوص فيها مرونة، تحتل تعدد الاجتهادات واختلاف الأفهام والتفسيرات، ولو شاء عز وجل لجعلها كلها نصوصاً قاطعة في ثبوتها ودلائلها. ولكنه جعل هذه النصوص فيها الحقيقة وفيها المجاز، وفيها المطلق والمقيد والخاص والعام، والمنطوق والمفهوم، وما يفهم بالإشارة وما يفهم بالعبارة

إلى آخره، حتى تتسع الشريعة لاختلاف الأفهام والعقول، واختلاف الأزمان والعصور، واختلاف البيئات والأحوال، فهذه رحمة من الله تعالى.

ولهذا تعددت المذاهب وتنوعت المشارب واختلفت المدارس الفقهية، ما بين أثري يقول بالأثر، وما بين ظاهري يأخذ بالظاهر، وما بين قياسي يأخذ بالرأي، وما بين مقاصدي يأخذ بالمقاصد، اتسعت الشريعة لذلك.

ودخلت الشريعة الإسلامية بلاد الحضارات القديمة، دخلت بلاد فارس وبلاد الروم وبلاد الشام وبلاد مصر وشمال أفريقيا، ولم يضق ذرعها بأي حادثة من الحوادث ولا بأي واقعة من الوقائع. بل كان فقهاؤها قادرين على أن يضعوا لكل مشكلة حلاً ولكل داء دواء من صيدلية الشريعة نفسها، لا باستيراد من غيرها.

فهذه أيضاً من عوامل السعة والمرونة.

العامل الرابع:

من عوامل السعة والمرونة: أن الشريعة فيها أشياء لأوقات السعة والاختيار، وأشياء لأوقات الضرورة والاضطرار.

الإسلام يراعى الضرورات فيبيح فيها المحظورات، الله تعالى في أربع آيات من كتابه أباح أكل المحرمات عند الضرورة: {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: 173]، {فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: 3]، {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام: 145]، {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل: 115].

وهناك ضرورات تعتري الفرد وضرورات تعتري المجتمع، وأحكام هذه مفصلة في أحكام فقهاء الإسلام الثري العريض.

العامل الخامس:

وهناك عامل خامس: وهو ما قرره المحققون من علماء الأمة: أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال. وهذا ما ذكره ابن القيم رحمه الله، وما ذكره قبله العلامة شهاب الدين القرافي المالكي، وذكره بعد علامة الحنفية المتأخرين ابن عابدين، وذكره الكثيرون.

وقد ذكرت لكم ما قاله ابن تيمية حينما مر على جماعة من التتار يشربون الخمر، فقال لهم بعض أصحابه: يا أعداء الله تشربون الخمر أم الخبائث؟ فقال: دعهم فإن الله إنما حرم الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء تصدهم الخمر عن سفك الدماء ونهب الأموال! «خليهم» في سكرهم ولهوهم، إذا صحصحو قتلوا الناس ونهبوا أموالهم.

انظر كيف نظر إلى مقصد الشريعة، وكيف وجد أن هؤلاء ينبغي أن يُقتلوا بأمر آخر غير الأمر العادي. يمكن أن تترك صاحب المنكر على منكره إذا خفت أن يأتي بمنكر أشد من هذا المنكر وأعظم منه نُكراً. هذا ما ينبغي لنا أن نعلمه.

العلامة الإمام ابن أبي زيد القيرواني من أئمة المالكية صاحب كتاب «الرسالة» المشهورة، اتخذ بيتاً في طرف المدينة واتخذ له كلباً للحراسة، فزاره بعض العلماء فقالوا: يا أبا محمد، كيف تتخذ كلباً وأنت تعلم أن مالغاً رضي الله عنه يكره اقتناء الكلاب؟ فقال: لو كان مالك في زماننا لاتخذ اسداً

ضارياً! نحن في زمن قل فيه الأمن ويخاف فيه الناس.

فهذه كلها تدلنا على أن الشريعة ليست - كما يقول هؤلاء - جامدة ثابتة. لا، الشريعة فيها قابلية للمرونة والتطور والتغير.

إذا فتح باب الاجتهاد لأهله في محله، فالعلماء المجتهدون قادرون على أن يصنعوا طباً لكل أدواء الناس وأمراضهم من صيدلية الشريعة.

فهذا ما قاله هؤلاء الذين أرادوا أن يبرروا العلمانية.

هل الإسلام دين مثالي لا يصلح للتطبيق!؟

وآخرون أرادوا أن يبرروا العلمانية فقالوا: عن الإسلام دين مثالي وشريعته شريعة مثالية، لا تصلح للتطبيق في الواقع، ولذلك لم نجد الشريعة طُبقت إلا في عهد الخلفاء الراشدين، بل في عهد أبي بكر وعمر فقط، وأبو بكر عاش في الخلافة سنتين ونصف، وعمر هذا كان فلتة لا تتكرر!

هكذا يقول هؤلاء، وهذا كذب على التاريخ وعلى الإسلام. الإسلام ليس شريعة مثالية محلقة في الخيال، لا، الإسلام دين واقعي يشرع للإنسان من حيث هو إنسان، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «ساعة وساعة»⁽²¹⁹⁾ يعني ساعة لقلبك وساعة لربك، والقرآن يقول: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ} [فاطر: 32]، وكل هؤلاء من الأمة المصطفاة، حتى الظالم لنفسه لم يخرج من

(219) جزء من حديث حنظلة، وفيه يقول صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده! لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة، على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ثلاث مرات» رواه مسلم في «التوبة» (2750).

الأمة.

الإسلام يشرع للناس جميعًا، يشرع للإنسان العالی الذي هو أعلى من القاعدة، وللإنسان الوسط، وللإنسن الذي هو دون القاعدة، يراعي الجميع، يراعي أن الناس مستويات مختلفة. ومن أجل هذا شرع العقوبات لأنه يعلم أنه سيكون هناك أناس مخطئون، ومن أجل هذا أباح الضرورات، ومن أجل هذا جعل أحكامًا للإنسان إذا أكرهه، واحكامًا للإنسان إذا غضب، كطلاق الغضبان وغير ذلك.

الشريعة الإسلامية شريعة واقعية بكل معنى الكلمة، تجمع بين النظرة إلى المثالية والنظرة إلى الواقع، توازن بين هذا موازنة لا يقدر عليها إلا خالق الإنسان وواهب الحياة، الله هو الذي وضع هذا النظام المتوازن للناس.

دعوى أن الشريعة مثالية لا تصلح للتطبيق هذا ليس صحيحًا، الشريعة وسعت المخطئين والمصيبين، والأغنياء والفقراء، والحكام والمحكومين، والرجال والنساء، والمجتمعات الحضارية والمجتمعات البدوية، وسعت هؤلاء جميعًا بأحكامها وقواعدها، وهي القواعد الواسعة المرنة التي وضعها فقهاء هذه الأمة: الأمور بمقاصدها ... المشقة تجلب التيسير ... لا ضرر ولا ضرار ... يتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى ... يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام ... لا يُزال الضرر بالضرر أو لا يُزال الضرر بضرر مثله أو أكبر منه. قواعد تسع الحياة كلها.

الذين يقولون: إن الشريعة الإسلامية شريعة مثالية هذا ليس صحيحًا، الشريعة واقعية مائة في المائة (100%)، وهذا حكمت الأمة خلال اثني

عشر قرناً على الأقل قبل أن يدخل الاستعمار بلاد المسلمين. هل كان للمسلمين خلال تلك القرون شريعة غير هذه الشريعة؟

يقولون: لم تطبق إلا في عهد أبي بكر وعمر! وسائر حكام المسلمين الذين أتوا من بعدهما هل وجد أحد منهم رفض الشريعة؟ لا يمكن، لو فعل ذلك لكان مرتدًا ولخرج الناس عليه. القانون الذي كان يحتكم إليه الجميع ويحكم به القضاة في العالم الإسلامي كله هو الشريعة الإسلامية، وهو الذي كان يفتي على أساس المفتون. حينما يقع للإنسان قضية: زواج أو طلاق أو ميراث أو معاملة مالية إلى من كان يذهب الناس؟ كمانوا يذهبون إلى المفتي ويسألونه. فالشريعة تحكم الأفراد وتحكم المجتمع.

الشريعة الإسلامية كانت هي الحاكمة خلال هذه الفترة ثم هم يذكرون الحكام المسلمين كأنهم كلهم ظلمة وطغاة، ليس هذا صحيحًا.

شبهات حول تاريخنا الإسلامي:

نحن نقول عن معاوية مثلاً: إنه رجل انحرف عن سنن الراشدين، لأننا نحاكمه إلى عمر بن الخطاب وإلى علي بن أبي طالب، ونحن حينما نحاكمه إلى هؤلاء نجد: أنه قزم أمام هؤلاء العمالقة.

ولكن لو نظرنا إليه بالنسبة لملوك عصره لوجدناه من أعدل الحكام، ولو لم يكن كذلك ما تنازل له إمام جليل مثل الحسن بن علي الذي ذهب وقال له: أتنازل لك عن الخلافة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري⁽²²⁰⁾: «ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من

(220) في «صحيحه» عن أبي بكر رضي الله عنه في كتاب فضائل الصحابة باب: مناقب

المسلمين».

لو كان معاوية بالسوء الذي تصوره كتب التاريخ المحرفة - وللأسف تاريخنا فيه تحريف كثير ومسح كثير ويحتاج إلى كتابته من جديد بأقلام مؤمنة - ما تنازل له الحسن بن علي رضي الله عنهما.

هناك أناس صوروا هارون الرشيد وكأنه رجل خلاعة وفجور، مع أنه كان يغزو عامًا ويحج عامًا، وفي العام الذي لا يحج فيه يبعث بثلاثمائة عالم يحجون على نفقته، وكان رجلًا إذا وعظ بكى. وامتدت الدولة الإسلامية في عصره وبلغت الأوج في العالم والحضارة. هل يمكن أن تبلغ الدولة هذا المبلغ من رجل يصفونه كأنه رجل لهو ولعب وخلاعة، هذا كله من تزيف التاريخ(221).

ثم لماذا لا يذكر هؤلاء العمالقة أمثال: عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود الشهيد وتلميذه صلاح الدين الأيوبي؟ لماذا لا يذكرون المظفر سيف الدين قطز والظاهر بيبرس؟ ولماذا لا يذكرون «أورانك زيب»(222) الذي حكم خمسين عامًا في الهند، وكان مثالًا للحاكم الراشد، ومع أنه كان ملكًا من

الحسن والحسين رضي الله عنهما رقم (3629).

(221) رد الشيخ القرضاوي على دعاوي من ادعوا بأن تاريخنا الإسلامي تاريخ مظلم، مملوء بالظلم والجور والعسف، والميل عن حدود الله، والبعد عن الشورى والعدل؛ فكتب شيخنا كتابه الممتع: «تاريخنا المفترى عليه» طبعة دار الشروق بالقاهرة، فليراجع لأهميته.

(222) انظر في التعريف به ما كتبه أديب الفقهاء الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تحت عنوان «بقية الخلفاء الراشدين»، في كتاب «رجال من التاريخ» (ص 210 - 220) ط. دار الفكر بدمشق.

أعظم الملوك كان لا يأكل إلا من كتابة يده، وكان خطه جميلاً فكان يكتب المصاحف بخط يده؟

لماذا يصورون لنا تاريخنا على أنه ظلمات بعضها فوق بعض؟ هذا التاريخ ظل محكوماً بالشريعة الإسلامية، حتى الحجاج الثقفي على ظلمه وجبروته وطغيانه حينما أخذ جنوده رجلاً في مقابل ابن عم له لم يجدوه فاعتقلوه، ووقف الرجل أمام الحجاج يسأله فيم اعتقلت؟ قال له: إنه جنى جان من عرض عشيرتي فأخذت بسببه. قال له الحجاج: أما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يجني عليك وقد تعدى الصحاح مبارك الجرب

ولرب مأخوذ بذنب عشيرة ونجا المقارف صاحب الذنب

قال الرجل: ولكني أيها الأمير سمعت الله تعالى قال غير ذلك. قال: ويحك وماذا قال الله؟ قال: قال على لسان يوسف حينما قالوا له عن أخيه: {إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} 78 قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتْعَةً عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا نَظَلُّمُونَ} [يوسف: 78، 79]. فقال الحجاج: صدق الله وكذب الشاعر، خلوا سبيل الرجل.

الحجاج ينخني أمام النص الإلهي! ما كان في هذه الأمة أحد يجروء على أن يعطل أحكام الله علانية، إنما كان هناك من ينحرف من أجل الدنيا ... من أجل الهوى ... من أجل قرابة، أما الشريعة فكانت هي الحكم والمرجع الذي يرجع إليه الجميع.

ويقول بعض العلمانيين: كيف تريدون لنا أن نحكم بالشريعة الإسلامية في

عصر ترك الناس فيه الدين؟ نحن في عصر العلم ولسنا في عصر الدين،
الغرب تحرر من الدين فنهض وارتقى وأصبح يحكم نفسه بقوانين وضعية،
فلماذا لا نقلد الغرب حتى نرتقي مثله؟

ونقول لهؤلاء: إن الغرب له دينه ولنا ديننا، لسنا عبيدًا للغرب حتى نقلده،
نحن لنا ديننا وميراثنا وشريعتنا، الغرب ليس عنده شريعة مثل شريعتنا.
الغرب حكمه رجال الدين حكمًا مستبدًا ظالمًا، وقفوا مع الجهل ضد العلم،
ومع الظلم ضد العدل، ومع الاقطاع ضد العمال. ولكن المسجد غير الكنيسة،
والإسلام غير المسيحية، وعلماء الإسلام غير رجال الكهنوت النصارى،
فلماذا تطبقون علينا ما طبقه أولئك؟ نحن شيء غير هؤلاء.

لسنا أسرى للغرب ولسنا عبيدًا للغرب حتى يحكم علينا تاريخه، تاريخنا
تاريخ مشرق، العصور التي يسمونها عندهم «العصور الوسطى المظلمة»
هي العصور الذهبية عندنا، أقمنا فيها حضارة العلم والإيمان ودولة العدل
والإحسان، وكنا سادة العالم لعدة قرون.

ماذا عند هؤلاء الذين يريدون أن يفرضوا علينا العلمانية؟ وماذا وراء
العلمانية؟ وماذا كسبت الدول التي حكمتها العلمانية؟ والله ما كسبت شيئًا لأنها
قهرت شعوبها ولا زالت تقهرها.

العلمانية والحرية الدينية:

ماذا بين حزب الرفاه الإسلامي في تركيا وبين العلمانيين هناك؟ إنهم
يريدون أن يلغوا المدارس القرآنية! آلاف المدارس القرآنية أنشأها الشعب
هناك ليعلموا أولادهم وبناتهم القرآن، وهؤلاء يريدون إلغاء هذه المدارس! ما

الذي يؤلمكم أيها العلمانيون؟ ما الذي يضيركم من هذا الأمر؟ أيها الجيش العلماني في تركيا، ما الذي يضايقك في أن يحفظ الولد أو البنت: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ 1 اللَّهُ الصَّمَدُ 2 لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ 3 وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 1 - 4]؟!

يريدون إلغاء المدارس القرآنية وهي بالآلاف، يريدون إلغاء معاهد الأئمة والخطباء أو تقليصها، يريدون أن لا تطالب الحكومة بإعطاء حق المرأة المسلمة في لبس الحجاب! المرأة المتبرجة لها حق أن تلبس «المني جب» و«الميكروجب» وأن تعري الصدر والظهر والساقين والذراعين لأن هذا من الحرية الشخصية، وليس من الحرية الشخصية أن تغطي المرأة شعرها! هذا عجيب.

ماذا تريد العلمانية في بلاد المسلمين؟ تريد أن تقهر المسلم على ما لا يريد.

بعض البلاد العلمانية في شمال أفريقيا⁽²²⁴⁾ تجعل الحجاب جريمة، المرأة المحجبة ترتكب جريمة إذا لبست الحجاب، لا يجوز لها أن تدخل المدرسة، لا يجوز لها أن تدخل الجامعة، لا يجوز لها أن تُظف في الحكومة، لا يجوز لها أن تدخل مستشفى للعلاج أو للولادة إلا إذا خلعت حجابها!
هذه هي العلمانية.

إنها تقهر الناس، وتقتل حرية الأفراد، وهم يدعون أنهم دعاة الحرية. أين

(224) الدولة هي تونس: وقد عرى فضيلة الشيخ النظام العلماني في هذه الدولة، في كتابه: «التطرف العلماني في مواجهة الإسلام ... نموذج تركيا وتونس» طبعة أندلسية للنشر والتوزيع. المنصورة. مصر.

الحرية؟ إنهم يريدون حرية الكفر لا حرية الفكر، حرية الفسوق لا حرية الحقوق، حرية الإلحاد والطغيان لا حرية الإنسان.

هذا ما يريده هؤلاء.

بعض هؤلاء يعتبرون الصلاة جريمة وخصوصًا الصلاة في المساجد. حدثني بعض الشباب في تلك البلاد أنهم كانوا يذهبون ليصلوا الفجر في المسجد فكان رجال الأمن يمسون بهم! قالوا: فتركنا الصلاة في المسجد وصلينا في بيوتنا، فكانوا يتطلعون إلى البيوت عند الفجر، فإذا أضيء النور عند أذان الفجر عرفوا أن هناك من يصلي، فوضعوا علامة على هذا البيت، ووضع في القائمة السوداء!

عندما يتقدم أحدهم للعمل في وظيفة يكون من الأسئلة التي يُسأل عنها: هل تحافظ على الصلوات الخمس؟! فماذا يقول الإنسان المحافظ؟ إن أجاب بنعم فستكون نقطة سوداء له.

هؤلاء هم الذين حرموا تعدد الزوجات وأباحوا الزنا كما قال شيخنا الشيخ عبد الحلیم محمود في محاضرة له هنا في المعهد الديني منذ حوالي ثلاثين سنة⁽²²⁵⁾، قال: حدثني أحد الإخوة في بلد من شمال أفريقيا أن امرأته كبيرة في السن فتزوج امرأة أرملة بعقد شرعي غير موثق، فقدمت شكوى إلى الشرطة أن فلانًا هذا خالف القانون تزوج امرأة على امرأته. وفعلاً عمل له كمين وضُبط وهو يدخل عند هذه المرأة، وأخذ للتحقيق معه، وقالوا له: أما

(225) كما ذكرها بتفاصيلها الشيخ عبد الحلیم محمود رحمه الله في «فتاويه»، انظر: «فتاوى الإمام عبد الحلیم محمود» الجزء الثاني. طبعة دار المعارف بمصر.

علمت أن القانون يُحرم ويمنع تعدد الزوجات؟ قال لهم: نعم أعلم هذا، قالوا له: فلماذا تخالف القانون وتتزوج هذه المرأة؟ قال لهم: ومن قال لكم إنها امرأتي؟ هذه عشيقتي. قالوا له: نحن آسفون كنا نظننا امرأة لك، أطلقوا سراخ الرجل!!

حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله، أحلوا الزنا وهو من كبائر الإثم والفواحش: {إِنَّهُ كَانَ فُحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء: 32]. حرموا تعدد الزوجات الذي يحتاج إليه الرجل وتحتاج إليه المرأة، وأباحوا تعدد الخليلات والعشيقات! لماذا لا يتزوج الرجل من ثانية بدل أن يفكر في الحرام؟ ولماذا لا تتزوج المرأة من رجل متزوج بدل أن تعيش حياتها بغير رجل؟

جريمة فصل الدين عن السياسة:

ماذا فعل هؤلاء بالأمة إلا أنهم قهروها؟ قهروا الأمة وحرموها من هذا الدافع الديني، حرموها من صلتها بالدين ... بالله عز وجل .

كان أحد رؤساء الوزراء⁽²²⁶⁾ يفاوض جماعة من الإسرائيليين، وقال لهم: إننا نفصل بين الدين والقومية والحياة والسياسة، فلا تقوم سياستنا على أي مرتكزات دينية.

فقام أحدهم وقال له: يا سيادة رئيس الوزراء، لكم أن تفعلوا في دينكم ما شئتم، أما نحن فعندنا «الدين والشعب والوطن» أو «التوراة والشعب

(226) هو رئيس وزراء مصر في عهد السادات د. مصطفى خليل، انظر تفصيل الحادثة في كتاب «الإسلام والعلمانية ... وجهًا لوجه» للدكتور يوسف القرضاوي. طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة.

والوطن». عندهم هذه الأقاليم الثلاثة، هذا ما يفعله الإسرائيليون. هم يريدون أن تكون معركتهم قائمة على أساس ديني، ونحن نريد أن نفرغ معركتنا من كل معنى ديني.

فليتحاكموا إلى الشعوب:

إننا ندعو هؤلاء العلمانيين - إذا كانوا يتغنون بالديمقراطية ويقولون نحن ديمقراطيون ونؤمن بحق الشعب - أن يحتكموا إلى الشعب في استفتاء حر نزيه ويروا: ماذا تريد شعوب أمتنا العربية والإسلامية؟ هل تريد الشريعة الإسلامية أو العلمانية؟ هل تريد شرع الله أو قانون نابليون؟ نريد استفتاء صريحاً لنرى مع من تكون الأمة؟

وستكون الأمة مع شرع الله ... مع محمد عليه الصلاة والسلام ... مع القرآن الكريم، ولن تكون أبداً مع القوانين الأجنبية ولا الأنظمة الأجنبية ولا المفاهيم الأجنبية.

ستظل الأمة مستمسكة بهويتها لا تتنازل عنها، معلنة أنها مع الإسلام وبالإسلام وللإسلام، وهذا ما ينبغي أن يغالي به كل مسلم: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: 33].

خسائر أمتنا من وراء العلمانية:

نحن ندعو أمتنا إلى أن تتمسك بدينها ... بشريعتها، وأن تطالب بذلك، وأن تصر عليه، فلا نجاة لهذه الأمة إلا بهذا الدين، ورحم الله الإمام مالك الذي قال: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، وما صلح أولها إلا بكتاب الله وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد جربنا الاستيراد من الشرق والاستيراد من الغرب، جربنا الاقتباس من اليمين والاقتباس من اليسار، جربنا الرأسمالية الليبرالية المأخوذة من الغرب، وجربنا الاشتراكية الثورية المأخوذة من الشرق، فما أغنت عنا الليبرالية ولا الاشتراكية.

ما حققنا رخاء اقتصاديًا، ولا حققنا ازدهارًا ... ولا حققنا وحدة سياسية، ولا حققنا تماسكًا أخلاقيًا، ولا حققنا نصرًا عسكريًا، ولا زلنا ننزل من نكسة إلى نكسة إلى اليوم، كل مدة نخسر أمام إسرائيل، «نتنياهو» مُصِر على موقفه ونحن نلهث وراءه، نشحذ، نتسول.

أي أمة هذه ؟ !

أيها العلمانيون، ماذا صنعتم بهذه الأمة؟ خربتم جوانية هذه الأمة، خربتم نفوسها وضمائرها. نريد أن نرتفع بنفوس هذه الأمة لتكون أمة عزة وكرامة ... أمة جهاد ونضال، لا تتبع نفسها ولا شرفها، ولا وطنها ولا قطعة أرض من ديارها بملك المشرق والمغرب.

أيها العلمانيون الضعفاء المستهينون بكل قيمة وبكل فضيلة، دعوا مكانكم لغيركم، لا تصلحون لهذه الأمة، أفسدتم عليها كل شيء، دعوا لها الفرصة لتجرب الإسلام.

لماذا تقفون في وجه الإسلام؟ لا تريدون للإسلام أن يحكم لا بطريقة ديمقراطية كما في الجزائر، ولا بانقلاب أبيض كما في السودان. تريدون أن تقفوا ضد كل دولة تعلن الشريعة كما وقفتم أمام السودان، وكما تقفون اليوم أمام حزب الرفاه الإسلامي.

نحن نريد لأمتنا أن تسود، وأن تقود، وأن تتبوأ مكانتها تحت الشمس، ولن تفعل ذلك إلا تحت ظلال الدين وتحت لواء الإسلام وتحت حكم الشريعة، وهذا قانون الله ولا بد أن يأتي، لا بد أن يأتي.

إنهم يحاولون أن يوقفوا زحف التاريخ، إنهم يحاولون أن يوقفوا طلوع النهار، إنهم يناطحون المريخ ويوقفون سنن الله، وهيهات أن يستطيع أحد أن يوقف سنن الله، لأن سنن الله ماضية ولا يمكن أن يوقفها أحد {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر: 43]، {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَو لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: 53].

أقول قولي هذا، واستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد، فقد ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها خيراً إلا استجيب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر. اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر

عوراتنا، وأمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شماننا ومن فوقنا، ونعوذ بك أن نغتل من تحتنا. اللهم أجمع كلمة هذه الأمة على الهدى، وقلوبها على التقى، ونفوسها على المحبة، ونياتنا على الجهاد في سبيلك، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل.

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم انصرنا على اليهود المعتدين الغادرين، اللهم انصرنا على الوثنيين المتعصبين، انصرنا على الصليبيين الحاقدين، وانصرنا على الملاحدة الجاحدين، وانصرنا على الطغاة الجبارين، وانصرنا على جميع أعدائك أعداء الدين، اللهم رد عنا كيدهم، وفلحدهم، اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم.

اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وسريع الحساب وهازم الأحزاب، اهزم أعداءنا وأعداءك وانصرنا عليهم يا رب العالمين. اللهم أيد إخوتنا المجاهدين في سبيلك، اللهم أيد إخوتنا في فلسطين ولبنان، وأيد إخوتنا في كشمير والسودان، وأيد إخوتنا في كل مكان، وخذ بأيدي إخوتنا الممتحنين والمضطهدين والمعتقلين، اللهم أفكك بقوتك أسرهم واجبر برحمتك كسرهم وتول بعنايتك أمرهم.

اللهم اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين.

{ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [الحشر: 10].

{ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } [آل عمران: 147].

عباد الله: يقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56].

اللهم صلي وسلم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين
لهم بإحسان إلى يوم الدين.

{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

(15)

الشيخ محمد الغزالي

عالم مجاهد مجدد (227)

الخطبة الأولى:

أما بعد: فيا أيها الإخوة المسلمون:

كيف يختار مدير برنامج «الاتجاه المعاكس» شخصياته؟

في يوم الثلاثاء الماضي من هذا الأسبوع المنصرم أذاعت قناة الجزيرة في برنامجها الشهير «الاتجاه المعاكس» حلقة عن: الجماعات الإسلامية، وكان طرفها أحد العلمانيين اللادينيين المتبحرين، وأحد الذين ينتمون إلى الجماعات الإسلامية، ولا أدري كيف يختار مدير البرنامج شخصياته؟ فكثيراً ما جاء بالذين يمثلون الإسلام من هذا الطراز الغريب، الذين لا يُعرفون إلا بطول اللّحى، وطول اللسان، وقصر العقل والتفكير، وعدم فقه الواقع، وفقه الإسلام الحقيقي.

كما اختار الطرف الآخر من هذا النوع الذي لا يرجو الله، ولا اليوم الآخر، ولا يعترف للإسلام بقيمة ولا بمرجعية، هذا للأسف ما حدث في برنامج الاتجاه المعاكس في يوم الثلاثاء الماضي، ومما سمعناه في التعليقات على هذا البرنامج، مداخلة هي في الواقع أقوى المداخلات وأصوبها، كانت

(227) ألقيت في مسجد «عمر بن الخطاب» بالدوحة، في يوم الجمعة 25 من ذي القعدة سنة 1419 هـ الموافق 12 من مارس سنة 1999 م.

من الأخ عبد الله أنس من لندن الذي قال لصاحب البرنامج: لقد أسأت الاختيار في كلا الطرفين، في الطرف العلماني وفي الطرف الإسلامي، فالطرف العلماني لا يمثل الديمقراطية، بل هو رجل استتصالي يعادي الإسلام، ويعادي دعائه بكل قوة، فلا ينبغي لمثله أن يمثل العقلانية أو الديمقراطية، أو الحرية، أو غير ذلك.

وكذلك الذي جئت به يمثل الحركات الإسلامية ليس منها في شيء فهو رجل أفتى بجواز قتل الرجل أمه وأباه، أحد الجزائريين قتل أمه وأباه، فبرّر هذا الرجل ذو اللحية الطويلة - أبو قتادة، هؤلاء يتكئون بكفى الصحابة، فبرّر، قتل الرجل لأمه وأبيه، وأصدر فتوى في ذلك «البيان في جواز قتل الوالدان والنسوان» ... إلخ، كما برّر قتل بعض الدعاة الإسلاميين في الجزائر، الشيخ محمد سعيد وغيره، هذه الجماعات التي ظهرت وتتنسب إلى الإسلام، وارتكبت من الموبقات والحقاقات والاعتداءات ما لا يقبله دين، ولا يقبله عقل، ولا نقل ولا شرع، ولا خلق ولا عرف ولا قانون، أبو قتادة هذا برّر قتل الشيخ محمد سعيد، كما برّر في فتواه قتل الرجل لأمه وأبيه، هذا للأسف ما حدث.

علماني متطرف يهاجم الشيخ الغزالي:

ومن أعجب ما ذكره هذا الشخص العلماني التونسي اسمه الشابي هذا: أنه هاجم شيخنا الشيخ محمد الغزالي وهاجمني معه، وقال: إن الغزالي الذي كان يرأس جامعة الأمير عبد القادر أو يديرها من الناحية العلمية؛ هو الذي بذر بذور التطرف والعنف في الجزائر، وجاء القرصاوي بعده فكمل دوره، وهذا افتراء على الحق والتاريخ، وما كنت أريد أن أعيره التفاتاً، فمثل هؤلاء

نقابلهم بما قال الله تعالى: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان: 62]،
 {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا
 نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [القصص: 55] كان أولانا أن نسكت عن هذا الجاهل الأحمق،
 المعادي للإسلام بصراحة وتبجح، والذي يدافع عن العلمانية اللادينية بكل
 وقاحة، والذي يهاجم الإسلام وشريعته بكل صراحة، ويقول: لم يعد في
 عصرنا مكان لتطبيق الشريعة، هذا كان أولى بنا أن نسكت عنه، لولا أن
 بعض الإخوة اتصلوا بي، وألحوا علي أن أتحدث.

والذي حداني أن أتحدث: هو تطاوله على الشيخ الغزالي، خصوصاً أننا
 في هذه الأيام في الذكرى الرابعة لوفاة الشيخ الغزالي رحمه الله ، فالشيخ
 الغزالي توفي في التاسع من مارس، أي منذ أيام، فذكرى الشيخ الغزالي
 وحقه علينا يستوجب أن نرد عنه، وأن ندود عن حرمانه، لا يمكن أن
 يوصف الشيخ الغزالي بالتطرف ولا بالعنف، الشيخ الغزالي وقف عمره كله
 - وخصوصاً في سنواته الأخيرة - يحارب التطرف والعنف، ويدعو إلى
 الاعتدال والتسامح، وإلى العقلانية.

صنفان يعاديان الشيخ الغزالي:

ولذلك نجد الذين يعادون الشيخ الغزالي صنفين من الناس: إما من
 المتشددین والمتطرفين من الإسلاميين، حتى إن بعضهم قابلني يوماً وقال لي:
 ما رأيك في الغزالي؟

قلت: الغزالي حجة الإسلام، وهو الذي وقف ضد الفلاسفة وضد الباطنية.

قال: لا أسألك عن هذا الغزالي القديم، إنما أسألك عن الغزالي الجديد.

قلت: هذا عالم من كبار علماء الإسلام، ومن كبار الدعاة الذين وقفوا حياتهم، ونذروا أنفسهم للدفاع عن الإسلام، والوقوف في وجه أعدائه، وفي وجه التيارات الهدامة والمضللة.

قال: ولكننا نفتي بكفره، قلت: بكفره؟! قال: نعم بكفره وردته. قلت: لماذا؟

قال: لأنه رد بعض الأحاديث في البخاري. قلت: ويرد حديث في البخاري أو حديثين يخرج الرجل من الملة، لو كان الأمر كذلك لحكمنا بالردة على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، لأنها ردت بعض الأحاديث على الصحابة الذين سمعوها من النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنها بحكم ثقافتها قالت: لا ليس هذا صحيحًا، هذا مناقض للآية الكريمة كذا وللآية كذا. فالإنسان يكفر لو رد السنة كلها، وقال: لا نأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، السنة ليست مصدرًا للتشريع ولا للتوجيه، أما أن يملأ الرجل كتبه بالأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكتب الرجل فقه السيرة وعينه تترقرق دمعا، وهو في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة.

أما الرجل الذي عاش مدافعا عن السنة في كتبه وعن القرآن، كيف نحكم عليه بالكفر؟ فانظروا إلى هذا الحد يُتهم الشيخ الغزالي من المتشددين، فالذين يهاجمون الشيخ الغزالي ويعادونه، إما من هؤلاء المتشددين الذين أغلقت عقولهم، وسُجنوا في ظواهر بعض الألفاظ، ولم يفقهوا الدين، ولم يفقهوا الحياة هذا صنف.

صنف المتطرفين من العلمانيين:

والصنف الآخر هم المتطرفون من العلمانيين، الذين يعادون الإسلام نفسه، هؤلاء من داخل المسلمين، والقوى الأخرى المعادية للإسلام من الصهيونية والصليبية والوثنية، والقوى المتربصة بهذا الدين وبأتمته ...

هؤلاء وقف الغزالي ضدهم في كتب عدة، وقف ضد الصهيونية، ووقف ضد الصليبية، ووقف ضد الطواغيت الذين أنلوا الأمة، ووقف ضد هؤلاء في كتب شتى، وفي السنوات الأخيرة وقف جهوده على محاربة التطرف، التدين الزائف، والتدين المنقوص المغلوط، كتب الشيخ الغزالي الأخيرة: «دستور الوحدة الثقافية»، «مشكلات في طريق الحياة الإسلامية»، «هموم داعية»، «علل وأدوية»، «الطريق من هنا»، «الحق المر»، «مستقبل الدعوة في القرن الخامس عشر الهجري» ... إلخ هذه الكتب - وعدد من الكتب - ظل الشيخ الغزالي يُبدئ ويعيد، وهمه أن يحارب هذه النزعة؛ نزعة الغلو والتطرف والتشدد، وكان يؤمن: أن الإسلام لا يُخدم إلا بهذا النوع من التدين الذي يجمع بين العقل والنقل، بين الحكمة والشريعة، بين الدين والدنيا، بين السماء والأرض، هكذا كان الشيخ الغزالي.

العلمانيون وسياسة تجفيف الينابيع:

هؤلاء هم الذين يعادون الشيخ الغزالي، ومن هؤلاء: هذا المحاور الذي كان في «الاتجاه المعاكس»، فهو محاور من دعاة الاستئصال، من دعاة فلسفة تجفيف الينابيع، وهذه فلسفة تقوم عليها بعض الدول، وهو ممن كتبوا فيها، هذه الفلسفة تقوم على تجفيف منابع التدين الحقيقي الإيجابي في التعليم والثقافة والإعلام، يجب تنقية مناهج التربية والتعليم في المدارس والمعاهد

والكليات، من الحضانة إلى الجامعة، من كل شيء ينشئ الشخصية الإسلامية، المعترزة بدينها، الموالية لربها ولأمتها، الغيرة على دينها، الأمرة بالمعروف، والناهية عن المنكر.

فكل ما يتعلق بهذه الألوان من الثقافة تُحذف ولا تبقى في مناهج التعليم والتربية، أي كلام عن اليهود، والتحذير من اليهود، وعداوة اليهود، وخطر اليهود ينبغي أن يُحذف، أي كلام عن موالاته غير المسلمين {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة: 51] يُحذف، أي كلام عن البطولة الإسلامية، والوقوف في وجه الباطل، والثورة على الظلم ينبغي أن يُحذف، أي كلام ينشئ الشخصية المسلمة الإيجابية لا مكان له في مناهج التربية والتعليم، هذا ما يريده هؤلاء، وكذلك في مناهج الثقافة والإعلام، في التليفاز أو في الإذاعة، أو في الصحافة، لا يوجد مكان للحديث عن هذه المعاني.

العلمانيون وتمييع الحقائق:

لقد قرأت مقالاً لأحدهم في صحيفة الأهرام في القاهرة قال فيه: إننا نريد أن نعلم أولادنا وناشئتنا: نسبية الحقائق، أن الحقائق نسبية، ليس هناك حقيقة مطلقة، إذا كنا نقول نحن: الله واحد، فهناك من يقول: هناك آلهة ثلاثة «الله ثالث ثلاثة». هناك من يقول بالوثنية، إذا كنا نقول نحن: إن هناك آخرة وجنة وناراً، هناك من يقول بتناسخ الأرواح، وليس هناك جنة ولا نار. إذا كنا نحن نقول بنبوة محمد، فهناك من لا يؤمن بنبوة محمد، كل هذه الحقائق التي نعتبرها نحن حقائق مطلقة، ولا يجوز الاختلاف عليها، ولا التشكيك فيها، هؤلاء يقولون: هي حقائق نسبية، حقائق عندنا نحن، وليست حقائق عند آخرين، فلا يجوز أن نتعصب، ولا يجوز أن نعتبر هذه أشياء لا كلام فيها

ولا جدال فيها، هذا ما يقوله هؤلاء، يريدون أن يجعلوا الدين عجينة لينة يشكلونها كيف يشاء، حتى العقائد الأساسية ينبغي أن تؤخذ هذا المأخذ عند الطفل المسلم، والتلميذ المسلم، هذا ما يريده دعاة تجفيف الينابيع في ثقافة الأمة وتربيتها وتعليمها وإعلامها.

وسطية الشيخ الغزالي واعتداله:

هذا الذي يهاجم الشيخ الغزالي ويقول: إنه هو الذي بذر بذور التطرف في الجزائر، وفي جامعة الأمير عبد القادر، وفي تليفزيون الجزائر، بالله عليكم هل يعقل أن يكل رئيس جمهورية لرجل أن يتولى توجيه جامعة ناشئة يتولاها ليزرع فيها التطرف ويذر فيها العنف؟ أيعقل أن رئيس دولة - وهو الشاذلي بن جديد - يقول الشيخ الغزالي: نريد أن تعلم شباب الإسلام الصحيح بعيداً عن تسيب المتسيبيين، وتطرف المتطرفين، هي يعقل أن رئيس دولة إنساناً ييذر العنف والتطرف في بلده، أهذا من العقل، أيعقل هذا؟! هذا لا يعقل أبداً.

الشيخ الغزالي كان معروفاً بوسطيته واعتداله وتسامحه وعقلانيته، ولو خرج عن الوسطية يوماً فإنما يخرج عنها في اتجاه العقلانية، واتجاه التسامح والتساهل والتيسير، فكيف يُتهم الشيخ الغزالي بأنه هو الذي بذر التطرف، لا أريد أن أتحدث عن نفسي لأكمل مشوار الشيخ الغزالي في بذر بذور العنف والتطرف في الجزائر، بالعكس الشيخ الغزالي كانت مهمته في الجزائر مقاومة التطرف وهذا، ما ذكره في كتبه أنه لاقى ما لاقى من المتطرفين في المملكة حينما كان في جامعة أم القرى، وهنا في قطر حينما عاش بيننا ثلاث سنوات في كلية الشريعة في جامعة قطر وكنت عميدها في ذلك الوقت،

وكذلك في الجزائر وقد بقى فيها خمس سنوات قاسى ما قاسى من المتشددين والمتطرفين، وكان مهمته: أن يبذر بذور الاعتدال والتسامح، والحوار بالعقل، الفكر مع الشرع والنقل، هكذا كان الشيخ الغزالي.

لو كان الشيخ الغزالي متطرفاً ما دعتة البلاد العربية والإسلامية إليها، كان يدعى في كل سنة هنا في رمضان إلى قطر، وكان يدعى إلى الكويت، وكان يدعى إلى السعودية، وقد نال جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، وقد وافاه الأجل حينما كان مدعوا في مهرجان «الجنادرية» وأصابه ما أصابه حينما سمع ما ينال الإسلام، وقد كان الرجل ينتفض انتفاضاً حينما يسمع أي كلمة تمس الإسلام، يغضب ويزار زارة الليث، ولا يقف في وجهه أي أحد حينما يغضب الإسلام، هذه الغضبة الأخيرة أجهزت عليه رحمه الله، فمات وكأنما السيف في يده، مات وهو شاهر سيفه في المعركة للدفاع عن الإسلام، عاش عمره للإسلام.

الغزالي نصير المستضعفين:

عاش الشيخ الغزالي منذ عرفناه شاباً صغيراً متخرجاً في الأزهر الشريف، يكتب بقلمه، ويخطب بلسانه، يدافع عن الطبقات الضعيفة الكادحة، لا زلت أذكر كلماته في مقدمة كتابه «الإسلام والمناهج الاشتراكية» وهو يدعو الفقراء والمستضعفين، ويقول: يا ضحايا الفقر والجوع والحرمان: هُبُوا، إن الشفاه التي تأمر بإذلالكم يجب أن تُقص، وإن الأوضاع الظالمة التي تجتاحكم يجب أن تُقصى، وإن الفراغ الذي خامر بطونكم وأفندتكم يجب أن تنزاح غُمَّته إلى الأبد.

هذا هو الغزالي نصير المستضعفين في الأرض من أول يوم، نصير المرأة التي ظلمها الناس، من أوائل كتبه كتاب: «من هنا نعلم» وقد رد فيه على الشيخ خالد محمد خالد وكان صديقاً له، ولكنه حينما رآه انحرف عن الجادة وكتب كتابه «من هنا نبدأ» وفيه هاجم الحكم الإسلامي، وهاجم فيه العدالة الإسلامية، وسماها اشتراكية الصدقات ... إلخ. وقف الشيخ الغزالي يرد عليه، ويبين خطأه، ويذكر الصواب، فالحق أحق أن يتبع، ولا ينبغي للإنسان أن يخاف في الله لومة لائم.

جهاد الغزالي ضد الاستبداد السياسي:

وقف الشيخ الغزالي ضد الطغيان والاستبداد، كنا نحن في معتقل الطور سنة (1949)، وكان يحاضرنا يلقي علينا محاضرات في موقف الإسلام من الاستبداد السياسي، ونحن في المعتقل، لم يخف أن يتجسس علينا متجسسون، وأن ينقل ذل ناقلون، ويقول: إن هذا كلام ضد الحكومة، لم يبال بذلك، وظهرت بعد ذلك هذه المحاضرات ظهرت في كتاب «الإسلام والاستبداد السياسي».

من هم عداة الشيخ الغزالي؟:

وقف الشيخ الغزالي طول عمره منادياً بالإصلاح، منادياً بالتجديد، منوهاً بالشورى التي ينبغي أن تكون أساس الحياة الإسلامية {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى: 38] مقاوماً للطغيان والاستبداد أياً كان مصدره، منادياً بوحدة المسلمين في العالم، هكذا كان الشيخ الغزالي، ولذلك رحّب به المسلمون في أقطار الأرض مشارقها ومغاربها، أينما ذهب الشيخ الغزالي رحب به دعاة الإسلام، وعلماء الإسلام في كل مكان، فكيف يقول هؤلاء عن الغزالي ما

قالوه، كان الغزالي يتمثل رحمه الله ببعض أبيات من أبيات ديوان
«الحماسة» يقول:

لقد زادني حبًا لنفسي أنني بغيض إلى كل امرئ غير
وإني شقيٌّ باللئام ولا ترى شقيًّا بهم إلا كريم الشمائل
إني بغيض إلى كل امرئ غير طائل، ليس له طول ولا فضل، وكان
يحكي ما يقوله بعض السلف: حسبك نصرًا: أن خصمك يحارب الله ورسوله،
الذين يخاصمون الشيخ الغزالي من هؤلاء العلمانيين واللاذنيين إنما
يحاربون الله ورسوله، ويقفون ضد الشيخ الغزالي، لأنه وقف مدافعًا عن
الإسلام، عن دين الله، وعن سنة رسول الله، وعن كتاب الله، لم يهن يومًا،
ولم يُلقِ السلام يومًا، بل ظل مصابِرًا مرابطًا مثابِرًا إلى آخر رمق في حياته.
إننا يا أيها الإخوة الأحبة نعجب لهؤلاء الناس المتطاولين، الذين يملكون
أسنة طويلة، ويملكون عقولًا قصيرة، ويملكون همما واهنة، هؤلاء الناس
الذين يرضخون للغرب، وللتقافة الغربية، ولتيارات التغريب، ويهاجمون
الدعاة الأصلاء الذين يريدون لهذه الأمة أن تستمسك بالعروة الوثقى، أن تبقى
على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم،
ولا الضالين، نعجب لهؤلاء المتطاولين بالباطل الذي يقفون في وجه الجبال
الشم، ونقول لهم ما قاله الشاعر قديمًا:

يا ناطح الجبل العالي ليوهنه أشفق على الرأس لا تُشفق على
لن تستطيع أن تنطح الجبل، أشفق على رأسك إذا نطحت الجبل، هؤلاء
يناطحون الجبال، ولا يمكن أن ينتصروا في المعركة.

المستقبل للإسلام:

نحن مؤمنون بأن الغد لهذا الدين، والمستقبل لهذا الإسلام، وأن هذه الأمة إلى خير في جملتها، الصحوّة الإسلامية ظهرت ولا يمكن أن تخدم جذوتها، الشيخ الغزالي قام في الجزائر وهياً الله له صحوّة عظيمة، لا شك أنه كان أحد الأعمدة التي اعتمدت عليها هذه الصحوّة، والتي أثمرت ثمراتها، امتدت جذورها في الأرض، وبسقت فروعها في السماء، لأنها كانت {كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ 24 تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} [إبراهيم: 24، 25].

كنت أخطب في الجزائر في مثل صلاة الجمعة هذه، فيحضر في المسجد عشرات الآلاف، بعض المساجد من ثلاثة أوار، تمتلئ الأوار الثلاثة، والساحات حول المسجد، والطرق والميادين المؤدية إلى المسجد، حتى تتعطل المواصلات صحوّة لم أر لها نظيراً، وكان المفروض أن تؤتي هذه الصحوّة أكلها، وتحقق أهدافها، وأن يؤدي اختيار الشعب إلى من يختارهم الشعب، ولكن - للأسف - وقفت القوى المعادية للإسلام ضد هذه الصحوّة، وضد نتائجها المفترضة، صناديق الانتخاب أدت إلى اختيار مجموعة من الناس هذا هو حقهم، الشعب اختار فعليه أن يتحمل المسؤولية، ولكن هؤلاء وقفوا في وجه الشعب، وقطعوا عليه اختياره، قطعوا عليه الطريق وقالوا له: أنت لست أهلاً للاختيار، أنت لست راشداً، أنت في حاجة إلى وصاية، حينما اختار غير الإسلاميين كان الشعب راشداً، فلما اختار الإسلاميين كان الشعب طفلاً، وكان الشعب في حاجة إلى وصاية، هؤلاء يكيلون بكيلين، معاييرهم مزدوجة، لا يعرفون الحق الصحيح، ولا العدل الصريح.

ماذا نريد الصحوة؟

إننا نعتقد: أن الإسلام قادم إن شاء الله، كل ما ننصح به أهل الإسلام، ودعاة الإسلام: أن يحتكموا إلى الفهم الصحيح للإسلام، ألا تشغلهم الجزئيات عن الكليات، ولا يشغلهم الشكل عن الجوهر، ولا تشغلهم النوافل عن الفرائض، ولا تشغلهم المكروهات عن المحرمات، لا تشغلهم الصغائر عن الكبائر، لا يشغلهم المختلف فيه عن المتفق عليه، نحن في حاجة إلى فهم صحيح لهذا الدين في ظل التسامح⁽²²⁸⁾، نحن أولى الناس بالتسامح، نحن لا نعادي إلا من يعاديننا، ولا نحارب إلا من يحاربنا، وإلا فأيدينا مبسوطه لكل الناس وقلوبنا مفتوحة لكل الناس نسالم من سالمنا، ونسامح من سامحنا ولا نفرط في ذرة من ديننا، لا نبيع ديننا بملك المشرق والمغرب، هذا الدين أمانة في أعناقنا، وقد كلفنا الله تعالى أن نقوم على حراسة هذا الدين، وعلى حيابة هذا الدين إيماناً به، واتباعاً له، ودعوة إليه، وغيره على حرمانه، وجهاداً في سبيله، وسنظل كذلك حتى نلقى الله عز وجل .

الشيخ الغزالي أحد مجددى الإسلام:

يا أيها الإخوة: كان الشيخ الغزالي رحمه الله إماماً من أئمة هذه الأمة، كان من المجددين لهذا الدين، سمّاه أبوه محمد الغزالي، محمد الغزالي هو اسمه، ليس لقبه الغزالي، بل سمّاه أبوه محمد الغزالي أحمد السقا، أبوه اسمه: الشيخ أحمد السقا، لكن أباه أراد أن يكون لهذا الصبي - أو لهذا المولود - نفحة من الإمام محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد الغزالي حجة الإسلام

(228) انظر في شرح هذه المطالب التي يناشد الشيخ القرضاوي الصحوة الالتزام بها، كتابه الممتع: «الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد» طبعة دار الشروق بالقاهرة.

السابق، فسماه محمد الغزالي تيمنا بهذا، فعلاً كان غزالي عصره، وكان أحد المجددين لهذا الإسلام في القرن الرابع عشر الهجري، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»⁽²²⁹⁾ أنا من أنصار أن «من» في هذا الحديث للجمع وليس للمفرد، «من» تصلح للفرد وتصلح للجمع {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97] فأعاد عليها الضمير بالجمع، ولذلك الذين يجددون الدين هم جماعة، جماعات من الناس، وليس فرداً واحداً، ولا شك: أن الشيخ الغزالي أحد هؤلاء الأفاضال الذين أسهموا بجهد مشكور في خدمة الإسلام، وتجديد الإسلام.

نسأل الله تعالى: أن يغفر للشيخ الغزالي ويرحمه، ويتقبله في الصالحين، ويجزيه عما قدّم لدينه ولأوطانه ولأمته خير ما يجزي به العلماء العاملين والدعاة الصادقين، وأن يبوء أولئك المتطاولون المتبحرون بإثمهم، ويجزيهم الله بما يستحقون، اللهم آمين⁽²³⁰⁾.

(229) رواه أبو داود في «الملاحم» (4270)، والحاكم في «مستدركه» (522/4)، والبيهقي في «السنن والآثار» (52)، وذكره الألباني في «الصحيحة» (599)، وعزاه إلى أبي عمرو الداني في «الفتن». راجع تخريجنا للحديث في كتابنا «من أجل صحوة راشدة تجدد الدين ... وتنهض بالدين» (ص11) ط. دار الشروق.

(230) لمزيد من التفصيل حول الغزالي وفقهه وعلمه وجوانب من حياته: انظر ما كتبه الشيخ القرضاوي في كتابه الحافل «الشيخ الغزالي كما عرفته ... رحلة نصف قرن» طبع دار الشروق بالقاهرة، وانظر كذلك: الرثاء الذي كتبه الشيخ القرضاوي إبان وفاة الشيخ الغزالي، انظر: «في وداع الأعلام» للشيخ القرضاوي. طبعة: دار الفكر المعاصر بدمشق وبيروت.

الخطبة الثانية:

تحذير لأهل فلسطين من التفرق والفتنة:

أما بعد: فيا أيها الإخوة المسلمون: أتابع - ويدي على قلبي - ما يجري من أحداث على أرض فلسطين الحبيبة، فأنا من أحرص الناس على ألا يواجه الفلسطيني الفلسطيني، وألا تمتد يد الفلسطيني إلى أخيه، وألا يوجه السلاح إلى صدر فلسطيني آخر، ما أحوج هذا البلد الكريم إلى أن تتحد قواه في مواجهة ذلك الاحتلال الصهيوني الغاشم، الذي يراوغ ويلاوع ويكايد، ويأخذ ولا يعطي شيئاً، ويريد هؤلاء: أن يشغلونا بعضنا ببعض، أن يشغلونا بأنفسنا ليستفيدوا من وراء الخلاف والصراع، هم الوحيدون الكاسبون والمستفيدون من صراع القوى الفلسطينية بعضها مع بعض، ويجب على إخواننا الفلسطينيين أن يدركوا هذه الحقيقة، وما أظنها تغيب عنهم، فهي لا تغيب عن عاقل أبداً.

نريد للإخوة الفلسطينيين ما قاله الشيخ أحمد ياسين، فقال: لن تمتد يدنا بالعدوان إلى أحد من أهل فلسطين، مهما أصبنا، ومهما نزل بنا، سنظل كخير ابني آدم الذي قال له أخوه: لأقتلنك، فقال: {لِنُنْ بَسَطَتِ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [المائدة: 28] لا ينبغي أن نستسلم لهذه التيارات التي تريد أن تصب الزيت على النار، فقد قيل: إن إسرائيل، وإن رصاصات إسرائيل هي التي قتلت اثنين من الفلسطينيين أول أمس، قال بعضهم: إن ذلك من السلطة الفلسطينية، وقال بعضهم: إن هذا من إسرائيل، ولا يُستبعد ذلك، لا نستبعد على إسرائيل أن تعكّر المياه لتصطاد، وأن تصطاد في الماء العكر، وأن تنتهز الفرصة لتزيد الفرقة، وتعمق الفجوة،

وتوسع الفجوة، هذا ما ينبغي أن نحذر منه.

إننا حراس على أي دم فلسطيني أن يراق، ولذلك حزنت كل الحزن حينما قتل اثنان من الفلسطينيين، وحزن كل الحزن حينما قرأت اليوم: أن (85) جُرحوا في رفح، ولا زلت أخاف أن ينفذ حكم الإعدام في الأخ العطار الذي حكمت المحكمة بإعدامه، وأملنا في الرئيس الفلسطيني أن يلقي الأمر بشجاعة وحكمة ويعرف قدر هذا الموضوع، ويطفئ الناس في مهدها قبل أن يتطاير شررها ويتفاقم خطرها، وتأتي بأسوأ العواقب والنتائج.

أسأل الله: أن يسدده، وأن ينير طريقه، فلا يوافق ولا يصدق على هذا الحكم بالإعدام، ويتفادى الخطر قبل وقوعه، اللهم آمين.

* * *

(16)

استنكار رواية «وليمة لأعشاب البحر»⁽²³¹⁾

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

همّ ثقافي يضاف إلى همومنا:

خلال الأسابيع الماضية كانت أمتنا مشغولة بقضية ضُمت إلى قضاياها، وهم أضيف إلى همومها، هم ثقافي يتعلّق بالثقافة والأدب، إضافة إلى الهموم التي تتعلق بالاقتصاد والسياسة والمصير.

هذا الهم الثقافي هو تلك الرواية التي نشرتها وزارة الثقافة المصرية، وهي الرواية التي تسمى: «وليمة لأعشاب البحر» - ولا أعرف معنى هذا العنوان - لكاتب سوري لم نسمع عنه من قبل، ولكن هذه الرواية وما جرى حولها شهرته، وجعلته على كل لسان وعلى كل قلم وفي كل صحيفة وفي كل قناة فضائية.

هذه الرواية التي تحدثت عنها المتحدثون وقدها الناقدون لم أشأ أن أتحدث عنها حتى أراها، فعلمأونا قالوا: الحكم على الشيء فرع عن تصوره. لا يجوز أن نتكلم عن شيء كهذا مما ذكره الناس عنه، وإن كان هؤلاء الناس

(231) ألقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة بتاريخ 1421/2/15 هـ - 2000/5/19 م. وللشيخ فتوى أيضاً حول هذا الموضوع نشرت في الجزء الثالث من كتابه «فتاوى معاصرة» (ص 711 - 717).

ثقات.

وطلبت من أحد الإخوة أن يحضر لي نسخة من هذه الرواية، وقرأت ما يقارب نصفها، أغلب نفسي وأنا أقرأها فهي من أول صفحة تُقرز نفس الإنسان المؤمن. رواية لا تعرف شيئاً اسمه «الحرام»، ولا تعرف شيئاً اسمه «العيب»، ولا تعرف «الله» ولا تقدره حق قدره.

ولا عجب فقد كتبها إنسان نصيري العقيدة، شيوعي الفكرة. وعقيدة الإنسان الدينية والأيدولوجية تنضح على فكره، وتنضح على كتابته، وتنضح على أسلوبه، وكل إناء بالذي فيه ينضح، هذه حقيقة.

ولكني سأجاوز عن عقيدة الرجل الدينية والأيدولوجية ونحاكم النص الذي كتبه.

لم أستطع أن استمر في أكثر من النصف، وقد بلغ الاشمزاز مني مبلغه، واكتفيت بتصفح الباقي، وكلما تصفحت هذه الرواية وجدت فيها أشياء وأشياء، ينكرها الدين، وينكرها الخلق، وينكرها العقل، وتنكرها الأعراف، كل ما فيها والعياذ بالله منكر.

وجدت فيها أكثر مما انتقد عليها الناقدون، هناك أشياء كثيرة في السطور وما بين السطور.

هل يعبر أشخاص الرواية عن فكر الكاتب؟

قالوا: إن ما ذكره الكاتب إنما ذكره على ألسنة شخصيات الرواية! ونحن نعرف أن الرواية قصة يتخيلها الكاتب، وقد يكون لها أصل في الواقع، وقد لا يكون. هو الذي يرسم صورتها: مبدأها ونهايتها وعقدها وحلها، وهو الذي

ينشئ شخصياتها ويُنطق هذه الشخصيات بما يريد أن تنطق به، تعبر عما في نفسه أو تعبر عن هذه الأشخاص. وإذا كان له فكره معينة فهو يجريها على لسان أحد الأشخاص، ويقوي هذه الفكرة، ثم يأتي الرد عليها من الطرف الآخر ضعيفاً، أو لا يأتي رد عليها قط. هذه حيلة نعرفها عند القصاصين والروائيين.

بعضهم يقول: يا أخي، ألم يذكر الله تعالى أقوال المشركين والدهريين واليهود والنصارى وغيرهم؟ قلت له: نعم: يذكرها ولكنه يرد عليها، انظر إلى مناظرة إبراهيم لنمرود: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهٖ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: 258]. الرجل ينكر الألوهية ويدعي أنه هو الإله وهو الرب الذي يحيي ويميت، ولكن إبراهيم أفحمه، قال له: {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}.

لا مانع أن تذكر آراء الآخرين، ولكن أعط للخصم من القوة ما يرد به على صاحب الفكرة المناوئة للدين، والمناوئة للألوهية، والمناوئة للأخلاق. هذا الكتاب لم يفعل ذلك.

حرية الإبداع وحدودها:

قالوا: إن الكاتب حرّ في إبداعه، ومن حق الأديب المبدع أن يقول ما يشاء! ولكن هل هذه حقيقة؟ هذه يجرننا إلى قضية حدث فيها خلاف منذ نحو ثلث قرن في مصر: هل الأدب للأدب أم الأدب للمجتمع؟ هل الفن للفن أو

الفن للحياة؟ ولا شك أن الفن للحياة، والأدب للمجتمع.

الأديب لا يكتب لنفسه، وإنما يكتب لقومه ... لأهله ... لأمته، وإلا معنى هذا كان الأدب مفصلاً عما حوله، كان الأديب يعيش في صومعة لنفسه ويكتب ضد ما يؤمن به قومه.

أهذا هو الأدب؟

ثم إن حرية الإبداع هل تعني حرية مطلقة؟ هل في الوجود حر حرية مطلقة؟ لا، إن السيارات في الطريق محكومة بقوانين المرور، والبواخر في المحيطات الهائلة محكومة بخطوط السباحة، والطائرات في الجو ... في السماء ... في الفضاء محكومة بخطوط جوية ينبغي أن تسير فيها، والكواكب والنجوم في أفلاكها محكومة بمداراتها {كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء: 33]. لو أن باخرة خرجت عن الخط ربما اصطدمت بجبل من الثلج، لو أن طائرة خرجت عن خطها ربما اصطدمت بطائرة أخرى.

كل شيء في الوجود له أصول تحكمه، والإنسان له أصوله. الحيوان حر يفعل ما يشاء، يستطيع الحمار أن يبول في الطريق وأمام الناس، ولكنك أيها الإنسان العاقل لا تستطيع أن تبول في الطريق.

الإنسان تحكمه أعراف وأخلاق وقيم وعقائد، ليس الإنسان حرًا في أن يفعل ما يشاء. هل من حق الإنسان أن يقف عاريًا في ميدان من الميادين ويقول: أنا حر؟ لو فعل ذلك لرجمه الناس بالحجارة حتى الأطفال وحتى الشيوخ وحتى النساء.

فإذا كان من حق الإنسان ألا يعري جسده أمام الجمهور، فهل من حقه أن

يعري أدبه ويعري فنه أمام الناس؟ إن العُرى الفضائحي الذي في هذه الرواية ... في أهدافها وأسلوبها وكتابتها، أشد من العُرى الجسدي.

هل من حق الإنسان المبدع أن يتجرأ على الله، وعلى رسله، وعلى كتبه، وعلى اليوم الآخر، وعلى القيم والدين والأخلاق، كما يفعل هذا الكاتب؟
أيستطيع أن يقول ذلك لرئيس دولته ويتجرأ عليه؟ أم أن الدين و«الله» والكتب والرسل أصبحت «الحائط الواطي» التي يتجرأ عليها كل الناس؟! وصدق الشاعر وليد الأعظمي حينما قال في إحدى قصائده:

يُساق للسجن من سب الزعيم ومن سب الإله فإن الناس
إذا سب أحد الزعيم سيق إلى السجن، أما إذا سب الله فالناس أحرار يا
أخي! تريد أن تقيد الناس في حرياتهم فلا يسبوا الله؟!

أهذه هي حرية الإبداع أن يُسف الإنسان وينقل أحط ألفاظ الشوارع، وأحط عبارات السفلة من الناس، ينقلها بحذافيرها بألفاظها الفاضحة في كتابه الذي يُنشر على الناس؟

نحن في خطاب بعضنا لبعض وإن كنا أصدقاء أو أهلاً نتعفف أن نذكر هذه الألفاظ القبيحة العارية فيما بيننا، فكيف يأخذ الكاتب هذه الألفاظ وينقلها في كتابه؟ أنا أستحي أن أذكر هذه الألفاظ وهذه العبارات، أستحي أن أذكرها وهي كثيرة، ألفاظ عارية فاضحة قبيحة.

الكاتب المبدع بين الإسفاف والرقي:

الكاتب المبدع الحق هو الذي تكون له مصفاة، يصفى هذه الألفاظ وينقل مضمونها إلى قارئه بما لا يجرح مشاعره، ولا يחדش الحياء العام. إن مثل

هذه الروايات يقرأها المراهق، وتقرأها المراهقة، وتقرأها الفتاة العذراء، ويقرأها الناس في بيوتهم، فلا بد أن نراعي الحياء العام.

هل من مهمة الأديب أن يرتقي بالسفلة من الناس إلى العلية؟ أم ينزل بالعلية إلى حضيض السفلة ... يهبط بالمجتمع إلى الدرك الأسفل حتى يتداول هذه الألفاظ القبيحة التي يذكرها الكاتب؟

أي إبداع هذا الذي يذكرونه؟

لقد رأينا كثيرًا من القصاصين الكبار يذكرون النواحي الجنسية ويتحدثون عن الزناة والشذاذ واللواطين وتجار المخدرات ومدمني المخدرات، ولكنهم لا يذكرونها بهذه الألفاظ المسفة العارية. رأينا ذلك في قصص محمود تيمون وتوفيق الحكيم ومحمد عبد الحليم عبد الله والطيب صالح نجيب الكيلاني ويوسف السباعي وإحسان عبد القدوس، رغم أنهم ذكروا أشياء كثيرة تحدث في الفراش، ولكن لم يجرؤ أحدهم ولم يلق بأحدهم أن ينزل إلى مثل هذا الدرك.

قالوا: إن في أدبنا أشياء مكشوفة مثل ما قاله امرؤ القيس ونحوه، ومثل ما ورد في خمريات أبي نواس أو في التغزل في الذكور. لكن هذه الأشياء في أدبنا لا تمثل الاتجاه العام، وليس لها أثر في مجرى الحياة، لأنها كانت أشياء خاصة تتداول بين الناس في مجالسهم، أو يقرأها بعض الناس في كتبهم، وكانت الكتب محدودة الانتشار لأنها كانت تنسخ نسخًا وغالية الثمن، فكان الذين يقرأونها محدودين جدًا، ومع هذا لم يخلد امرؤ القيس بقوله في معلقته:

تقول وقد مال الغبيط⁽²³²⁾ بنا عقرت بعيري يا امرأ القيس
لم يخذ امرؤ القيس بمثل هذا الإسفاف المكشوف، إنما خلد امرؤ القيس
بقصائد أخرى وأبيات أخرى كقوله:

ولو أنني أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليلاً من
ولكنما أسعى لمجد مؤثّل وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالي
كان امرؤ القيس في شبابه رجلاً ماجناً، حتى إنه حينما أبلغ بقتل أبيه وكان
في مجلس سُكر قال كلمته الشهيرة: اليوم خمر وغداً أمر! نكمل مجلس
الأنس إلى النهاية، لم يدع كأسه وشرابه حتى بعد أن عرف بمقتل أبيه.

لماذا نذكر مثل هذا، ولا نذكر ما قاله امرؤ القيس حينما قال:

بكي صاحبي لما رأى الدرب وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له: لا تبكي عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا؟
لماذا لا يذكر هؤلاء قول عنترة العبسي:

أغشى فتاة الحي عند حليلها وإذا غزا في الجيش لا أغشاها
وأغض طرفي إن بدت لي حتى يوارى جارتى مأواها؟
هذا هو شعر الجاهلية ... شعر عنترة ... شعر زهير بن أبي سلمى ...
شعر غيرهم من هؤلاء.

الاتكاء على الثقافة الشاذة:

لماذا يريدون أن يتكئوا على الجانب السلبي في التراث ... على الأشياء

(232) الغبيط: الرجل، وهو النساء يشد عليه الهودج، والجمع: عُبط.

الشاذة ليحاكوها، ويجعلوا منها أسوتهم؟

كل ثقافة في الدنيا فيها أشياء شاذة، ولكن هذه الأشياء الشاذة ينبغي أن لا تكون هي الإمامة للناس، هي نقطة ضعف، فينبغي أن توضع في موضعها، وتُحجم في محلها، ولا تُعطي أكثر من مساحتها.

هؤلاء الذين يدعون الإبداع، أي إبداع في التطاول على الله تعالى، والتطاول على كتبه، وعلى القرآن الكريم؟ هم لا يتطاولون على كل الكتب ولا على كل الرسل! ولو حصل تطاول على التوراة أو الإنجيل أو على المسيح عليه السلام ما جرؤت وزارة الثقافة في مصر أن تنشر هذا! إنها تراعي خواطر المسيحيين! أما المسلمون ... أما الأكثرية هؤلاء فليس لهم وزن، وليس لهم قيمة ولا اعتبار!

أي هوان بهذه الأمة: أن تُهان مقدّساتها ولا تغضب لربها؟!

هل طلاب الأزهر ظالميون؟!

لقد عابوا على شباب الأزهر ... على طلابه وطالباته أن غضبوا لهذا الدين! وهل يُلام الإنسان إذا غضب لدينه؟ إذا سرت في الشارع ومعك زوجتك أو ابنتك أو أختك، ثم اجترأ عليها واحد من أولئك الفاسقين فنبذها بكلمة نابية جارحة، ألا تغار لأختك أو لابنتك أو لمرأتك؟ ألا يثور الدم في عروقك؟ ألا تقف لهذا بالمرصاد؟ هذا ما يفعله الإنسان الحر، الشريف لا يقبل أن يُهان في عرضه، وربما دخل معركة ليس معه أسلحتها، ولكنه مضطر أن يدافع عن عرضه.

أكان الدين أهون على الإنسان من العرض؟

أكان الله تعالى وقرآنه ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم أهون لدى
الإنسان المسلم من الغيرة على امرأته وابنته وأخته؟

لقد كان طلبة الأزهر وطالباته معذورين حينما سمعوا ما سمعوا، وقرأوا
ما قرأوا.

قالوا: إنهم لم يقرأوا هذا! وهل يجب أن يقرأ جميع طلاب الأزهر وطالباته
هذه القصة حتى يغضبوا من أجلها؟

لقد رأينا في «الأهرام» كاتبًا يدعون أنه تقدمي يدافع عن هذه الرواية
ويقول: أنا لم أقرأها! هو لم يقرأها، إنما يدافع عن هذا الخط الذي يسمونه
«الخط التنويري»! قال وزير الثقافة: إننا صار لنا بضع عشرة سنة ونحن
ننشر هذه الثقافة المستنيرة لنقاوم بها ثقافة الظالمين الرجعيين السلفيين!

أنا وأنت وأنتم أيها الإخوة ظالميون! كل من يتمسك بكتاب الله وسنة
رسوله وبفهم القرون الأولى من هذه الأمة وهم خير القرون، كل هؤلاء
ظالميون! أنا ظلامي، وأنت ظلامي، الأزهر ظلامي، شيخ الأزهر ظلامي،
مجمع البحوث في الأزهر ظلامي، رئيس جامعة الأزهر ظلامي، اللجنة
الدينية في مجل الشعب ظلامية، جريدة الشعب ظلامية، حزب العمل
ظلامي، الجمعيات الإسلامية في مصر كلها ظلامية، خطباء المساجد على
المنابر ظالميون!!

من هم إذن أهل النور إذا كان هؤلاء جميعًا ظالميين؟

وزير الثقافة وحده هو الذي يحمل النور ... الثقافة المستنيرة!

والثقافة المستنيرة هنا أيها الإخوة، هي الثقافة التي تسخر بالدين، وتستهيئ

بالقيم الدينية، تسخر من الله، ومن رسل الله، ومن كتب الله. وظهرت في ذلك كتب وقصص وروايات سكت الناس عليها دهرًا من الزمن، ثم كان لا بد أن يحدث الانفجار، إذا اشتد الضغط وتوالى الضغط لا بد أن يولد الانفجار، ومن استغضب فلم يغضب فهو حمار.

استغضب الناس فغضبوا لدينهم، وأنا لا أرى في تظاهر الطلاب شيئًا منكراً إذا كان تظاهرًا سلميًّا. يجب أن نعود أمتنا ما ت عودته أمم الحضارة من التظاهر السلمي⁽²³³⁾.

كنا طلابًا في المعاهد الدينية الابتدائية والثانوية وفي كليات الأزهر، وكنا نخرج نحتج على كل أمر يخالف الدين، أو كل أمر يهتم به المسلمون، وكل قضايا المسلمين. خرجنا من أجل كشمير ... من أجل تونس والجزائر ومراكش وسوريا ولبنان وفلسطين. الطلاب هم نبض الأمة، لا يستطيعون أن يعيشوا بعيدًا عنها.

كل ما نمعه هو: التخريب ... أن يتحول التظاهر إلى تخريب. أما التظاهر السلمي فلا مانع منه.

لقد رأينا الناس في «سياتل» بالولايات المتحدة أهل الشارع يخرجون ليحتجوا على تلك المنظمة الدولية التي تبيح كل شيء، وتذيب الفوارق والجمارك بين الناس، وتضغط على الدول الضعيفة لمصلحة الدول القوية ... إلخ. خرج الناس في «سياتل» واستطاعوا أن يعطلوا اجتماع ذلك المؤتمر

(233) لفضية شيخنا فتوى عن المظاهرات السلمية ومشروعيتها، وهي ضمن الجزء الرابع من «فتاوى معاصرة» تحت الطبع.

العالمي، ولم يقل أحد إن هؤلاء غوغاء ... دهماء ... مأجورون ... يحركهم غيرهم. كذلك فعلوا في «واشنطن» وفي «باريس» وفي غيرها.

إن من حق الناس أن تغضب لدينها، خصوصاً الطلبة في الجامعات، هم أو عى الناس بهذه القضايا، وهم الذين يحملون الروح الثورية، هم الذين يتأججون من داخلهم، فمن حقهم أن يقولوا: لا، دون أن يدخلوا في تخريب أو يُستغلوا من الآخرين.

إنفاق مال الدولة على السّفه:

ماذا أستطيع أن أقول - أيها الإخوة - أما هذا الحدث؟ قد كان يمكننا أن نتغاضى عنه لو أن هذه الرواية نشرت باسم صاحبها، أو على نفقته، أو حتى على دار نشر خاصة، أما أن تنشر هذه الرواية مؤسسة من مؤسسات الدولة ... وزارة من وزارات الدولة تطبعها طبعة شعبية وتدعمها بأموالها، ستمائة وتسعون صفحة تُباع بأربعة جنيهات! لتعممها على الناس جميعاً ليقرأوها بثمن رخيص من أموال دافعي الضرائب. الشعب يدفع الضرائب، وهؤلاء يأخذون أموال الضرائب لينفقوها فيما يدمر عقائد الشعب، وقيم الشعب، وأخلاق الشعب، وتقاليد الشعب.

كان يمكننا أن نسكت لو أن هؤلاء نشروا هذه الرواية على نفقتهم، ويحكم في ذلك القارئ.

وأنا من سياستي ألا أتحدث عن هذه الأشياء لنألا أشهرها. كنت أتمنى أن لم يقف المسلمون من رواية سلمان رشدي هذا الموقف الذي نشرها في الأفاق وشهرها في العالمين، وطُبعت منها الملايين، ولكن هكذا يُقدر علينا.

لا يجوز لوزارة تحترم نفسها وتعمل من أجل الشعب: أن تنشر أشياء ضد قيم الشعب وعقائد الشعب ومقدسات الشعب، هذا لا يجوز بحال من الأحوال. ومن هنا كانت غضبة كل المثقفين المسلمين؛ إلا طائفة للأسف إما إنها جعلت دينها وتراثها، وإما إنها باعت نفسها لما تنتفع به من وراء هذه الوزارة. وأنا أعجب كل العجب لبعض اللجان التي تشكلها الوزارة تدافع عن مثل هذه الرواية الساقطة في مضمونها الساقطة في أساليبها.

من أول هذه الرواية: الشرب والنساء والخمر، وآخرها كذلك، حتى حينما تزوج الرجل العراقي بفتاته الجزائرية احتفلوا بشرب «الكونياك».

هذه هي السمة العامة في هذه الرواية، ليس فيها خشية لله، ولا توقير له، ولا اعتبار لحسابه، ولا ليوم الجزاء، ولا للجنة والنار، بل هي تسخر من هذا كله. سخرت من هذا في أماكن شتى وفي مواضع كثيرة، من ذلك:

ما جاء أن الرجل كان يقول لتلك المرأة العاهرة التي كان يصف جسدها وصفًا مكشوفًا: إن الذي يقف بيني وبينك هو أنفك هذا. قال: له: وماذا أفعل في أنفي؟ هذا خلقة ربي. قال لها: ربك إذن فنان فاشل! يعني لا يحسن التصوير. الله تعالى يقول: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ} [غافر: 64 - التغابن: 3]، {خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ 7 فِي أَيِّ صُوْرَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الانفطار: 7، 8]، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: 4]. وهذا يقول عن الله: فنان فاشل!

قالت اللجنة: إنه قال ذلك في مقام الدُّعابة والمزاح! يا عجبًا، هل هنا مقام دعابة ومزاح؟ الحديث عن الله جل جلاله يدخل فيه المزاح؟! الحديث عندنا

يقول: «ثلاث جدّهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والعتاق»⁽²³⁴⁾، فكيف بالله عز وجل؟ الله تعالى يقول في قوم من أمثال هؤلاء: {وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإلَهِ وَعَآيَتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ 65 لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [التوبة: 65، 66] قد كفرتم بهذا الاستهزاء بعد إيمانكم. ليس هناك دُعاية ومزاح في شأن الله عز وجل .

بل يقول هذا الإنسان في بعض مقاطع روايته: هؤلاء الناس يعيدوننا إلى الوراء مليون عام، هؤلاء الناس الذين يحكموننا بآلهة البدو وتعاليم القرآن في عصر الذرة والفضاء والعقل المتفجر هؤلاء «خرءاء»! مضطر أن أقول هذه الكلمة السخيفة. وكلمة «آلهة» تتردد كثيراً في كلام هذا الكاتب، إنه لا يؤمن بآله واحد، هناك آلهة، ويقول هنا: آلهة البدو، أي أن الله خالق السموات والأرض هو إله من آلهة البدو ورثناه نحن عن بدو العرب، وجاء به محمد من بدو العرب!.

وأحب أن أذكر أيها الإخوة أن الأمر قد فصل فيه مجمع البحوث الإسلامية. مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فصل في هذا الأمر وأصدر قراره، وهو الجهة العليا المتخصصة في هذا الأمر بحكم قانون تأسيسه، وبحكم فتوى مجلس الدولة التي صدرت سنة 1994م، وجعلت من شأن

(234) رواه ابن ماجه في الطلاق (2071) عن أبي هريرة، والترمذي في الطلاق (1184)، وقال: حديث حسن غريب، وقال ابن حجر في «تلخيص الحبير»: هو رواية عبد الرحمن بن حبيب بن أدرك، وهو مختلف فيه، قال النسائي: منكر الحديث، ووثقه غيره، فهو على هذا حسن. (1250/4)، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (1829)، ولشيخنا القرضاوي كلام طويل على هذا الحديث في كتاب «تيسير الفقه للمسلم المعاصر» (ص53).

الأزهر النظر في المؤلفات والمصنفات وإعطاء حق الترخيص أو رفض الترخيص لها، لأن كل ما يتعلق بالشأن الإسلامي هو من اختصاص الأزهر. بيان الأزهر حول الرواية:

هذا الأزهر أصدر أول أمس بيانه الذي أعلنه شيخ الأزهر الشيخ محمد سيد طنطاوي بوصفه رئيساً لمجمع البحوث، وقال بعد الديباجة: إنه كلف اثنين من أعضائه المتخصصين بكتابة تقريرين منفصلين عن هذه الرواية، وعرض هذا التقريران على المجمع في جلسة استثنائية ثم قرر إصدار هذا البيان:

أولاً: إن وزارة الثقافة التي نشرت هذه الرواية لم تستطلع رأي الأزهر الشريف أو مجمع البحوث الإسلامية؛ مع ما ورد فيها من أمور كثيرة تتصل بالإسلام والعقيدة والشريعة. يعني: الأزهر لا يطلب أن تعرض عليه كل رواية ولا كل قصة، إنما قصة فيها الحديث عن الدين والألوهية والكتب واليوم الآخر والأخلاق في مواضع شتى أظن أن وزارة مسئولة لا يخفي عليها أن مثل هذا ينبغي أن يُستشار فيه الأزهر ويؤخذ رأيه.

ثانياً: إن الرواية مليئة بالألفاظ والعبارات التي تحقر وتهين جميع المقدسات الدينية؛ بما في ذلك ذات الله عرعع والرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم واليوم الآخر والقيم الدينية، ومن ذلك أنها تستهزئ بذات الله مثل وصفه بأنه فنان فاشل (ص 219 ط. المصرية)، وأنه نسي بعض مخلوقاته في الأهوار وغيرها من تراكم مشاغله، التي لا تُعد في بلاد العرب وغيرها (ص 257)، وأنه أقام مملكته الوهمية في فراغ السموات ليدخل في

خلود ذاته بذاته (ص 426). كما يفترى على الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه تزوج أكثر من عشرين امرأة ما بين شرعية وخليلة ومتعة، وأنه كان يتزوج من عذاري القبائل بُغية توحيدها (ص 436، 437). وأنه حرف في آيات القرآن الكريم ونسب إليه ما ليس منه كقوله: والله تعالى قال في كتابه: إذا بُليتم بالمعاصي فاستنبروا.

كما أن الرواية تحرض صراحة على الخروج عن الشريعة الإسلامية، وعدم التمسك بأحكامها، وذلك بالدعوة إلى ضرورة الانفصال عن الدين والله والأخلاق والتقاليد والأزمنة الموحلة والجنة والجحيم الخرافيين وطاعة أولي الأمر والوالدين والزواج المبارك بالشرع - يجب الخروج على هذا كله - وسائر الأكاذيب والطقوس التي رسمتها ظهور الكذب «هذه عبارة الكاتب» (ص 348).

ثالثاً: إن الرواية خرجت عن الآداب العامة خروجاً فاضحاً، وذلك بالدعوة إلى الجنس غير المشروع، واستعمال الألفاظ في الوقاع وأعضائه الجنسية للذكر والأنثى بلا حياء، مما يعف اللسان عن ذكرها وكتابة نصها حفظاً على الحياء العام الذي انتهكته الرواية.

رابعاً: إن الرواية لم تكتف بذلك، بل حرّضت صراحة على إهانة جميع الحكام العرب موصوفين بأقبح وأقذع الأوصاف، مما يعف المقام عن ذكره.

خامساً: اتضح لمجمع البحوث الإسلامية من كل ما سبق أن ما ورد برواية «وليمة لأعشاب البحر» لمؤلفها «حيدر حيدر» خروج عما هو معلوم من الدين بالضرورة، وانتهاك للمقدسات الدينية والشرائع السماوية والآداب

العامّة والقيم القوميّة، ونشر الفتن، وزعزعة تماسك وحدة الأمة التي هي الركيزة الأساسيّة لبناء الدولة.

ويقع على عاتق من نشروا هذه الرواية دون استطلاع رأي أهل الاختصاص المسئولية الكاملة عن هذا التجاوز والآثار المترتبة عليه دينياً واجتماعياً وذلك على النحو الموضح تفصيلاً بالتقريرين المقدمين من عضوي مجمع البحوث الإسلاميّة المشار إليهما.

والله ولي التوفيق

شيخ الأزهر

إني من هنا أحي الأزهر، وأحي شيخ الأزهر على رغم اختلافي معه في قضية الربا وغيرها، وأحي جامعة الأزهر ورئيس جامعة الأزهر، وأحي طلاب الأزهر وطالبات الأزهر، وأحي جريدة الشعب، وأحي الكاتب الإسلامي محمد عباس الذي صرخ في الأمة يقول: لا إله إلا الله ... لا إله إلا الله ... من يبايعني على الموت؟ غضب الرجل لدينه، ما غضب لندنيا، وما غضب لمصلحة شخصية، إنما غضب لربه، وربما في غمرة هذا الغضب خرجت منه بعض ألفاظ عن بعض الناس، ولكن الإنسان في حالة غضبه يقول ما قد لا يُحمد في بعض الحالات.

أحي هؤلاء الذين وقفوا ضد هذا الكذب، أحي الشاعر الكبير فاروق جويده لما كتبه في جريدة الأهرام، أحي المثقفين الشرفاء الذين وقفوا ضد هذا الباطل وضد هذا الفجور الأدبي، أحي كل الذين يحترمون عقائد الأمة ومقدساتها.

أحي كل هؤلاء الناس، وأقف معهم بكل قوتي، أشد أزرهم، وأسند ظهورهم، وأقول الحق لا أخاف في الله لومة لائم.

نداء لرئيس مصر «مبارك»:

وننادي من هنا الرجل المسئول الأول في مصر، وهو الذي يستطيع أن يضع حدًا لهذا الأمر: الرئيس حسني مبارك، أناديه أن يوقف هذه الموجة الثقافية الفاجرة عند حدها، وأن يعيد الثقافة إلى حقيقتها.

لا يجوز أن تنقسم الأمة قسمين: قسم مع الثقافة الغربية أو المستغربة، الصادة عن سبيل الله، والسائرة في ركاب الشيطان. وقسم مع القيم الدينية، مع الله، ومع رسله، ومع كتابه، ومع الربانيين.

لا يجوز أن نقسم الأمة هذه القسمة، وإنما ينبغي أن تسير الأمة وخصوصًا في هذا الوقت الذي نعيش فيه في هذا الزمان التعيس الزمان الذي استعلت فيه إسرائيل وبغت فيه وطغت ينبغي في هذا الوقت أن نضم صفوف الأمة بعضها لتقف كالبنيان المرصوص يشد بعضها بعضًا.

الكلمة لقائد المسيرة في مصر: الرئيس حسني مبارك، أسأل الله أن يهديه سواه السبيل، وأن يوفقه لموقف الحق الذي لا يخاف في الله لومة لائم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجيب لكم.

الخطبة الثانية:

حول الخلاف بين الترابي والبشير في السودان:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لا أستطيع وإن كنت مهمومًا بهذا الهم الثقافي الذي شغلنا طوال هذه المدة، وبهذا الأمر الذي لا يُعتبر في الحقيقة من الثقافة وإنما هو من السخافة، ولا يعتبر من الأدب بل هو من قلة الأدب، لا أستطيع وأنا مشغول بهذا الأمر أن أنسى همومًا أخرى من هموم هذه الأمة.

وأول هذه الهموم التي أرقنتني في ليلي، ونغصت علي نهاري، هو: هم إخواننا في السودان. هؤلاء الإخوة الذين احتضنوا المشروع الإسلامي في السودان، وأقاموا تجربة فذة، يعلمون فيها الناس أن يأكلوا مما يزرعون، وأن يلبسوا مما يصنعون، وأن يستهلكوا مما ينتجون، ووسوعوا آفاق التعاليم الإسلامية لتربي الشخصية المسلمة على أساس من الإسلام، وأنشأوا جيش الدفاع الشعبي من الشباب المتطوع ليقف أمام الدبابات بروحه ... بنفسه، قالوا: إذا كان هؤلاء الذين تؤيدهم أمريكا والدول الغربية معهم دبابات فإن عندنا «دبابين». وقف الشباب الذين سموا أنفسهم «الدبابين» بأواحهم ... بأكفهم ... برؤوسهم أمام الدبابات، وقف «الدبابون» أمام الدبابات.

هذه الثورة الإسلامية تتعرض الآن لمحنة أي محنة، ولفتنة أي فتنة، فتنة الاختلاف والتفرق وفساد ذات البين، وهذه مصيبة أيها الإخوة: أن الذين وقفوا صفاً واحداً بالأمس يختلفون اليوم ويتفرقون شذر مذر، هذه مصيبتنا.

فعلنا ذلك في أفغانستان، الذين حاربوا السوفيت ... حاربوا الطائرات من

الجو والدبابات في البر ... حاربوا أكثر من مائة ألف جندي بأسلحتهم الحديثة المتطورة وانتصروا عليهم، هؤلاء لم ينتصروا على أنفسهم، وظلوا يتقاتلون بعضهم بعضاً، وإلى اليوم لم تنته المشكلة وإن كنا نرى بشائر نسال الله أن تتم إلى خير.

لماذا نحسن أن نموت في سبيل الله ولا نحسن أن نعيش معاً في سبيل الله؟ في حالة الجهاد والموت نقدم أرواحنا، فإذا ما أردنا أن نعيش معاً اختلفنا وتفرقنا! ألا يوجد عندنا معايير نحتكم إليها ونرجع إليها عندما نختلف؟ ألا نستطيع أن نقيم من الآليات ما يجعلنا يرد بعضنا على بعض ويحاور بعضنا بعضاً ثم نحكم الأغلبية؟ لماذا لم نستطع أن نفعل ما يفعله الغربيون؟ الغربيون يختلف بعضهم مع بعض، ويعارض بعضهم البعض، ولكنهم لم يفعلوا ما نفعل نحن المسلمين.

إن ما يجري في السودان الآن يتقطع له قلبي زفرات، وتذهب نفسي عليه حسرات، وتترقرق عيني له عبرات. إن ما يجري في السودان يفتت الأكياد، ويقطع نياط الفؤاد.

إن الخلاف شر، والفرقة فتنة، والله تعالى يقول: {وَلَا تَنَزَعُوا فِتَنَافِسُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: 46].

لقد قالوا: إن الثورات كثيراً ما تأكل أبنائها. ولكن كيف يكون الحال إذا أكلت الثورات آباءها؟ إذا أكلت الثورة آباءها ماذا بقي؟

إننا نهيب بأبناء الثورة الإسلامية في السودان أن يتقوا الله في أنفسهم، ويتقوا الله في مشروعاتهم، ويتقوا الله في المسلمين في العالم الذين طالما تكبوا

بما يرون من خسار المشروعات الإسلامية واحداً بعد الآخر. إنني أهيب بالإخوة في السودان أن يتقوا الله في ذلك.

وأنا ذاهب إلى السودان إن شاء الله، وبعض الإخوة قالوا لي: لا داعي لأن تذهب، لقد أعلن البشير أنه لا يقبل الوساطة، وأعلن الترابي أن أحداً لا يقبل الوساطة، فلماذا تذهب؟ ولكني أذهب استجابة لقول الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: 10]. {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنفال: 1]. والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»⁽²³⁵⁾ وفي رواية: «لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

إننا نريد أن لا تحدث هذه الحالقة، وأن يصلح الله ذات بين الإخوة هناك، وأن يهزم الشيطان الذي يريد أن يفرق جماعتهم ويشتت شملهم، والله عسعع يقول: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: 105]، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»⁽²³⁶⁾.

(235) رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث صحيح، وابن حبان في «صحيحه»، عن أبي الدرداء رضي الله عنه. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (738/2) برقم (1695). ورواه أبو داود في الأدب (4919) عن أبي الدرداء، والترمذي في البر والصلة (2511)، وابن حبان في «صحيحه» (5092)، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح على شرطهما. وانظر: المنتقى للقرضاوي (1695).

(236) رواه البخاري في الخصومات (2410) عن عبد الله بن مسعود.

عباد الله، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 45].

* * *

(17)

الأمّة الإسلاميّة: حقيقة لا وهم⁽²³⁷⁾

الخطبة الأولى:

أما بعد: فيا أيها الإخوة المسلمون:

يسعى الإسلام في أحكامه وشرائعه وتوجيهاته إلى تكوين الإنسان الصالح، وتكوين الأمة الصالحة، وحديثنا اليوم عن الأمة التي يكونها الإسلام.

الإسلام لا يكتفي بأن ينشئ فردًا صالحًا في نفسه، داعيًا لغيره، ولكنه يسعى إلى أن تكون هناك أمة تحمل رسالته إلى العالمين، تشيع رحمة الله العامة في الناس جميعًا، يعيش الفرد المسلم في ظلها ملتزمًا بالإسلام عقيدة وعبادة ومنهaja للحياة. الأمة التي يريد الإسلام أمة واحدة، فالإسلام يسعى إلى توحيد المعبود، وتوحيد العابدين، يقول الله تعالى: {وَكذلك جَعَلنَا أُمَّةً وَسَطًا لِنَتَّوَنُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: 143]، {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110].

أمة واحدة ذات شعوب متعددة، كذلك قال الله تعالى: {يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات: 13]، لهذا لا

(237) ألقى في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، في يوم الجمعة 7 من شعبان سنة 1424 هـ الموافق 3 من أكتوبر سنة 2003م.

يحسن أن نقول: الأمم الإسلامية ولكن نقول الأمة الإسلامية، والشعوب الإسلامية.

الأمة إسلامية حقيقة لا وهم:

هناك أناس يمارون في هذه الحقيقة ويقولون: لا توجد أمة إسلامية ولكن توجد أمة عربية، وأمة تركية، وأمة كردية، وأمة إيرانية، وأمة ماليزية. وأمة هندية، إلى آخر هذه الأمم. ونحن نقول: إن الأمة الإسلامية حقيقة وليست وهماً.

أمة بمنطق الدين:

هي حقيقة دينية، فإن الله عسع سمى المسلمين حيثما كانوا - عرباً كانوا أم عجماً، بيضاً كانوا أو سوداً، في مشرق أو مغرب - سماهم أمة، أمة وسطاً، خير أمة أخرجت للناس، هذه الأمة صنعها الله، الله هو الذي جعلها، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً} [البقرة: 143]، أمة أخرجت للناس، أخرجها مخرج، الله الذي أخرجها لتهدى الناس، وتنفع الناس، وتخرج الناس من الظلمات إلى النور، الله سماها أمة، هذه الأمة أمة بمنطق الدين. (238).

دعوة الدين المسلمين للوحدة:

فالدين هو الذي جعلها أمة، وأمرها بالوحدة، ونهاها عن التفرق والتنازع، {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: 103]، {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: 103].

(238) لمزيد من التفصيل حول: حقيقة وجود الأمة الإسلامية، انظر: «الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم» للدكتور القرضاوي. نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

[105]، لا تكونوا من المشركين {مَنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم: 32]، {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [الأنعام: 159].

عوامل تقوية الوحدة بين المسلمين:

المسلمون ينبغي أن يكونوا أمة واحدة، هكذا أراد الله لهم، ولم لا تكون الأمة أمة واحدة وربها واحد؟! {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: 92]، {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون: 52]، كأنما يشير إلى أنه لا تتم العبادة، ولا تكمل التقوى إلا بالتوحد، فربها واحد ورسولها واحد، رسولها محمد صلى الله عليه وسلم، كلها تعلن هاتين الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، تسمعها كل يوم في أذانها خمس مرات، وفي إقامتها للصلوات، وفي تشهدها: التحيات لله، والصلوات والطيبات: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله. رسولها محمد يجسد الكمال الإنساني الذي جعله الله أسوة {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21].

عامل المرجعية الربانية الواحدة:

كتابها واحد، القرآن الكريم، يجمعها جميعاً كتاب الله، لا يختلف في ذلك اثنان، السنة والشريعة، كلها تقول: ما بين الدفتين كلام الله، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، لا خلاف بين مسلم ومسلم أن هذا كله كلام الله الذي {لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42]، إذا كان هناك بعض الشيعة يقولون: هناك زيادات، فهذا يرده المحققون

منهم،⁽²³⁹⁾ ويكفي أن المصحف الذي يطبع في قطر، ويطبع في السعودية، ويطبع في مصر، ويطبع في باكستان، هو نفسه الذي يطبع في إيران، هذا المصحف مرجع المسلمين جميعًا، كتابهم واحد.

كل الكتب حرّفت وبدلت وغيّرت تغييرًا لفظيًا، وتغييرًا معنويًا، إلا القرآن، ولا يمكن أن يضيع هذا القرآن، أو يحرف أو يبدل، وهناك الألوّف، وعشرات الألوّف، ومئات الألوّف يحفظون القرآن، يحفظونه في صدورهم لا يخرمون منه حرفًا، ولا يسقطون منه كلمة، حتى رأينا عجبًا، رأينا الأعاجم الذين لا يفهمون كلمة من العربية يحفظون هذا القرآن، كأن أحدهم شريط مسجل لا يسقط منه كلمة واحدة، ولو سألته: ما اسمك؟ لا يستطيع أن يجيبك، لأنه لا يعرف معنى سؤالك باللغة العربية.

الله حفظ هذا القرآن، فهذه الأمة ربها واحد، ونبينا واحد، وكتابتها واحد، وقبلتها واحدة، كلها تتجه كل يوم خمس مرات إلى البيت الحرام {وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [البقرة: 150]، بعض الغربيين تخيل أن يرسم للمسلمين صورة حول الكعبة المشرفة، فقال: لو اطلع واحد من فوق، ونظر إلى المسلمين في أنحاء العالم، وجدهم دوائر دوائر، حول الكعبة تنتسح الدائرة ثم تنتسح كلما بعدت عن البيت العتيق حتى تشمل العالم كله، نعم المسلمون في كل مكان دوائر حول الكعبة، الكعبة تجمعهم، ولا غرو أن سمي المسلمون

(239) ناقش أستاذنا الشيخ القرضاوي هذه المقولة، ناقشًا مستفيضًا، أتى فيها بنقول معتبرة عند أئمة الشيعة وفقهائهم، ترد هذا الكلام، انظر كلامه في: «مبادئ في الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية» ضمن مجموعة رسائل «ترشيد الصحوة». طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة.

أهل القبلة، فقبلتهم واحدة.

عامل وحدة الشريعة:

المسلمون أيضاً شريعتهم واحدة، الشريعة التي يحتكمون إليها كلهم شريعة واحدة، إذا سأل المسلم عن الحلال والحرام، عما يجوز وما لا يجوز، يرجع إلى الشريعة، وإلى أحكام الشريعة، وإلى علماء الشريعة {فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: 43].

عامل وحدة الشعائر العبادية:

الشعائر العبادية للمسلمين واحدة: الصلاة، الصيام، الزكاة، الحج، كلها واحدة، إذا أذن المؤذن في أي بلد من البلاد حي على الصلاة، حي على الفلاح، سارع المسلم - كان في آسيا في أفريقيا في أوروبا في أمريكا في استراليا - بالاستجابة لنداء الله، ووقف الناس في المساجد صفوفًا صفوفًا، زالت بينهم الفوارق، كان الشيخ عبد المعز عبد الستار ظلّظ يسمي المساجد: مصانع التوحيد، تصنع التوحيد بين المسلمين، يدخلها الناس أجناسًا وأوانًا وطبقات، فتصهرهم المساجد ويخرجون منها إخوة متحابين.

انظروا لهذا المسجد⁽²⁴⁰⁾، يوجد في الكبير والصغير، والغني والفقير، وأستاذ الجامعة والفراش في الجامعة، والوزير والموزور، والأمير والمأمور، هل يفرق بينهم في شيء؟ من سبق إلى مكان فهو أحق به، لا

(240) راجع ما ذكره فضيلة الشيخ في كتابه: «العبادة في الإسلام» تحت عنوان «المسجد ورسالته في الحياة» (ص 236) ولفضيلته كذلك خطبة في الجزء الثالث بعنوان: «رسالة المسجد في الإسلام».

يوجد في المساجد: أن الصف الأول للوزراء، والصف الثاني لوكلاء الوزارات، والصف الثالث لمديري العموم، والصف الرابع لموظفي الدرجة الأولى ... لا، لا توجد هذه التفرقة، هذه المساجد مصانع التوحيد، تصهر المسلمين في بوتقة واحدة، توحّد مشاعرهم، وتوحّد مسالكهم، وتفقهم جميعاً بين يدي الله خاشعين، لا فضل لأبيض على أسود، ولا لعربي على عجمي، ولا لغني على فقير، ولا لمتعلم على أمّي، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، والتقوى حينما يتفاضلون فيها عند الله، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، الصلاة توحّد بين المسلمين.

كل الشعائر تغرس في نفس المسلم هذا المعنى، والصيام، حينما يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، يمسك المسلمون عن الطعام والشراب والنساء، يجوع أحدهم لله، ويظمأ لله، «يدع طعامه من أجلي، ويدع شرابه من أجلي، ويدع زوجته وشهوته من أجلي»⁽²⁴¹⁾، كل المسلمين في أنحاء الأرض عندما تأتي لحظة الفجر يمسكون عن الطعام، فإذا غربت الشمس وأذن المؤذن: أفطروا جميعاً، وحل لهم ما كان محرماً عليهم، إنها شعائر واحدة.

الحج من أكثر المظاهر وحدة للأمة:

الحج، يظهر فيه هذا التوحيد أكثر فأكثر، فالناس كثيراً ما يتفرقون بالمظاهر والأزياء والملابس، وبعض البلاد لها أزياء خاصة، وبعض الفئات لها أزياء خاصة، المشايخ لهم زي، والصناع لهم زي ... حينما يذهبون إلى

(241) رواه أحمد في «مسنده» (265/2) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الحج يخلعون أزياءهم التي تميز بينهم، ويلبسون ثيابًا في غاية السهولة والبساطة والتواضع، أشبه ما تكون بأكفان الموتى، يلبسها الملك، ويلبسها الخفير، يلبسها أغنى الناس، وأفقر الناس، كلهم في رداء واحد، وشعور واحد، ونداء واحد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

عامل وحدة الآداب الإسلامية:

المسلمون شريعتهم واحدة وشعائرتهم واحدة، وآدابهم واحدة، حيثما لقيت المسلم تقول له: السلام عليكم، فيرد: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، إذا أكل المسلم فهو يأكل باليمين، يبدأ طعامه: باسم الله، ويختمه: بالحمد لله، لا يأكل الميتة ولا الدم ولا لحم الخنزير، آداب مشتركة، حتى إذا عطس، قال: الحمد لله، وهنا تقول له: يرحمك الله، ويرد عليك: يهديكم الله ويصلح بالكم. (242)

وحدة المنهج والغاية:

آداب واحدة، منهج واحد، غاية واحدة، الغاية هي الله، {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: 162، 163] والمنهج واحد هو ما شرعه الإسلام من أحكام وقيم وآداب في العبادات والمعاملات والسلوكيات، {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} [الأنعام: 153]، هذه هي الأمة

(242) رواه عن أبي هريرة: أحمد (353/2)، والبخاري (6224)، والترمذي (2739)، وأبو داود (5033). ورواه عن علي بن أبي طالب: أحمد (120/1)، وابن ماجه (3715). ورواه عن أبي موسى الأشعري: أحمد (400/4).

الإسلامية.

أمة واحدة بمنطق التاريخ والجغرافيا:

الأمة الإسلامية أمة بمنطق الدين، وهي أمة واحدة كذلك بمنطق التاريخ، ظلت أمة واحدة أكثر من ثلاثة عشر قرناً، مرجعيتها واحدة هي الشريعة، وطنها واحد هو دار الإسلام، قائدها واحد هو خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، ظل هذا مرجعياً إلى سنة 1924م حينما ألغى الخلافة الإسلامية - التي تجمع المسلمين تحت راية العقيدة - الطاغية كمال أتاتورك، منطق التاريخ يقول: المسلمون كانوا أمة واحدة.

ومنطق الجغرافيا يؤكد هذه الحقيقة، انظر إلى الخريطة تجد العالم الإسلامي جغرافيا متصلاً بعضه ببعض، رقعة متواصلة، لأن الإسلام كان يمتد امتداداً طبيعياً من بلد إلى بلد يزحف كما يزحف النور، فهي أمة بمنطق الجغرافيا.

أمة واحدة بمنطق المصير المشترك:

بمنطق المصلحة المشتركة، والمصير المشترك، هي أمة واحدة، المصلحة المشتركة تحتم عليها أن تكون أمة واحدة، وخصوصاً: أن أعداءها ينظرون إليها باعتبارها أمة واحدة، الآن الحرب التي تشن على المسلمين، تشن على المسلمين جميعاً لا فرق بين سني وشيعي، هم ينظرون إلى إيران كما ينظرون إلى السعودية، هم يريدون تغيير المنطقة كلها، تغيير المنظومة القيمية في المنطقة بحيث نفكر كما يفكر الأمريكان، ونشعر كما يشعر الأمريكان، ونسلك كما يسلك الأمريكان، ولا يوجد من يخالف الثقافة

الأمريكية، والسياسة الأمريكية، والسلوك الأمريكي، لا يريدون أن يؤمنوا بظاهرة التنوع، وظاهرة التنوع ظاهرة كونية، اختلاف أسنتكم وألوانكم {الْم تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا} يعني متنوعة {وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَابِيٌّ سُودٌ 27 وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْوَابِ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ} [فاطر: 27 - 28]

اختلاف الأنواع، فالتنوع ظاهرة كونية، هؤلاء يريدون أن يقاوموا سنن الله في الحياة، وفي الكون، وفي الإنسان، يريدون أن يصهروا الناس جميعاً ليكونوا أمريكيين، أمريكيين في الفكر، وأمريكيين في الثقافة، وأمريكيين في الاتجاه وفي السلوك، والله خلق الناس مختلفين {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ 118 إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود: 118 - 119]، قال المفسرون: «لذلك» أي: للاختلاف خلقهم، لأنه خلقهم متغايرين في الفكر، ومتغايرين في الإرادة، فلا بد أن تختلف اتجاهاتهم، لو شاء الله لجعلهم نسخة واحدة مثل الملائكة إنما أعطاهم الله حرية الاختيار، وحرية العقل والتفكير، فلا بد أن يختلفوا.

هؤلاء لا يؤمنون باختلاف الناس، يريدون أن يطبعوا الناس بطابع واحد، المسلمون حينما كانوا أقوى أمة في الأرض، حينما كان يقول الخليفة⁽²⁴³⁾ للسحابة: شرقي أو غربي، وأمطري حيث شئت، فسيأتيني خراجك. لم يفرضوا على الناس أن يكونوا نوعاً واحداً، لم يفرضوا عليهم دينهم، ولم يفرضوا عليهم ثقافتهم وفلسفتهم، إلا إذا قبلها الناس من أنفسهم، وشاركت في

(243) القائل: هارون الرشيد الخليفة العباسي.

بناء الحضارة الإسلامية ثقافات وأجناس شتى من الأمم، شاركت في هذه الحضارة وبقوا على دينهم، وعلى فلسفاتهم، وعلى مذاهبهم، وعلى ثقافتهم المختلفة، هؤلاء لا يقبلون ذلك، يريدون أن يسير الناس كلهم قطيعاً واحداً وراء هذا الراعي الذي يمسك بعصاه، ولا يسمح لأحد أن يخرج عن هذا القطيع!

الأمة مصيرها واحد، هكذا تقول الأحداث، وهكذا يقول الأعداء أنفسهم، الدولة الصهيونية تنظر إلى إيران، وإلى باكستان، وإلى أفغانستان، وإلى إندونيسيا، كما تنظر إلى بلاد العرب بجوارها، وترى أن قوة المسلمين في أي بلد خطر عليها. وهكذا رأينا نظرة الأمريكان إلى الجميع.

أمة واحدة بمنطق الآلام والأمال والمصالح المشتركة:

المسلمون أمة واحدة، بمنطق أعدائنا، بمنطق المصير المشترك للجميع، وهي أمة بمنطق الآلام المشتركة، والأمال المشتركة، والمصالح المشتركة، كل هذا يحتم على المسلمين أن يتحد بعضهم مع بعض، وأن يتلاحم بعضهم مع بعض، وأن يتكلم بعضهم مع بعض، العالم في عصرنا يتكلم بلغة التكتل، لا مكان في عالمنا المعاصر للكيانات الصغيرة، الكيانات الصغيرة لا تستطيع أن تعيش، إلا إذا اعتمدت على غيرها، وإنما تعيش فيه الكتل الكبيرة، ولذلك نرى الناس يتناسون خلافاتهم ويتجمعون.

للأسف نرى العالم كله يتقارب والمسلمين وحدهم يتباعدون، الكاثوليك والبروتستانت الذين جرت بينهم حروب رهيبة، ومجازر سقط فيها مئات الألوف، وربما ملايين من الناس على توالي العصور، أرادوا أن يتقاربوا

وينسوا هذا التاريخ⁽²⁴⁴⁾.

حتى اليهود والنصارى، كان اليهود أعداء النصارى طوال التاريخ، واليهود كانوا متهمين بأنهم شاركوا بل قاموا بالدور الأول والأكبر في تقديم المسيح للقتل والصلب يقينا، أو في قتل المسيح وصلب المسيح كما يعتقد النصارى، ولكنهم منذ عدة سنين أصدر الفاتيكان وثيقة لتبرئة اليهود من دم المسيح، يتقربون إلى اليهود! الناس يتقاربون دينياً، ويتقاربون أيديولوجياً.

رأينا في أيام الصراع بين السوفيت والمعسكر الغربي ما يسمونه التعايش السلمي، تقارب بعضهم مع بعض، المصلحة اقتضت هذا.

الآن أوروبا كوَّنت من بين دولها اتحاداً، رغم ما كان بينها من صراعات. من يقرأ تاريخ أوروبا في القرون الأخيرة يجد حروباً دموية، قتل فيها من قتل، وسفكت فيها دماء، وأزهقت أرواح، وخربت ديار، بدوافع دينية أحياناً، ودوافع قومية أحياناً، ودوافع مصلحة وسياسية أحياناً، وآخر هذا الصراع: الحربان العالميتان في النصر الأول من القرن العشرين؛ اللتان قتل فيهما ملايين بل عشرات الملايين، ثم رأت أوروبا: أن من المصلحة لجميع دولها: أن تتكثل ويتضام بعضها إلى بعض، وتتلاحم في صورة اتحاد قوي صار له وزنه وشأنه، وأن ينسوا المآسي الماضية، والخلافات السابقة، هكذا رأى القوم، هذا هو شأن العقلاء.

(244) راجع ما ذكره العلامة رحمه الله الهندي، في كتابه «إظهار الحق» (ح/509/2)، وما بعدها طبعة إحياء التراث الإسلامي في قطر.

مؤامرات الأعداء لغرس داء الفرقة بين المسلمين:

أما نحن المسلمين، فنحن وحدنا الذين نجتر الخلافات الماضية، ونحاول دائماً أن نشعل النار، وأن نصب الزيت على النار، وأعداؤنا يستغلون نقطة الضعف هذه، فيثيرون بيننا دائماً ما يفرق الجمع، وما يبعث الفتنة بين بعضنا وبعض.

في بعض البلاد يثيرون الخلافات الدينية، مثل: مصر، يقولون: مسلمون وأقباط. وأحياناً يثيرون خلافات جغرافية، مثل: السودان، يقولون: الشمال والجنوب. وأحياناً خلافات عرقية كما في الجزائر، والمغرب: عرب وبربر، أو عرب وأكراد في العراق. وأحياناً يثيرون خلافات مذهبية سنية وشيعية، وأحياناً خلافات إيديولوجية، مثل: ثوريين ورجعيين، أو يمينيين ويساريين ... إلخ. لا بد أن يثيروا ما يفرق بين الأمة بعضها وبعض، وكل تفرقة هي لصالحهم، وليس في صالحنا، هم يفرقون ليسودوا، ويمزقون ليأكلوا، «فرق تسد»، شعار معروف عندهم من قديم، لا تستطيع أن تأكل الرغيف لقمة واحدة، إنما تقطع الرغيف لقماً لتزدرده وتبتلعه بسهولة، هكذا يفعلون بنا، ونحن نستجيب.

الأمة الإسلامية ينبغي أن تعرف هذا الأمر، وتعرف لغة العالم اليوم، لو لم يوجب عليها دينها أن تعصم بحبل الله جميعاً ولا تتفرق، وألا تتنازع فتفشل، وتذهب ريحها، كما قال القرآن الكريم: {وَلَا تَنزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: 46] وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تختلفوا، فإن من كان

قبلكم اختلفوا فهلكوا»⁽²⁴⁵⁾، لو لم يوجب الدين ذلك لأوجبه المصالح المشتركة، والمصير المشترك، ولأوجه منطق العصر.

تلاحم الأمة فريضة وضرورة:

إن تلاحم الأمة فيما بينها فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع، نقول هذا للعرب وللمسلمين في كل مكان، دعوا الأمور التي تفرق بينكم، وانكروا ما يجمعكم دائماً، انكروا الجوامع المشتركة، القواسم المشتركة بينكم وهي كثيرة، خصوصاً أننا في محنة، الناس إذا كانوا في عافية وفي رخاء وفي أيام انتصارات ربما جاز لهم أن يختلفوا، وإن كان هذا ليس مطلوباً، ولا مقبولاً في أي عصر، أما الذين يعيشون في الشدائد والمحن الكبرى، والمصائب المتلاحقة، وتصوب إليهم السهام من كل جانب، هؤلاء لا يجوز لهم أبداً أن يتفرقوا، لا بد أن يقف بعضهم بجوار بعض، عندما تقوم المعركة يجب أن نسقط الخلافات الجانبية، وننسى المعارك الجزئية، ولا يبقى إلا صوت المعركة عالياً، كما قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَنِينَ مَرَّصُونَ} [الصف:

[4].

نداء لعقلاء السنة والشيعة:

إن هناك فتناً تريد أن تمزق هذه الأمة، هناك في العراق الآن يريدون أن يثيروا فتنة بين السنة والشيعة، ونحن نحذر المسلمين جميعاً - سنة كانوا أم شيعة: أن يستجيبوا لوساوس الشياطين، شياطين الإنس وشياطين الجن، يجب

(245) رواه البخاري في الخصومات (2410) عن عبد الله بن مسعود.

أن يعلوا على هذه الوسوسات التي تدمر الجميع، فالفرقة دمار على الجميع، هم يريدونها حرباً دينية، لم يكتفوا بالحرب التي وقعت بين إيران والعراق وظلت سنين طويلة، ولكن كان طابع هذه الحرب قومياً، كأنها حرب بين العرب والفرس، ولكن الآن يريدونها حرباً دينية صريحة، سنة وشيعة، يجب أن يقاتل بعضهم بعضاً، ويجب أيها الإخوة: أن نحبط مكرهم، ونفوت عليهم الفرصة.

أنادي العقلاء: ألا يستجيبوا للمهاويس والمجانين من هؤلاء أو هؤلاء، ويشعلوا النار، ويتيحوا الفرصة لأعداء الأمة، يجب أن يقف العراق صفاً واحداً ليحرر أرضه، ويعيش مستقلاً، ويطرد الاحتلال، هذا ما يجب على الأمة جميعاً، ويجب علينا أن نساندهم فيه.

محاولة ضرب الفلسطينيين بعضهم ببعض:

هناك محاولة لضرب الفلسطينيين بعضهم ببعض، السلطة في ناحية، والمقاومة في ناحية أخرى، وقد نصبوا لهم فخاً - شريراً مكيدة - هي ما سموه: خارطة الطريق، واشترطوا فيها: تصفية المقاومة، وجمع السلاح، وهو شرط عجيب جداً، معناه: أن يقاتل الفلسطينيون بعضهم بعضاً، بدل أن يقاتل الفلسطيني المحتل الذي يحتل أرضه، ويدمر بيته، ويقتل أباه وأخاه وابنه وزوجته، بدل أن تتجه الرصاصات إلى صدر العدو المحتل تتجه إلى صدر أخيه!

وهذا ما نحذر منه الفلسطينيين، وهم إلى الآن أدركوا المكيدة، ووقفوا لها، ويجب أن يظلوا على هذه الحكمة، وعلى هذه اليقظة، ولا يسمحوا لأنفسهم

يومًا أن يضرب بعضهم بعضًا، النبي عليه الصلاة والسلام قال في حجة الوداع: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»⁽²⁴⁶⁾، هذا شأن الكفار شأن أهل الجاهلية، كانوا يضربون بعضهم رقاب بعض ووجوه بعض، أما المسلم فهو أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يخذله، ولا يتخلى عنه، بل يفديه بنفسه، يعرض صدره للرصاص ليحامي أخاه، ﴿إِنَّمَا آمُومِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10].

لماذا يجب أن نتوحد؟

المسلمون أمة هكذا أراد الله لهم، أمة وسطًا، خير أمة أخرجت للناس، أمة واحدة، وحدت بينها الغايات، والمناهج، والعقائد والشرائع والقيم، والعبادات والمعاملات والأداب، وحدت بينها المصالح والمصاير، والآلام والأمال، وحدها الأعداء، فهم ينظرون إليها باعتبارها أمة واحدة، من الدار البيضاء إلى جاكرتا، إسرائيل تكيد كيدها لباكستان، لماذا؟ لأنها أصبحت تملك مفاعلاً نووياً كما تملك هي، ولكن لا يجوز للمسلمين أن يملكوا مفاعلاً نووياً، أو قنبلة نووية إسرائيل تعامل باكستان كما تعامل البلاد العربية، هم ينظرون إلى هذه الأمة واحدة، فينبغي أيها الإخوة أن يضع كل منا يده في يد أخيه، وألا نسمح لمن يفرق بيننا، قد نختلف في أشياء كثيرة، ولكن نتعاون فيما اتفقنا عليه ونتسامح فيما اختلفنا فيه ونقف في المعركة صفاً واحداً، وإلا كان هناك خطر كبير: أن يجتمع أعداؤنا، ونتفرق نحن، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾

(246) رواه البخاري في العلم (121) عن جرير بن عبد الله. ورواه البخاري في مواضع أخرى كثيرة، وعن أكثر من صحابي.

[الأنفال: 73] (247).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم،
وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

انتفاضة الأقصى في سنتها الرابعة:

أما بعد: فيا أيها الإخوة المسلمون: دخلت الانتفاضة - انتفاضة الأقصى المباركة - في سنتها الرابعة، كان السفاح شارون قد أخذ على نفسه وعلى حكومته عهداً: أن يقضي على هذه الانتفاضة، ويقضى على المقاومة المؤمنة الباسلة في حدود 100 يوم، ومضت مائة ومائة ومئات ومئات، ولكن الانتفاضة لم تنته، الانتفاضة بقيت شامخة، بقيت صامدة، بقيت كالجبل الأشم، بقيت تزار كما يزار الأسد الهصور، بقيت تقول لهؤلاء الطغاة الظالمين: نحن هنا، لن نستسلم، لن نركع لكم، لن نهن، ولن نستكين أبداً، إنما نركع لله ونسجد لله، علمنا الله تعالى: أن نرفع جباهنا فلا نسجد إلا له في الصلاة، ولا نركع الظهر ولا نتحنى إلا له.

بقيت هذه الانتفاضة يقودها الأبطال، تبذل كل يوم من الأرواح ومن الدماء، ما يجعلنا نقول لهذا الشعب البطل: مرحى مرحى، هذا الشعب الذي لا يملك الصواريخ ولا الدبابات ولا المروحيات كما تملكها إسرائيل، إنما يملك

(247) انظر في تفصيل ذلك: «الصحة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم» للدكتور القرضاوي نشر دار الشروق. و«كيف نتعامل مع التراث والتمازج والاختلاف؟» للدكتور القرضاوي. نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

رجالاً مؤمنين، يملك شباباً باعوا أنفسهم لله، وضعوا رؤوسهم على أكفهم، وأرواحهم بأيديهم وقدموها رخيصة في سبيل الله {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} [البقرة: 207].

هؤلاء الشباب المؤمنون الذين لا يباليون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم، هم الذين دوخوا الصهاينة، دوخوا هذا الكيان المغتصب الظالم المغرور بقوته وبسلطانه وبترسانته النووية والكيمائية وغيرها، هؤلاء الشباب يجب أن نحبيهم، يجب أن نحبي هؤلاء الأبطال، يجب أن نحبي هذا الشيخ القعيد الأشلّ المريض الشيخ أحمد ياسين، الذي زلزل أركان الظالمين، يجب أن نحبيه ونحبي إخوانه الذين قتلوا منهم من قتلوا: {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكْبَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 146].

حاولوا أن يقتلوا الشيخ، وحاولوا أن يقتلوا الدكتور الرنتيسي⁽²⁴⁸⁾، والدكتور الزهار، كما حاولوا من قبل أن يقتلوا خالد مشعل، وقتلوا إسماعيل أبو شنب، وقتلوا الكثيرين، كما قتلوا يحيى عياش، وفتحي الشقاقي والكثيرين من أبناء حماس، ومن أبناء الجهاد الإسلامي، ومن كتائب الأقصى، نحبي هؤلاء، نحبيهم ونقف من ورائهم، وإن كنا لا نستطيع - للأسف - أن نصل إليهم لنشد أزرهم، ونشارك معهم، فالأبواب مغلقة، والطرق مسدودة، لا يستطيع مسلم يغلي صدره كما يغلي المرجل فوق النار من الحماس

(248) للأسف نجح الإسرائيليون في اغتيال الشيخ أحمد ياسين، والدكتور الرنتيسي، تقبلهما الله في الشهداء والصالحين، وقد رثى الشيخ القرضاوي الشيخ أحمد ياسين في خطبة كاملة في الجزء السادس، فلتراجع.

والاشتياق إلى الجهاد والشهادة، ولا يستطيع أن يصل إلى إخوته هؤلاء، هكذا نعيش في هذا الوقت.

لكننا نملك أن نبعث إليهم بما نستطيع من أموال، وإن كان الآن سدوا الطريق على الأعمال الخيرية، لا يسمحون بتحويل أي أموال إلى هؤلاء، كأنما يريدون أن يموت هذا الشعب جوعاً، الأموال التي تذهب لتطعم الجائع، وتكسو العريان، وتداوي المريض، وتؤوي المشرّد، وتكفل اليتيم، وترمم المهدم، وتعالج المحروق، هذه الأموال ممنوع أن تصل إلى هؤلاء، حتى إن بعض البلاد العربية جمد أموال حماس في بنوكها وفي مصارفها، يا للعار ويا للشنار.

صراع صهيوني فلسطيني!:

علينا أن نعمل ما نستطيع لمعونة إخواننا هؤلاء، بخاصة أن الأنظمة الحاكمة قلما تصنع شيئاً، قلت لكم في الأسبوع الماضي: إن الصراع الآن لم يعد صراعاً عربياً إسرائيلياً كما يقال في الصحف وأجهزة الإعلام، فالعرب لم يعودوا يقدمون شيئاً، قدموا سنة (48) ودخلت الجيوش العربية إلى فلسطين، أما الآن فهو صراع صهيوني فلسطيني، إسرائيل ومعها يهود العالم، ومعها أمريكا بقوتها العسكرية، وقوتها الاقتصادية، وقوتها العلمية والتكنولوجية، وقوتها السياسية، الفلسطينيون شبه العزل من السلاح يقفون وحدهم أمام هذا كله.

ونحن نعتقد: أنهم منصورون، وهم منصورون إن شاء الله، الله تعالى

يقول: {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ 172 وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصفافات: 172، 173]

{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: 47]، {إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا} [الحج: 38]، نحن نعتقد: أنهم منصورون، وإن هذا الكيان الدخيل الذي زرع في جسم هذه الأمة هو كيان غريب، ودائمًا الأجسام الغريبة التي تدخل الأجسام لا تستطيع أن تعيش فيها، تطردها قواها الحيوية الداخلية، سنة الله أن أي جسم غريب لا بد أن يطارد، وهذا الجسم لن يستمر طويلاً ما دام إختنا الأبطال في «الجهاد الإسلامي»، وفي «حماس» المجاهدة المرابطة الصامدة، وفي كتائب الأقصى، وفي كل فصائل المقاومة التي ترفض الاستسلام، وترفض الذل والهوان، وتصر على البقاء عزيزة كريمة، فإما حياة الأعداء السعداء، وإما موت الشهداء، {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ} [التوبة: 52].

سيروا إلى الأمام أيها الإخوة، يا أبناء الأقصى، ، يا أبناء الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، أرض النبوات والمقدسات، اصبروا، وصابروا، ورابطوا، وانتقوا الله لعلكم تفلحون، نحن معكم بقلوبنا وألسنتنا، ندعو لكم آناء الليل وآناء النهار، ندعو لكم في صلواتنا، وفي خلواتنا، وفي ساعات السحر، ونستعين على الأعداء بسهام القدر، ودعاء السحر، وكل أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره.

* * *

(18)

بواعث التوبة⁽²⁴⁹⁾

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

النفس الإنسانية أساس الإصلاح:

لا زال حديثنا موصلاً حول تزكية الأنفس، فالنفس الإنسانية هي أساس الإصلاح كله: إصلاح الأفراد، وإصلاح الأسر، وإصلاح المجتمعات، وإصلاح الأمم، وإصلاح العالم كله؛ إذا صلحت الأنفس صلحت الحياة. نقطة البداية تبدأ من الفرد إذا لم يصلح الفرد لم يصلح مجتمع، ولم تصلح حكومة، والفرد إنما يصلح بإصلاح جوانيته.

الإنسان لا يقاد من أذنه كما تقاد البهيمة، وإنما يقاد من داخله، يقاد من عقله، ويقاد من ضميره، لهذا كان إصلاح النفس البشرية هو أساس كل إصلاح، وفق هذه السنة الإلهية التي قررها القرآن {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: 11]، وفق ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»⁽²⁵⁰⁾.

(249) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، 9 شعبان 1425 هـ الموافق 24 سبتمبر 2004.

(250) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (52)، ومسلم في المساقاة (1599) عن

يقاد الإنسان من قلبه، من عقله، من ضميره، من نفسه، سمها ما تسميها. المهم هذا الكيان الداخلي الذي هو حقيقة الإنسان، حقيقة الإنسان ليست في هذا اللحم والدم، ليست في هذه العظام والخلايا والأجهزة، هذه توجد عند الحيوانات، وربما كان الحيوان أضخم حسماً من الإنسان، وأوسع بطناً، وأكثر أكلاً منه، ولكن الإنسان الحقيقي في هذا الكائن الروحي، الكائن المعنوي الذي به صار الإنسان إنساناً، وكرمه الله على سائر المخلوقات، وجعله في الأرض خليفة، وحمله الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنا وأشفقن منها.

لا بد من جهاد لإصلاح النفس الإنسانية {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: 69].

لله سنة ثابتة في خلقه:

هذه سنة ماضية، من بذل جهده، واستفرغ وسعه، في مجاهدة نوازعه الشريرة، في مواجهة نفسه الأمانة بالسوء، في مواجهة شيطانه، في مواجهة أهوائه وشهوته، لا بد أن يصل إلى الهداية الربانية، {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} وقد قال عليه الصلاة والسلام: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»⁽²⁵¹⁾ الجهاد الحقيقي: أن تجاهد هواك، وأن لا تسترسل مع نزعات نفسك، وأنانية نفسك، وأهواء نفسك، فإن

النعمان بن بشير.

(251) رواه أحمد (23958) عن فضالة بن عبيد، وقال مخرجوا «المسند»: إسناده صحيح، ورواه ابن المبارك في «الزهد» (826)، والطبراني في «الكبير» (796/18)، والبيهقي في «الشعب» (11123).

من اتبع هواه فقد ضل وغوى {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...} [ص: 26]، {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ} [القصص: 50]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الهوةى شر إله عبد فى الأرض» ثم تلا قول الله تعالى {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًا فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ} [الجاثية: 23]. لا بد من مجاهدة النفس، ولا بد أن يسلك الإنسان طريقه إلى الله، محطة محطة، ومرحلة مرحلة، حتى يصل إلى رضوان الله تعالى {وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ} [النجم: 42].

التوبة أول المحطات:

وقد ذكرنا أيها الإخوة فى الخطب الماضية: أن المحطة الأولى التى ينبغى أن ينطلق منها الإنسان هى: محطة التوبة، أن يغتسل الإنسان من ذنوبه، أن يتطهر من خطاياها، أن يقف مع نفسه وقفة صادقة، ليحاسبها على ما اقترف من سيئات، وما فرط فيه من حقوق لله وللنفس وللناس، ينبغى أن يقف هذه الوقفة ليصلح ما فسد، ويقوم ما اعوج، ويظهر ما خبث.

إن الله يغفر الذنوب جميعاً:

وليس هناك ذنب يستعصى على التوبة، كل الذنوب قابلة للتوبة، حتى الكفر، حتى الشرك بالله، حتى الإلحاد والجحود بالله عز وجل، إذا تاب الإنسان منه تاب الله عليه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} [الأنفال: 38].

حدثنا الله عن عباد الرحمن فكان من أوصافهم {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ

يَلْقَى أَثَامًا 68 يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَاتًا 69 إِلَّا مَنْ تَابَ
وَعَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا} [الفرقان: 68 - 70]. حتى الشرك، حتى القتل، حتى الزنى، من تاب منها
وأصلح ما أفسده من قبل، ومألاً صحيفته بالحسنات بعد السيئات، بعمل
الصالحات بعد عمل السيئات، {وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ
حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}.

{قُلْ يُعْبَادِي الَّذِينَ اسْرِفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: 53]

على الإنسان إذن أن يتوب إلى الله، أن يصطلح مع الله، أن يدع هذه
الخصومة بينه وبين ربه، أن يقبل على الله فيتلقاه الله من بعيد، أن يقول: يا
رب. يا رب. ليقول له ربه: لبيك عبدي وسعديك، الله تعالى يقول في الأثر
القدسي الإلهي: «من أقبل من عبادي إلي تلقيته من بعيد، ومن أعرض
عني ناديته من قريب» أقبل على الله يتلقاتك من بعيد، يرحب بك كما قال الله
عز وجل في الحديث القدسي: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا،
ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيتُه
مهرولاً»⁽²⁵²⁾ أقبل على الله تائبًا منيبًا، ابك على خطيئتك، اغسل نفسك
بدموعك إن كنت صادقًا مع الله عز وجل .

(252) رواه البخاري في «التوحيد» (7405)، ومسلم في «الذكر والدعاء» (2675) عن
أبي هريرة.

حقيقة التوبة:

ليست التوبة بالكلام بأطراف اللسان، التوبة حرقه في القلب، أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، كما وصف الله التائبين في سورة التوبة {وَعَلَى الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: 118]. سئلت رابعة العدوية المرأة الزاهدة الصالحة، سألها أحد الناس: إذا تبت تاب الله عليّ؟ قالت له: يا جاهل. بل إذا تاب الله عليك تبت، أما سمعت قوله تعالى: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: 118]، إذا وفقك للتوبة فهذا دليل القبول، لأن التوبة لا بد أن تقبل ما دامت صحيحة مستوفية لشروطها، لا بد لنا أن نبحث البواعث على التوبة، لا بد أن نعرف مقام الله عز وجل .

أول بواعث التوبة: اعرف مقام ربك:

أول البواعث على التوبة: أن تعرف مقام ربك وحق ربك عليك، وأنت لو عشت عمرك كله راکعاً ساجداً ما أدبت حقه عليك، لأن نعمه عليك أعظم من أن تحصر، وأكبر من أن تحصى، نعمه تغمرك من قرنك إلى قدمك، ومن ميلادك إلى ساعة وفاتك، بل حتى من قبل الميلاد، وأنت في بطن أمك، الله هو الذي يركعك جنيناً قبل أن يركعك وليداً ورضيعاً، الله عز وجل هو المنعم بجلال النعم ودقاتها. {وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ} [النحل: 52]، {وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا} [إبراهيم: 34]، حق الله عليك عظيم، كيف تقابل هذه النعم وتقابل مقام الألوهية بالانكران والكنود والكفران والفسوق والعصيان؟ تأكل ثمري وتعصى أمري! تأكل وتطيع غيري؟ أنت تعيش في خير الله، في

إحسان الله، في نعم الله، فلماذا لا تؤدي حق الله؟!!

نعم الله لا تحصى:

لا بد أن يقف الإنسان ليعرف حق ربه عليه، لو سجد على الجمر ما أدى حق الله عع عليه، نعم ربك عليك كثيرة. انظر نعمة البصر، نعمة السمع، نعمة العقل، نعمة الجوارح، نعمة الصحة، نعمة العافية، نعمة المال، نعمة الأولاد، نعمة الهواء، نعمة الماء، نعمة الشمس والضيء، هذه النعم كلها لا يمكن أن تحسبها، ولذلك كان حق الله عليك عظيمًا، فماذا أدبت من حق الله عليك؟ هذه وقفة!

الباعث الثاني: ذكر الموت والقبر:

مما يبعث على التوبة أن تذكر أن حياتك مهما طالقت قصيرة، وأن منتهاها الموت، وما دام الموت نهاية كل حي فإن العمر مهما طال قصير قصير.

يقول الشاعر:

وإذا كان آخر العمر موتاً فسواء قصيره والطويل
عندما ينتهي الأجل، عندما يحتضر الإنسان، ويأتيه ملك الموت، يتمنى المرء لو أمهل في الأجل يوماً، نصف يوم، ساعة، نصف ساعة، لحظات، يتمنى أن يمد له في أجله ليفعل خيراً، فيقول: {رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ 10 وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المنافقين: 10، 11]. كم يتمنى لو أنه أعطى فسحة ليصلي ركعتين خالصتين لوجه الله، أمامك عمر طويل الآن لماذا لا تصلي؟ لماذا لا تسبح الله وتكبره؟ لماذا لا تدعوه وتستغفره؟ لماذا لا تذكره كثيراً؟ لماذا لا تسبحه بكرة

وأصيلا؟ لماذا لا ترد الحقوق إلى أهلها؟ لماذا تبقى بمظالمك؟

الإنسان ينسى أنه ميت، والله عرعع قال لرسوله صلى الله عليه وسلم :
 {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر: 30]. كل الناس ذائقوا الموت: الملوك
 والرؤساء، والحكام والمحكومون، والأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء،
 الكل ميت. لماذا ينسى الناس الموت؟ لماذا يستبعدون الموت؟ قد رأينا في
 عصرنا: من يموت بالذبحة الصدرية، ومن يموت بالسكتة القلبية، ومن
 يموت في حادثة من حوادث السير، وما أكثرها. لماذا تستبعد الموت؟

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله
 {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ} [النحل: 77]، هناك الساعة
 العامة، وهناك الساعة الخاصة، ساعة كل إنسان، ومن مات فقد قامت قيامته،
 وأنت لا تدري متى ساعتك كان ابن عمر رضي الله عنه يقول: «إذا أصبحت
 فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لسقمك،
 وخذ من حياتك لموتك».

الموت. تذكر الموت. تذكر القبر. تذكر هذه الحفرة التي ستؤول إليها في
 النهاية، عش ما شئت فإنك ميت. وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واجمع ما
 شئت من مال، وابن ما شئت من قصور، ستودع هذا كله إلى هذه الحفرة.

القبر أفضع منظر:

كان عثمان رضي الله عنه إذا رأى القبر بكى بكاء مرًا. فقيل له: تذكر
 الجنة والنار فلا تبكي مثلما تبكي إذا رأيت القبر! فقال لهم: سمعت النبي
 صلى الله عليه وسلم يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإذا نجى

منه كان أنجى فيما بعده»، ويقول أيضاً: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ما رأيت منظراً إلا والقبر أفضع منه»⁽²⁵³⁾ منظر القبر، انظر إلى هذا الإنسان الذي كان يمشي متبخترًا فوق الأرض، يمشي في الأرض مرحًا، كأنه يخرق الأرض، أو يبلغ الجبال طولاً! إذا به يوضع في هذه الحفرة، في وادي الموتى، اذهب إلى هذا الوادي، إلى تلك المقبرة في قطر، وهي أدل على الموت من المقابر في بلاد أخرى، لأن الجميع في حفر متساوية، الأمير والمأمور، والوزير والغفير، والغني والفقير. حفر متساوية يحفر له في الأرض ثم يردم عليه، هذا هو وادي الموتى! تذكر هذا الموت. لماذا تسوف في التوبة؟ وتقول: سوف أتوب، وما يدريك أن سوف هذه سنأتي، ما يدريك أنك سيأتي عليك الغد؟ لا تدري والله.

تزود من التقوى فإنك لا إذا جن ليلٌ هل تعيش إلى
فكم من سليم مات من غير وكم من سقيم عاش حيناً من
وكم من فتى يمسي ويصبح وقد نسجت أكفانه وهو لا

الباعث الثالث: ذكر الآخرة والجنة والنار:

لا بد أن نتذكر الموت، ولا بد أن نتذكر الآخرة، الجنة والنار. الموت أشد ما قبله، وأهون ما بعده. المشكلة ليست مشكلة الموت ولكن ما بعد الموت.

ولو أننا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي
ولكننا إذا متنا بعثنا فنسأل بعدها عن كل شيء

(253) رواه أحمد في «المسند» (454) عن عثمان، وقال مخرجو «المسند»: إسناده صحيح، ورواه ابن ماجه (4267)، والترمذي (2308)، والحاكم (330/4).

إن بعد الموت بعثاً، وإن بعد البعث حشرًا، وإن بعد الحشر حسابًا، وإن بعد الحساب ثوابًا أو عقابًا، جنة أو نارًا، لا بد أن نذكر هذا كله، وما معنى الجنة أو النار؟ إنه ليس شيئًا هيئًا أن تفقد الجنة وأن تدخل النار، الإنسان يحزن إذا خسر بعض المال أو بعض الصفقات، فكيف إذا خسرت الجنة؟ وكيف إذا دخلت النار؟

جسمي ليس على الشمس ولا على أهون الحرارة
فكيف يقوى على جحيم وقودها الناس والحجارة؟
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185]. كان بعض الصالحين يقرب المصباح من يديه، ويضع أصابعه عليه، فتلسعه نار السراج، وهي نار ضعيفة خفيفة فيقول: إذا كنت لا تحتمل هذه اللسعة من النار السراج، فكيف بنار الآخرة؟ ونار الدنيا جزء من سبعين جزءًا من نار الآخرة؟! ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6]. أي خسارة أن تفقد الجنة وأي خسارة أن تدخل النار!!

الباعث الرابع: معرفة آثار المعاصي في الدنيا والآخرة:

الباعث الرابع على التوبة: أن تتذكر خطر المعاصي عليك، وأنتك إذا استرسلت فيها ساقتك إلى خسارة نفسك، وبوار صفقتك، وضياح مصيرك، وهلكت في الدنيا والآخرة، لا بد أن تقف مع نفسك لتدرس آثار المعصية والخطايا على حياتك: الروحية والمادية، الفردية والاجتماعية، الحاضرة والمستقبلية، الدنيوية والأخروية. إنها آثار مدمرة. يعرفها كل من تدبر كتاب

الله، ومن درس سنة رسول الله، ومن قرأ وقائع الحياة، وتابع أحداثها كل يوم بعين ترى، وأذن تسمع، وقلب يعي {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}.

ياناظرا يرنو بعيني راقدا ومشاهدا للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب درك الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت أن الله أخرج آدم ما منها بذنوب واحد؟!
تريد أن تدخل الجنة وآلاف المعاصي قد ارتكبتها! بل ملايين المعاصي لو حسبتها، وأدم بذنوب واحد خرج من الجنة. ولم يسامح نوحاً في كلمة حين قال: {إِنَّ أَبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ} [هود: 45] فكان الرد الحاسم عليه {يُنُوْحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْلُنْ مِمَّا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ 46 قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَسِرِينَ} [هود: 46، 47].
وكذلك قال آدم وزوجه: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ} [الأعراف: 23].

لا بد أن نفق مع أنفسنا هذه الوقفات لتتوب إلى الله تعالى، ونرجع إليه، ونعرف آثار المعاصي في النفس وفي الحياة، في الفرد وفي المجتمع، فالمعاصي هي الشؤم على الإنسان، والشؤم على الأسرة، والشؤم على الجماعة، والشؤم على الأمة، والشؤم على الإنسانية، والشؤم على البيئة، والشؤم على كل شيء {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} [الروم: 41] أي بمعاصيهم ليقذفهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون {وَمَا أَصْبِحُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: 30].

تذكر أيها الأخ المسلم. تذكر هذا كله ليبعثك على التوبة إلى الله، لترجع إلى الله بعد أن شردت من الله.

معنى التوبة:

التوبة معناها: الرجوع بعد شرورك، بعد بعدك عن الله، ترجع إليه تقف على بابه، ترتمي في ساحته، وتقول: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخُسِرِينَ} [الأعراف: 23].

نسأل الله عز وجل أن يتوب علينا توبة نصوحا، وأن يغفر لنا ما مضى، وأن يصلح لنا ما بقي، وأن يجعل يومنا خيرا من أمسنا، وغدنا خيرا من يومنا، ويحسن عاقبتنا في الأمور كلها، ويجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، فادعوه يستجيب لكم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله غافر الذنب، وقابل التوب شديد العقاب، ذي الطول لا إله إلا هو، إليه المصير. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له {يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التغابن: 1]. وأشهد أن سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمداً عبد الله ورسوله، البشير النذير، والسراج المنير، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله، وصحبه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون، ورضي الله عن من دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده

إلى يوم الدين.

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

محنتان:

قدر الله لي في هذا الصيف أن أبتلي بمحنتين: محنة خارج دار العرب والمسلمين، ومحنة في دار العرب والمسلمين، وأحمد الله عز وجل أن خرجت منهما أصفى جوهرًا، وأصلب عودًا، وأشد قوة، فالمحن لا تزيد المؤمنين إلا إيمانًا وثباتًا في الخير، وعزيمة على الرشد، كما وصف الله تعالى المؤمنين بعد غزوة أحد فقال عز وجل: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ 173 فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهَمُ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ} [آل عمران: 173، 174]. وقال عز وجل بعد غزوة الأحزاب: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: 22].

كانت المحنة الأولى أيها الإخوة في لندن، فقد عقد اللوبي الصهيوني هناك العزم على أن يمنعني من دخول لندن، وكنا في لندن قد دعينا لنعقد دورة المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث هناك، وهذا المجلس كنا نعده في البلاد الأوروبية، مرة عقدناه في ألمانيا، ومرة: عقدناه في فرنسا، ومرة: عقدناه في أسبانيا، ومرة عقدناه في السويد، وهكذا.

اللوبي الصهيوني وراء هذه المحنة:

وهذه المرة أردنا أن نعقد في بريطانيا، وكنا عقدنا جلسة تأسيس المجلس

الأولى فيها، ودعانا لنعقد جلسة الافتتاح عمدة لندن، ولبينا الدعوة. ولكن اللوبي الصهيوني ثار ثائره، وجن جنونه، وأراد أن يمنعني من دخول لندن، فدخلت لندن ولم يمنعني أحد، بل استقبلوني في المطار: نواب العمدة ورجاله، وأدخلوني قاعة التشريعات الكبرى، وهكذا. ثم أرادوا أن يخرجوني بعد أن دخلت! ورفع هذا اللوبي دعوة إلى المدعي العام، يطلبون إخراجي من لندن. يريدون أن يمنعوني من بريطانيا كما منعت قبل ذلك من أمريكا، ولكن بحمد الله رفضت هذه الدعوة، وقامت معركة سياسية كبيرة بين الحكومة والمعارضين، انتهت إلى مجلس العموم، وكان زعيم المعارضين وهو يهودي يرأس حزب المحافظين، يبذل كل جهده لإخراجي من هناك.

سبب المحنة: أنني أدفع المقاومة:

وظللت عدة أيام والشغل الشاغل للصحابة والإذاعة والتلفزيون بقنواته المختلفة هو: يوسف القرضاوي؛ الذي يشجع الإرهاب، ويشجع العمليات الإستشهادية، ويؤيد المقاومة الإسلامية، يؤيد حماس، ويؤيد الجهاد الإسلامي، ويؤيد حزب الله، ويقف ضد إسرائيل، وضد السلام مع إسرائيل، ولكن الله عسع أيها الإخوة نصرني على هؤلاء، بمجرد أن لقوني وأجروا معي حوارات مختلفة، واستمعوا إلى خطبتي في المسجد المركزي الكبير، وسألوني أسئلة محرجة أجبت عنها بصراحة وقوة، فلم يجد هؤلاء إلا أن يغيروا موقفهم، وأصبحت الصحافة التي تهاجمني تدافع عني، الرجل الذي حاورني من التلفزيون حوارًا طويلًا، قال لي في نهاية الحوار: أشهد يا أستاذ أنني تعلمت منك الكثير في هذا اللقاء، وهذا من إنصاف القوم.

موقف عمدة لندن:

كان عمدة لندن «كن ليفجستون» وهو رجل شهم، يعتبر الشخصية الثالثة أو الرابعة سياسياً في إنجلترا، قد تبني الدفاع عني، واستقبلني في قاعة البلدية، وقال: أنا أستقبلك في القاعة التي رفضت أن يدخلها بوش، هكذا وقف الرجل وقفة صلبة في الدفاع أمام هذا اللوبي الصهيوني، وأتاح لي فرصة أخرى لمؤتمر عن الحجاب، كنت المتحدث الرئيسي فيه، ودعاني إلى مؤتمر في شهر أكتوبر القادم⁽²⁵⁴⁾ هكذا يدافع الله عن الذين آمنوا.

حاخامات يعارضون إسرائيل:

وكان من العجب أني وجدت عدداً من حاخامات اليهود يقفون بجانبني، اليهود الذين يعارضون قيام إسرائيل ويرون أن قيامها مصيبة على اليهود، وكرثة على اليهود، وأنها هي التي ستعجل بنهايتهم، هؤلاء الحاخامات وجدتهم معي في افتتاح المجلس الأوروبي للإفتاء، وفي بعض المحاضرات كانوا موجودين، وأصروا أن يودعوني في المطار، ثمانية منهم ظلوا في المطار حتى دخلت إلى الجوازات، هذه محنة أنهاها الله على خير خارج ديار المسلمين، وهناك عقدنا مجلسنا الأوروبي وأنهيناه، وعقدنا أيضاً جلسة تأسيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وجاء أكثر من مائتين وخمسين عالماً من أنحاء العالم، وقام الاتحاد المبارك على بركة الله، كان هذا فضل من الله عسع.

(254) اعتذر فضيلة الشيخ عن هذا المؤتمر لانشغاله بأعمال أخرى.

المحنة الثانية:

ثم ابتليت أيها الإخوة بمحنة أخرى داخل بلاد العرب والمسلمين، محنة بين قومي وأهلي، وشاعرنا العربي طرفة بن العبد يقول:

وظلم ذوي القربى أشد على المرء من وقع الحسام

سبب هذه المحنة:

بدأت هذه المحنة بكلمة قلتها في نقابة الصحفيين في مصر، بعد محاضرة احتشد لها جمهور ضخم، معظمهم من الكتاب والصحفيين، وسئلت سؤالاً عن قتال جنود الاحتلال في العراق، وقتال المدنيين منهم؟ وأجبت بما أجبت به، قلت: الأمريكيون في العراق غزاة، والغزاة يجب أن يقاوموا، هل هناك في العراق مدنيون من الأمريكيين؟ أم أنهم كلهم دخلوا مع جيش الاحتلال؟ وذكرت أن الإسلام لا يقاتل المدنيين ولا يقتلهم، ذكرت بذلك الأحاديث الشريفة التي تنهى عن قتل النساء والصبيان والشيوخ، والرهبان في الصوامع والفلاحين الحراث في أراضيهم، والتجار في متاجرهم، ذكرت هذه النصوص، وقلت: لكن من عاون المقاتلين فهو عسكري هذا أمر.

وكان السؤال هل يجوز التمثيل بالجنث بحال من الأحوال، وهناك نهى صريح، وأحاديث صحيحة صريحة تنهى عن المثلة، حتى ولو كان أعداء المسلمين يمثلون بجنثهم. وأخذ بعض الناس جزء من الكلمة وقطعوها عن سياقها على طريقة «لا تقربوا الصلاة»، وقالوا: إنني أجزيت قتل المدنيين بإطلاق بدون هذا السياق، وبدون هذه القيود التي تقيد الموضوع؛ ليرجوا مقولة يريدون فيها أن يصطادوا في الماء العكر، أو أن يعكروا الماء

ليصطادوا فيه، هكذا قالوا. مما اضطرني أن أعقد مؤتمرًا صحفيًا هنا في النادي الدبلوماسي في الدوحة، وأفسر ما أردته، وقد قيل أنه تراجع وما تراجعت.

من هو المدني؟ ومن هو العسكري؟

لكن القضية هي قضية من هو المدني؟ هل المهندس الذي يجيء مع الجيش ليصلح الدبابة إذا عطبت هل هذا المهندس مدني أم عسكري؟ من هو المدني؟ ومن هو العسكري؟

القضية كل من يقاتل أو يعاون المقاتلين فهو عسكري، أنا أريد أن أسأل الناس هؤلاء: هل شارون عندهم مدني أم عسكري؟ ماذا يقولون في شارون؟ ما هي المدنية وما هي العسكرية؟ وخصوصًا في عصرنا، والحرب لم تعد واحد يضرب واحدًا بالسيف أو بالرمح أو الحرية. لا أصبحت الحرب تخدمها مؤسسات عدة، وأفراد من كل ناحية. لا بد أن نحدد من هو المدني، ومن هو العسكري.

لمن توجه هذه الضربة؟

ومع هذا وجدنا طائفة من العلمانيين تنتهز هذه الفرصة تحاول أن تضرب ضربتها؛ لا في يوسف القرضاوي ولكن في الدعوة الإسلامية، والرسالة الإسلامية، يريد هؤلاء أن ينتهزوا هذه الفرصة ليقولوا: إن الإسلام ليس يسر، حتى التيار الوسطي والتيار المعتدل، كل هؤلاء إرهابيون. ومعاذ الله أن نكون إرهابيين. نحن ضد الإرهاب، ونحن ضد العنف، وأحمد الله أن مقالاتي ومحاضراتي وخطبي وكتبي وبرامجي التلفزيونية كلها مكشوفة

على الملأ، يعرف الناس موقفي، ولكن هؤلاء لا يريدون أن يفهموا.
يأكلون من كلامي ويطلبون محاكمتي.

حتى إن صحيفة إماراتية منذ أيام قد طالبت الضحية الأمريكي الرهينة الذي قتل في العراق أن يرفعوا دعوى ضدي. لماذا؟ لأن فتواي هي التي تسببت في ذبح هذه الرهينة! يا عجباً كأن أبا مصعب الزرقاوي ينتظر فتواي حتى ينفذ ما يريد! لقد قتل أمريكيين من قبل، وقتل إيطاليين، وقتل أتراكاً، وقتل باكستانيين، وقتل نيباليين، وقتل ... ولم تكن فتوى مني ولا كلمة مني، وبالأمس قتلوا الرهينتين الإيطاليتين، وقد طالبت مطالبة ملحة بالإفراج عنهما، هؤلاء الناس لا أدري ما يقولون؟ بأي لغة يخاطبون الناس؟ كأنما يظنون أن الناس لا عقول لهم.

وأعجب لهذه الصحيفة ولبذاءتها فقد أوسعتني سباً وشتماً، وقال لي بعض الناس: ألا ترد علي هذه البذاءة؟ على هذه الشتيمة؟ قلت: كيف أرد على السبابين والشتامين؟ يسعني قول الله تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [القصص: 55]، {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلِّمُوا} [الفرقان: 63].

الشاعر العربي يقول:

لو كل كلب عوى ألقمته حجراً لأصبح الصخر مثقالاً بدينار
لا. لا تتسع الحياة ولا الأعمار لنرد على هؤلاء⁽²⁵⁵⁾، وكل إناء ينضح بما

(255) قام فضيلة الشيخ مؤخراً برفع قضية ضد هذه الصحيفة «الاتحاد الإماراتية» وكُل فيها المحامي القطري البارز الأستاذ عبد العزيز بن صالح الخليفي، الذي قام بواجبه

فيه، نسيت هذه الصحيفة أنها ظلت عدة سنوات تنشر لي كل يوم مقالاً، وكانت تبذل الجهود لتستكتبني، أو لتجري معي حواراً، ثم هي الآن تقول عني ما تقول، يا عجباً.

الفرق بين الوجود الأمريكي في العراق وفي قطر:

ووجدت بعض الكتاب يقول: ماذا يقول القرضاوي في القوات الأمريكية أو الوجود الأمريكي في قطر، يريدون أن يخرجوني ويريدون أن يضيقوا عليّ الخناق، وأنا أريد أن أقول لهؤلاء: لا تخلطوا الحابل بالنابل، ولا تلبسوا الحق بالباطل. هناك فرق بين الوجود الأمريكي في العراق، والوجود الأمريكي في قطر، الوجود الأمريكي في العراق دخل نتيجة غزو عسكري ظالم قهر البلاد، وقهر أهلها، حتى احتل الأرض، برغم أنف أهلها، وبرغم الشرعية الدولية، وبرغم أنف الملايين من الجماهير التي ثارت وتظاهرت في كل مكان. أما الوجود الأمريكي في قطر هذا نتيجة اتفاقات بينه وبين حكام البلد، بناء على اعتبارات رأوها، وهم يتحملون مسئوليتها أمام الله وأمام الشعب وأمام التاريخ، وإن كنت أنا شخصياً أكره الوجود الأمريكي في قطر،

خير قيام، شكر الله له. وكنت قد سألت فضيلة الشيخ عن سبب رفع هذه الدعوى، وبخاصة وأن فضيلته تعرض لمثل هذه المواقف مرات عديدة، ولم يكن منه سوى إهمال هذه البذاءات وأصحابها، فأجابني فضيلة الشيخ: أن هذه البذاءات لم تخرج من فرد، وإنما خرجت من مؤسسة حيث إن الكلمة كانت «كلمة التحرير»، وثانياً أن الجريدة تابعت الكلام في عددين متتاليين (22، 23/9/2004)، وثالثاً: أن وراء هذا الهجوم أعداء كثر من الخارج يخططون ويدبرون. وحكمت المحاكم القطرية بتغريم هذه الصحيفة ومؤسسة النشر التابعة لها «الإمارات للإعلام» بغرامة تأديبية مقدارها (1000000) عشرة ملايين ريالاً قطرياً بتاريخ (14/4/2005م).

وأكره الوجود الأمريكي في الخليج، وأكره الوجود الأمريكي في بلاد العرب وفي بلاد المسلمين، وبلاد «الواق الواق» في اليابان أو في غيرها، أكره الوجود الأمريكي في كل مكان، ولكن هذا شيء وقتال هؤلاء شيء آخر.

لست مداحًا لأحد:

وبعض الناس قالوا: لماذا سكت العلماء أيام صدام حسين، الذين يقولون الآن بقتال الوجود الأمريكي. أين كانوا أيام صدام حسين؟ وأقول لهؤلاء: إن هذا الصوت لم يصدر منه في يوم من الأيام كلمة مدح أو ثناء لصدام حسين. بل كنت في معركة مع الخليجيين عامة، الذين كان كثير منهم أبقًا لصدام حسين، هؤلاء الذين يشتمون صدام حسين اليوم، كانوا يمدحونه ويوسعونه ثناء وإطراء أيام صولته وجولته، لعل هذا المنبر هو المنبر الوحيد الذي لم ينافق أحدًا. ومعظمكم يعايشني ويسمعني منذ سنوات ما مدحت صدام حسين، وأحمد الله أني في حياتي لم أشتغل مداحًا لأحد، لا حاكمًا ولا محكومًا، لا في مصر ولا في قطر، ولا في أي بلد من البلدان. لقد أتممت الثامنة والسبعين من عمري، وأحمد الله أنني عشت فيها عزيزًا كريمًا، لم أحن رأسي لمخلوق، ولم أعفر جبهتي إلا لله راعيًا أو ساجدًا، لا يستطيع أحد أن يتهمني أنني مالأت أحدًا أو نافقت أحدًا، وكلكم شاهدون على ذلك. إنني أعيش بالإسلام وللإسلام وحده، ولا أستطيع إلا أن أكون كذلك.

أتمنى أن تختم حياتي بالشهادة:

لقد هددني الموساد يومًا بالتصفية الجسدية، ووقفت على هذا المنبر وقلت: إنني لا أخاف الموساد ولا التهديد بالموت، مرحبًا بالموت في سبيل الله، والله ثم والله ثم والله: إنني لأتمنى أن تختم حياتي بالشهادة في سبيل الله.

صوتي كان أعلى الأصوات:

هؤلاء الذين يريدون أن يجعلوني من أتباع صدام، ويقولون: أين كان هذا الصوت أيام الهجوم على الكويت وغزو الكويت؟ والله لقد كان صوتي أول الأصوات التي ارتفعت بالتنديد بغزو الكويت والمعارضة لصدام. ومن هذا المنبر، صدرت أول خطبة وأقوى خطبة في مقاومة الغزو. وكانت خطبتي تذاع في الإذاعة الكويتية الخاصة، في كل ساعة يعيدون خطبتي!

لقد دعا صدام علماء المسلمين في مؤتمرات شتى وألحوا عليّ، ألح عليّ السفير العراقي هنا في قطر أن أحضر، فلم أحضر، ورصد الراصدون من رجال الحكم العراقي من حضر وقالوا: كل العلماء استجابوا لنا إلا عالمين اثنين: أبو الحسن الندوي في الهند، ويوسف القرضاوي في قطر. لم أستجب وأنا إلى الآن لم أزر العراق في حياتي. من يتهمني بأني مالأت هذا أو ذاك؟! خطيب مهووس:

أحب أن أقول أيها الإخوة: هناك خطيب مهووس في الكويت دعا من فوق المنبر حكومة قطر أن تسحب مني الجنسية القطرية، كأن الجنسية القطرية ثوب يخلع ويلبس، وهؤلاء نسوا أنني قطري حقاً، وأني أصبحت أحمل الجنسية القطرية كما يحملها أي قطري. إن في قطر رجالاً دافعوا عني أيام عبد الناصر، ودافعوا عني أيام بوش أيضاً. أراد عبد الناصر أن يسحبني من قطر لأذهب من الدار إلى النار، إلى السجن الحربي، ورفضت قطر، وكان ذلك موقفاً مشرفاً لقطر. وأراد بوش وأتباعه شيئاً واحداً من قطر: أن تسكت لسان القرضاوي!! فلم تقبل قطر ولا أمير قطر، ولم تفرط في حقي وأنا أشكر لهم ذلك، فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله.

وأحب أن أرخي العنان إلى هؤلاء الذين يطالبون بإسقاط الجنسية عني، وأفترض المستحيل، وعلماؤنا يقولون: فرض المستحيل جائز، هب أن قطر استجابت لمنطق هؤلاء الحمقى، وسحبت جنسيتي.

والله إن هذا لا يخيفني. إن أرض الله واسعة. الله تعالى يقول: {يُعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِيَّيْ فَاعْبُدُونِ} [العنكبوت: 56]، {قُلْ يُعْبَادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: 10]. هل تعجز الأرض على سعتها أن تهئ لي كوخا يسعني حيا، أو قبرا يسعني ميتا؟! لن تضيق الأرض بذلك. وأنا أؤكد ما قاله إمامنا الشافعي رضي الله عنه حينما قال:

أمطري لؤلؤا جبال سرنديب وفيضي آبار تبريز تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتًا وإذا مت لست أعدم قبرا
همتي همة الملوك، ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا
وإذا ما قنعت بالقوت عمري فلماذا أهاب زيदा وعمرا

أنا لا أخاف أحداً إلا الله، لقد اتخذنا شعاراً للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين يتمثل في هذه الآية الكريمة: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا} [الأحزاب: 39].

إن الذي يحز في نفسي: أنني وجدت الإعلام البريطاني في جملته أعدل وأصدق من الإعلام العربي والخليجي في جملته، الإعلام البريطاني الذي شنَّ عليَّ الغارة عدة أيام بمجرد أن قابلوني وحدثوني وحاوروني غيروا كلامهم تماما، ولكن الإعلام العربي للأسف يغالط ويكذب ويزور، ويقولني

ما لم أقل. وهذا من عجائب الدنيا، أنا لا يهمني هذا بحسبي أن أرضي الله تعالى، لا يهمني رضا الناس.

ومن في الناس يرضى كل وبين هوى النفوس مدى بعيد
رضا الناس غاية لا تدرك، ولكني أهتم بأن أرضي الله تعالى، إذا رضي
الله عني فما يهمني سخط الخلق وإذا سخط الله عليّ، فما ينفعني رضا الناس،
إن إرضاء الله تعالى هو الغاية والهدف، ولا يهمني أن تنتهي حياتي بموت
في سبيل الله، أسأل الله أن يختم لي به، وأنشد هنا ما قاله الصحابي الجليل:
خبيب بن عدي، الذي قدم إلى الخشبة ليصلب فكان نشيده:

ولست أبالي اقتل مسلماً على أي جنب كان في الله
وذلك في ذات الإله وإن يشأ بيارك على أوصال شلو ممزوع

* * *

(19)

تفجيرات مسرح قطر عمل مستنكر (256)

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

في يوم السبت الماضي التاسع عشر من شهر مارس حدث حادث غريب على هذا البلد الآمن المطمئن، غريب على أهل قطر وعلى سكان قطر، هذا الحادث قد عرفتموه وأبديتم استنكاركم له، واحتجاجكم عليه، هذا الحادث هو: التفجير الذي حدث في أحد المسارح، وبجوار أحد المدارس، وأصيب من أصيب فيه، وكان يمكن أن تكون الواقعة أكبر من ذلك، وأن تكون ضحاياها أكثر لولا لطف الله عز وجل، قتل فيها مدرس أجنبي يدرس اللغة الإنجليزية، واصيب فيها من أصيب من التلاميذ والأطفال والنساء والرجال. عدد قليل والحمد لله.

ماذا وراء هذا الحادث؟

ولكن المشكل ماذا وراء هذا الحادث؟ ما الذي جعل إنساناً مسلماً يعيش في قطر يرتكب مثل هذا الحادث الأحمق، الذي لا يدفع إليه عقل عاقل ولا دين متدين؟ لا نستطيع أن نعمم كما يعمم الكثير من الناس؛ ندين كل المصريين لأن هذا مصري، ندين كل المهندسين لأن هذا مهندس، ندين كل المسلمين لأن هذا مسلم، أو ندين كل المتدينين لأن هذا متدين، هذا خطأ. لا بد أن نبحت

(256) ألقيت هذه الخطبة في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في 25/3/2005م.

ونحلل. ماذا وراء هذا العمل من دوافع وأسباب؟ قالوا عن الرجل: إنه رجل مستقيم متدين يعيش عيشة طيبة. يعيش في مؤسسة مرموقة؛ يتقاضى راتبًا جيدًا، ويعيش في أسرة مستقرة. له زوجة وله أولاد، ولم يشكو أحد من رفقائه ولا من زملائه من سوء خلقه ولا من سوء معاملته.

فهم أعوج ومنطق أعوج:

ما الذي دفع هذا إنن إلى ارتكاب مثل هذا الحادث الأحمق؟

لابد أيها الإخوة أن يكون هناك خلل في الفكرة، آفة كثير من الناس الذين عرفناهم وجربناهم في عدد من الأقطار العربية والإسلامية، عرفناهم في مصر، عرفناهم في الجزائر، عرفناهم في الرياض في السعودية، عرفناهم في المغرب، عرفناهم في باكستان، عرفناهم في بلاد الخليج، عرفناهم في بلاد شتى.

آفة هؤلاء في عقولهم في أفهامهم في فهمهم الأعوج، في فهمهم الأعرج، في فهمهم للدين وفهمهم للحياة. هذه هي آفة هؤلاء، تلقي أحدهم من أناس لا نعلم ما هي معرفتهم بالدين. فتفقه تفقها أعوج فيه خلل من جهات عدة، استباح حرمة الدماء، واستباح حرمة الأموال، واستباح حرمة المن، وروع الأمنين، واستباح حرمة الخلق، وإيذاء الخلق. هذه الحرمات المصونة في الإسلام. استباح هذا بهذا الفقه الأعوج الأعرج الذي ورثه عن أسلاف سابقين، عرفتهم الأمة الإسلامية في تاريخها هؤلاء الأسلاف كانوا صوامًا قوامًا عبادًا قراء للقرآن، يصومون النهار ويقومون الليل، ومع هذا استباحوا دماء المسلمين.

الخوارج الذين جاءت الأحاديث في ذمهم من عشرة أوجه كما قال الإمام أحمد. هؤلاء كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «يحقّر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وقيامه إلى قيامهم، وصيامه إلى صيامهم، وقراءته إلى قراءتهم»⁽²⁵⁷⁾.

هكذا كان وصفهم في العبادة، ولكن «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»، يدعون أهل الأوثان ويقتلون أهل الإسلام، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم. هذه أفتهم قراء للقرآن، ولكن القراءة لا تجاوز الحناجر، لا تنتقل من الحناجر إلى الرأس، وإلى القلب حتى يفقهوه حق فقهه، وحتى يؤثر في فهمهم وسلوكهم آفة هؤلاء ليست في نياتهم ليست في ضمائرهم. أفتهم في رؤوسهم في عقولهم، هكذا كان الخوارج قديماً وهكذا كانوا هؤلاء حديثاً. الخوارج استباحوا دماء المسلمين، استباحوا أموال المسلمين، حتى إنهم استباحوا دم ابن الإسلام البكر، فارس الإسلام، وحكيم الأمة: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، استباحوا قتله وقتلوه، افتخر بذلك شاعرهم، يمدح قاتل علي رضي الله عنه وكرم وجهه يقول:

يا ضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ عند ذي العرش

إنني لأذكره يوماً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

قاتل علي بن أبي طالب، زوج البتول، وابن عم الرسول، قال عن قاتله:

أحسبه أوفى البرية عند الله ميزاناً هذا هو الخلل.

(257) رواه البخاري في المناقب (3610)، ومسلم في الزكاة (1064) عن أبي سعيد الخدري.

الإخلاص وحده لا يكفي:

رأينا هؤلاء الشباب المغررين المضللين، المخلصين في نياتهم، المختلين في عقولهم، رأينا هؤلاء يستباحون حرمة الدماء، وللدماء حرمة عظيمة في الإسلام وفي كل الأديان، كما قرر القرآن مع كتب السماء: {أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: 32] فكأنما قتل الناس جميعاً.

الاجترأ على قتل النفس الواحدة كالاجترأ على قتل الآلاف، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق»⁽²⁵⁸⁾ وليس قتل المسلم فقط هو المحرم. قتل المعاهد، قتل المستأمن، من كان له عهد فلا بد أن يرعى عهده: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا} [النحل: 91]، و{وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ أَلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} [الإسراء: 34].

جاء بعض الناس بعد صلح الحديبية، نفر من أهل قريش نفر ينضم إلى الرسول يحاربون معه، قال: «لا نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»⁽²⁵⁹⁾ نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم، لا نغدر، الغدر من صفات المنافق، وليس من صفات المؤمن. المنافق «إذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»⁽²⁶⁰⁾ والمؤمن ليس كذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «من قتل

(258) رواه النسائي في تحريم الدم (28/7)، والترمذي في الديات (1395)، وذكره الألباني في «صحيح الجامع» (5078).

(259) رواه مسلم في الجهاد (1787) عن حذيفة بن اليمان.

(260) إشارة إلى حديث عبد الله بن عمرو، رواه البخاري في الإيمان (34)، ومسلم في

معاهدًا أو معاهدًا لم يرح رائحة الجنة - لم يشم رائحة الجنة - وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»⁽²⁶¹⁾، وإذا عاهد عهدًا مؤبدًا أو مؤقتًا، أو أعطى أمانًا، إذا أعطاه المسلمون أمانًا، إذا أعطاه الحاكم إذا أعطاه أي فرد من الرعية، إذا أعطته امرأة.

أم هانئ بنت أبي طالب أعطت بعض أحمائها - أقارب زوجها - من المشركين أمانًا وأراد أخوها علي أن يخترق هذا الأمان فشكته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إني أجرت فلانًا وأراد ابن أم أن يفعل كذا وكذا! فقال: «لقد أجرنا من أجرت يا أم هانئ».

قتل المستأمنين لا يجوز:

ولذلك قرر العلماء: لو أن امرأة مسلمة أعطت مشرکًا محاربًا عهدًا وأمانًا؛ فلا يجوز أن نفرط هذا الأمان، فكيف إذا أعطته الدولة أمانًا؟ أعطته تأشيرة لا يدخل بهذه التأشيرة شك أنها أمان، أعطته إقامة ليعمل في البلد، وماذا يعمل؟ يعمل مدرسًا أم خبيرًا أم أي شيء كهذا، كيف تستباح حرمة؟ في الإسلام، له احترامه ولا يجوز أبدًا خرقه، في الإسلام لا يجوز أبدًا أن تغدر، ولا يجوز أن تخرق عهدًا. هؤلاء استباحوا حرمة الدماء، واستباحوا حرمة الأموال.

حرمة الدماء والأموال:

الإسلام يحافظ على الأموال: أموال الأشخاص، والمال العام، لا يجوز

الإيمان (58).

(261) رواه البخاري في الجزية والموادعة (3166) عن عبد الله بن عمرو.

إضاعة المال، النبي صلى الله عليه وسلم ينهي عن إضاعة المال، أو إهدار المال، أو إسراف المال، وكل مال له احترامه وخصوصاً مال الجماعة. وخصوصاً مال الأمة.

العلماء قالوا: المال العام مثل مال اليتيم، أي تشتد الحرمة فيه، ويشتد الإثم في إهداره لأنه ليس مال زيد ولا عمرو، بل مال الأمة كلها. الذي يدمر مبنى، أو يدمر مدرسة، أو يحرق سيارة، أو يفعل كذا ... هذا لا يجوز، الأموال لها حرمتها. الله عع يقول: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ} [البقرة: 188] أموالكم لم يقل لا تأكل مال غيرك، لأنه اعتبر مال الغير مالك، مال المجتمع.

نعمتان من أعظم النعم:

لا بد أن يتعاون المجتمع على صيانة الأموال لا يجوز إهدار الأموال، استهانوا بحرمة الدماء، واستهانوا بحرمة الأموال، واستهانوا بحرمة الأمن، الذي هو نعمة من أعظم النعم التي امتن الله بها على قريش، وطالبهم بعبادته وحده شكرًا لهذه النعمة، قال تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ 3 الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَعَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [قريش: 3، 4] أطعمهم من جوع وآمنهم، هاتان النعمتان اللتان يبحث عنهما الناس، الكفاية من العيش والأمن من الخوف.

نعمة الأمن:

لا يكفي أن تكون في رغد من العيش؛ إذا كنت تعيش خائفًا على نفسك، خائفًا على عرضك، خائفًا على أهلك، خائفًا على مالك. قال أحد الحكماء وقد سئل عن السعادة قال: السعادة في الأمن. فإني رأيت الخائف لا عيش له،

الذي يعيش في خوف ورعب فهذا لا عيش له. لا ينعم بالعيش، ولذلك امتن الله بهذه النعمة.

وحينما دخل يعقوب وأولاده إلى مصر قال لهم يوسف الصديق: {ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ} [يوسف: 99] آمنين لأن الأمن أهم شيء، من صفات الجنة أنها دار أمن، يقال لأصحاب الجنة: «ادخلوا بسلام آمنين» ومن أوصاف أهل الجنة أنهم {لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: 62] من الله على قوم سبأ أنهم كانوا يسировون في أسفارهم سالمين آمين، {سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا عَامِنِينَ} [سبأ: 18] الأمن نعمة عظيمة، الأمن وكفاية العيش، فإذا حرمهما مجتمع فقد ابتلي بشر بلية، كما حكى الله عن قوم فقال: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَدْقَفَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل: 112] الجوع والخوف بدل كفاية العيش والقمح - الجوع والخوف - أذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الإنسان في سربه في نفسه وجماعته من مقومات الشهادة الأساسية قال: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»⁽²⁶²⁾ هذه الثلاثة:

1 - الأمن في السرب أمن الإنسان في نفسه وجماعته.

2 - العافية في البدن أن لا يشكو من مرض يؤلمه.

(262) رواه الترمذي في أبواب الزهد (2346)، وقال: حسن غريب، ورواه ابن ماجه في الزهد (4141) عن عبد الله بن محصن الأنصاري، وحسنه الألباني في «الصحيح» (2318).

3 - عنده قوت يومه، ليس من الضروري أن يكون عنده الملايين أن يكون مطمئنًا على قوت يومه.

فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها، كأنما عنده القناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

ولذلك حينما يهمل الهلال من كل شهر يطالعه المسلم في السماء ويقول: «اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ربي وربك الله»⁽²⁶³⁾ بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام. كما يبحث الإنسان عن الإيمان يبحث عن الأمن، وكما يبحث عن الإسلام يبحث عن السلامة.

فهؤلاء استباحوا حرمة الأمن، وروعوا الأمنيين في دين يحرم ترويع الأمنيين بأي سبب من الأسباب، في غزوة من الغزوات خفق أحد الصحابة على راحلته، أخذته سنة من النوم، فأراد أحد الصحابة أن يمازحه، وكان معه كنانة فيها سهام فأخذ سهم من كنانته في هدوء وخفية، ففزع الرجل من النوم، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم هذه الفزعة فقال: «لا يحل لرجل أن يروع مسلمًا»⁽²⁶⁴⁾ هذا الترويع الخفيف الذي هدفه المزاح والمداعبة لا يحل، يحرم عليك أن تفزع أخاك، تقلقه من نومه، وقد خفق من تعبته ومعاناته، لا يحل لرجل أن يروع مسلمًا.

(263) رواه أحمد (1397) عن طلحة بن عبيد الله، وقال مخرجه: حسن لشواهده، ورواه الطبراني في «الدعاء» (903)، وعبد بن حميد (103)، والدارمي (1688).
(264) رواه أحمد (23064) عن رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وقال مخرجوا «المسند»: إسناده صحيح، ورواه أبو داود (5004)، والبيهقي في «السنن» (249/10).

وقوله «يروع مسلماً» ليس أن ترويع غير المسلم جائز لا، الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في حديث آخر: «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»⁽²⁶⁵⁾ أمنه الناس كل الناس.

الأمن للناس كل الناس. والعدل للناس كل الناس. قال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء: 58] هؤلاء استباحوا ترويع الأمنين في هذا المجتمع الذي يعيش الناس فيه في حرية، متمتعين بالنشاط والحركة لا يجدون تضيقاً، ولا يجدون تشديداً، ولا يجدون إخراجاً. هذه الأعمال الحمقاء، هي التي تسبب الإخراج والتفطيس والتضييق.

هؤلاء استباحوا كذلك إيذاء الخلق، لا يجوز للإنسان أن يؤذي أحداً. الإسلام رحمة، هكذا وصف الله هذا الدين، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: 107] وعبر النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه وعن شخصيته ووظيفته فقال: «إنما أنا رحمة مهداة»⁽²⁶⁶⁾، هو رحمة مهداة، ونعمة مسداة، رحمة للعالمين، ونعمة للمؤمنين. فلا يجوز للمسلم أن يتقرب إلى الله بإيذاء الآخرين، وهم لم يؤذوه، لم يرتكبوا في حقه إثماً. لماذا يؤذي هؤلاء

(265) رواه الترمذي في الإيمان (2627)، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه النسائي في الإيمان (4995) عن أبي هريرة، وهو عند البخاري ومسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»، البخاري في الإيمان (10)، ومسلم في الإيمان (41).

(266) رواه الحاكم (35/1) عن أبي هريرة، وصححه ووافقه الذهبي، ورواه الترمذي في العمل (685)، والبيهقي في «الشعب» (1446)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (490).

الناس؟ هؤلاء الذين كانوا يحضرون هذه المسرحية، من كان يحضرها في المدارس الأجنبية التي تعلم الناس هنا، ربما كان لي بعض التحفظات على هذه المدارس، ولكن هذا شيء، وأن تقتل أولادها شيء آخر. تلاميذ صغار كيف يستباح قتلهم؟!

أخلاقنا الحربية:

الإسلام في الحرب العلنية الرسمية التي تتواجد فيها الجيوش مع الأعداء المحاربين يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم في حديث بريدة: «لا تقتلوا امرأة، ولا تقتلوا وليداً، ولا تقطعوا شجراً» ولا تقتلوا وليداً. الأطفال لا يجوز قتلهم. فكيف نقتل هؤلاء الأطفال؛ ومعظمهم من أطفال العرب والمسلمين، وهب أن منهم من كان من أبناء الأجانب؛ من يبيح لنا قتل هؤلاء الأبناء؟ من يبيح لنا قتل الأجنبي الذي يعمل مدرساً، وقد أعطى الأمن منا، من الدولة والمجتمع؟ من يستبيح هذا؟ هذا أمر لا تجوز استباحته، هؤلاء ارتكبوا أفعالاً ليست من الإسلام بحال من الأحوال، نحن أيها الإخوة نقول لهؤلاء: أصلحوا هذا الخلل في رؤوسكم، في فقهكم هذا الفقه الأعوج. يجب أن يستقيم. من أين أخذتم هذا الفقه؟

التيار الوسطي لا يعرف العنف:

قالت جريدة الشرق الأوسط: إن هذا المتهم بارتكاب الحادث، أو الذي فعل الحادث لم يكن ممن يصلون خلف الشيخ القرضاوي في مسجد عمر بن الخطاب، هذه شهادة تهمنا، أنا أعتقد أن الذين يصلون في هذا المسجد، يصلون وراءنا التراويح كل عام لا يمكن أن يرتكب أحد منهم الحادث الأحمق الفاجر، لا يمكن. فقد استنارت عقولهم بالإسلام الصحيح، هؤلاء لا

نعرف من شيوخهم؟ من أساتذتهم الذين أخذوا عنهم، واقتبسوا منهم، وتعلموا عليهم؟ إن الإسلام لا يجيز قتل كل كافر غير مسلم، من قال هذا؟ اقرءوا سورة الممتحنة نزلت في الوثنيين المشركين قال الله تعالى: {لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِّنْ دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} 8 إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِّنْ دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الممتحنة: 8، 9] نهى عن موالاته المحاربيين وأمر ببر المسالمين، البر إليهم والإقساط إليهم: أن نعاملهم بالقسط والبر والعدل، والبر هو: الإحسان. القسط: أن تعطيمهم الحق الذي لهم، البر أن تزيد لهم شيئاً فوق الحق، القسط: أن تأخذ حقه منهم، البر: أن تتنازل عن بعض حقه، «تبروهم» عبر القرآن عن العلاقة بهؤلاء بلفظة «البر» التي نستخدمها في أقدس الحقوق بعد حق الله: حق الوالدين نقول: بر الوالدين {أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ}.

ألا تزر وازرة وزر أخرى:

ربما قال البعض: إن هذا من البريطانيين الذين يحاربوننا، ولكن أيها الإخوة. من الظلم أن نحمل جميع البريطانيين أو حتى جميع الأمريكيين إثم حكوماتهم. لقد خرجت مسيرات مليونية في بلاد دخلت الحرب في العراق. في بريطانيا، في إسبانيا، في إيطاليا، حكوماتها دخلت الحرب والشعوب تحتج على هذا بالملايين.

هل يجوز لي أن أقتل هؤلاء؟ هل يجوز لي أن أقتل عمدة لندن الذي وقف يدافع عن القضية الفلسطينية ويدافع عن دعاة الإسلام؟ هل يجوز أن نقتل هؤلاء؟ نريد لهؤلاء أن يتفقهوا في الدين وأن يعرفوا الحرمة، عندهم خلل في

فقه الجهاد، ظنوا الجهاد أن نحارب العالم كله⁽²⁶⁷⁾، الله تعالى يقول: ﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقْتَلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: 90] إنما نحارب من قاتلونا في الدين، وأخرجونا من ديننا وظاهرنا على إخراجنا. ومن يتول هذه الحرب هل يتولاه الأفراد؟ مشكلة هؤلاء أن أحدهم يعطي نفسه سلطة الإفتاء وسلطة القضاء وسلطة التنفيذ، هو أفتى بنفسه من معلومات وقشور تعلمها من هنا وهناك، أو من بعض الشيوخ الذين لا يحسنون أن يعلموا، أعطى نفسه سلطة الإفتاء، وأفتى نفسه، ثم سلطة القضاء، وحكم أنه يجب أن يفعل كذا، ثم سلطة التنفيذ. فهو النيابة والقضاء والشرطة جميعاً، هناك خلل في فقه الجهاد. ينبغي أن يفقهوا الجهاد حق الفقه.

يقول بعضهم: إن قطر فيها الأمريكان، ولهم قاعدة كبيرة. وهذا صحيح، ولكن الأمريكان دخلوا قطر باتفاق مع حكومتها، ربما لا نوافق الحكومة على هذا الأمر، الحكومة عقدت هذا بناء على اعتبارات وموازنات عندها.

الخطبة الثانية:

الحمد لله {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وأشهد أن سيدنا

(267) يتوهم بعض الشباب المتحمس أن علة قتال غير المسلمين هي الكفر فقط، وعليه فإنهم يرون حرب العالم كله، وهو رأي فقهي قال به بعض الفقهاء في القديم، وقد رد شيخنا على هذا الرأي ودعم رأيه «أن قتال غير المسلمين ليس لعة الكفر» بكثير من الأدلة والبراهين، وهو رأي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وللمزيد من هذا يرجع «فقه الجهاد» تحت الطبع.

وإماننا وأسوتنا وحبیبنا محمدًا عبد الله ورسوله، البشیر النذیر، والسراج المنیر، صلوات الله وسلامه علیه، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنته.

أما بعد:

صلاة أمريكية⁽²⁶⁸⁾.

فيا أيها الإخوة: في الجمعة الماضية حدثت حادثة من نوع آخر في أمريكا، وفي نيويورك. أمت امرأة المسلمين رجالًا ونساء. خطبت وأمتهم لأول مرة في تاريخ المسلمين، نحن الآن في سنة 1426 هـ أكثر من أربعة عشر قرنًا، لم يعرف في تاريخ الإسلام: أن امرأة صلت الجمعة بالمسلمين، حتى حينما اختيرت بعض النساء في مصر أو في الهند، أو في غيرها للولاية والإمارة؛ لم تؤم المسلمين، ولم تصل بهم، ولكننا في عصر العجائب، وعصر الغرائب. رأينا امرأة تصلي بالمسلمين وفي أي مكان في الكنيسة حيث رفضتها المساجد الإسلامية جميعًا، في شرق أمريكا وغربها، وشمالها وجنوبها، لم يسمح لها أي مسجد بأن تصلي الجمعة، فهي خرقت إجماع المسلمين في أمريكا، ولم يرحب بها إلا الكاتدرائية المسيحية في نيويورك، فصلت هناك والأمن حولها مدجج بالسلاح في كل مكان.

(268) أصدر فضيلة الشيخ قبل أن تصلي هذه المرأة صلاة الجمعة هذه فتوى، أنكر فيها فضيلته إمامة المرأة للرجال الأجانب. وأوضح فيها علة النهي، كما ندد الشيخ بهذه المرأة التي يراد من خلالها هدم الثوابت وزعزعة الأصول، بحجة المساواة بين الرجل والمرأة. وقد نشرت هذه الفتوى على موقع فضيلة الشيخ (qaradawi. net)، وموقع إسلام أون لاين.

علة حرمان المرأة من إمامة الرجال:

هذه المرأة على خلاف ما جاء به الإسلام، لأن صفوف الرجال في الأمام و صفوف النساء في الخلف والإسلام ليس عابثاً في هذا الإسلام له حكمة، الأمر أن الله خلق المرأة على جسم من شأنه الإثارة والفتنة. لحكمة يعلمها ونعلمها أيضاً نحن، ولهذا نهى الإسلام المرأة أن تصلي أمام الرجل، بل كانت السيدة عائشة حينما تؤم النساء وأم سلمة، تصلي وسطهن لا تصلي أمامهن، حتى المرأة لا تريد أن تنزل بجسمها أمامها، فقد تقول المرأة: ما أحلاها، ما أعظم قوامها، الخواطر تثور. فما بالك بالرجل؟ الإسلام حين قال هذا كان واقعياً ولذلك لم يقل عالم مسلم في القديم أو في الحديث: أن المرأة تؤم الرجال في صلاة الجمعة.

هناك اختلاف في صلاة الجماعة المحدودة كما أذن النبي صلى الله عليه وسلم لأُم ورقة⁽²⁶⁹⁾ أن تؤم أهل دارها، زوجها وأولادها وأحفادها، فكانت قارئة للقرآن، وهم لا يقرءون فأذن لها وجعل لها مؤذناً، يعني هي تصلي لكن المؤذن رجل، لكن الذي رأيت أنه المؤذن امرأة حاسرة، ورأيت النساء يصلين حاسرات، وما رأيت في حياتي إلى الآن امرأة تصلي حاسرة، أي امرأة، أينما تكون، وحتى مهما كانت، حينما تريد أن تصلي تضع الطرحة أو الخمار أو أي شيء على رأسها، وحتى في المدارس البنات حينما يردن قراءة القرآن، في المسجد نفس الشيء، احترنا لهؤلاء صليين حاسرات وصلين في

(269) حديث أم ورقة رواه أحمد في «المسند» (27282)، وضعفه محققوا «المسند»، وانظر تعليق فضيلة الشيخ على هذا الحديث في فتوى إمامة المرأة للرجال، في الجزء الرابع من «فتاوى معاصرة» «تحت الطبع».

صفوف الرجال، ورأيت بعيني هاتين: رجلاً وعن يمينه امرأة، وعن يساره امرأة، وأمامه امرأة. أي صلاة هذه؟!!

إنها أيها الإخوة صلاة مستوردة، كما أن هناك الهمبورجر الأمريكي، والكولا الأمريكية، والجينز الأمريكي، هناك الصلاة الأمريكية، هناك الإسلام الأمريكي الذي يراد أن يصدر إلينا. ولكن هذا الإسلام مرفوض مرفوض، حتى من أمة أمريكا، لم يكن من مطالب المرأة المسلمة في أي وقت من الأوقات، ولا في أي قطر من الأقطار، أن تفوز بالصلاة أمام الرجال، ما رأينا هذا.

المرأة تطلب أن تكون قاضية، أن تكون نائبة أن تكون كذا ... ونحن أجزنا هذا بشروطه وضوابطه أن تكون المرأة قاضية وأن تكون ممثلة في البرلمان، وأن تنتخب، وأن ترشح هذا⁽²⁷⁰⁾، وإنما أن يكون إمامة للرجال لم يقل به أحد. هذا الإسلام الأمريكي الذي يريد أن يشوه صورة هذا الدين، وأن يحرف تعاليمه مرفوض من أمة الإسلام، مرفوض من علماء الإسلام، مرفوض من أفراد الإسلام، من المؤسسات الإسلامية، من الجامعات الإسلامية، مرفوض من الأمة كلها.

نحن نحاول أن نحافظ على ثوابت ديننا، هناك ثوابت، وهناك متغيرات، هناك أشياء تقبل الاجتهاد وتقبل التجديد وتقبل التطور ولكن هناك أشياء لا

(270) أجاز فضيلة الشيخ للمرأة أن تنتخب، وأن ترشح نفسها للمجالس النيابية، وأصدر الشيخ في ذلك فتوى بين فيها جواز ذلك، كما ذكر الشيخ كذلك رأي من سبقه من الفقهاء في جواز توليها القضاء فيما تجوز فيه شهادتها، وهو رأي أبي حنيفة، وفي الجنايات كذلك كما قال الطبري وابن حزم. «فتاوى معاصرة» (ح2 ص372)، وما بعدها.

يجوز أن يمسه أحد ولا يدخلها تطوير ولا تغيير، ولا يدخلها اجتهاد ولا تجديد هذا أمر من الثوابت.

نسأل الله عع أن يحفظ على هذه الأمة دينها، اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلنا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيمننا وعن شمائلنا، ومن فوقنا ونعوذ بعظمتك أن نغتنل من تحتنا، اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، اللهم لا تكننا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقل من ذلك، اللهم أيد إخواننا المجاهدين في سبيلك حيثما كانوا، اللهم أيد إخواننا في فلسطين، وفي العراق، وفي كل مكان، اللهم أيدهم بروح من لدنك، وأمدهم بملا من عندك، وأحرسهم بعينك التي لا تنام، واكأهم بكفك الذي لا يضام، اللهم افتح لنا فتحاً مبيئاً، واهدنا صراطاً مستقيماً، وانصرنا نصرًا عزيزاً، وأتم علينا نعمتك، وأنزل في قلوبنا سكينتك، وانثر علينا فضلك ورحمتك.

ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، اللهم لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، وارفع مقتك وغضبك عنا، واجعل هذا البلد آمناً مطمئناً سخاء رخاء وسائر المسلمين. عباد الله يقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56]. اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. وأقم الصلاة.

(20)

الديموقراطية⁽²⁷¹⁾

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

اقترح علي بعض الأخوة - بمناسبة انعقاد منتدى الديموقراطية في الدوحة - أن أحدثكم عن الإسلام والديموقراطية⁽²⁷²⁾، ولاسيما أن بعض الذين يتحدثون عن الإسلام أنكروا الديموقراطية، وقالوا: إنها ليست من الإسلام في شيء؛ بل هي منكر يحاربه الإسلام، بل زعم بعضهم: أن الديموقراطية كفر، لأن الديموقراطية تعني: حكم الشعب للشعب، ونحن لا نرضى إلا حكم الله. {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: 50].

الديموقراطية عندهم: مبدأ مستورد من الغرب، والغرب عدو لنا وكافر بديننا، ولا ينبغي أن نستورد نظامًا من كفار بهذا الدين. إلى آخر ما قالوا.

لابد من تصحيح المفاهيم:

ولذلك وجب علينا أن نصحح المفاهيم، ونرد الشبهات، ونضع الأمور في نصابها، ونرد الفروع إلى أصولها. إذا أردنا أن نحكم على شيء حكمًا صحيحًا: ينبغي أن نتصوره تصورًا صحيحًا، العلماء يقولون: الحكم على

(271) أُلقيت هذه الخطبة في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في 2005/4/1م بمناسبة انعقاد منتدى الديموقراطية بالدوحة.

(272) لفصيلة الشيخ فتوى تحدث فيها بالتفصيل عن موقف الإسلام من الديموقراطية، فلتراجع. انظر: «فتاوى معاصرة» (2/636 - 651).

الشيء فرع عن تصورهِ، فإذا أردنا أن نحكم على الديمقراطية فلا يهمننا الاسم والعنوان.

بعض الناس يقولون: إنها اسم أجنبي، وهي شيء أجنبي، فيرفضها، لا عبرة بالأسماء والعناوين إذا اتضحت المسميات والمضامين، ابحث عن المضمون. ما مضمون الديمقراطية؟ هل مضمونها يوافق الإسلام أو يخالفه؟ هذا هو البحث الصحيح، أنا شخصياً لا أحب استخدام هذه الأشياء الكلمات الأجنبية، ولكن لا ينبغي أن تحول بيننا الرؤيا الصحيحة، ما معنى الديمقراطية؟ ما جوهر الديمقراطية؟ ما حقيقة الديمقراطية؟

عناصر الديمقراطية هل توافق الإسلام؟

الديموقراطية تتضمن عدة عناصر، ينبغي أن نبحت في هذه العناصر، هل يقبلها الإسلام؟

العنصر الأول: أن يختار الناس بإرادتهم الحرة من يحكمهم ويقود سفينتهم. هذا هو العنصر الأول.

العنصر الثاني: أن يختار الناس أهل الحل والعقد الذين يمثلونهم، ويحاسبون الحاكم، ويراقبون تصرفاته، ويقولون له: أحسنت أو أسأت «أي ما يسمون المجالس النيابية» هذا هو العنصر الثاني.

العنصر الثالث: أن يلزموا حاكمهم أو قائدهم بالاحتكام إلى دستور، وباعتبارهم مسلمين: يجب أن يستمد الدستور أحكامه ومواده من الشريعة السمحة، بما تمثله من سعة ومرونة، بعيداً عن التعصب المذهبي، والجمود الفقهي.

العنصر الرابع: أن يكون لهؤلاء من نواب الشعب هؤلاء من أهل الحل والعقد حق محاكمة هذا الحاكم. بحيث يقولون له: إنك أسئت. وأن يكون لعامة الناس حق النصيحة للحاكم. يكون لكل فرد الحق في أن ينصح له مشافهة، أو تحريراً؛ أو يكتب مقالة في صحيفة. هذا الأمر الرابع.

الأمر الخامس: أن يكون للشعب ممثلاً في نوابه: حق عزل هذا الحاكم إذا انحرف وجار عن الصراط المستقيم، إذا انحرف انحرفاً خطيراً لا يجوز له أن يبقى. من حق الشعب أن يقول له تنح، وأن يختاروا غيره. من حقهم أن يسقطوا الحكومة التي شكلها بعد ذلك.

العنصر السادس: أن يكون للناس الحق في الحريات العامة. أن تراعي حقوقهم الإنسانية. أن توفر لهم الحريات من: الحرية الدينية، الحرية المدنية، الحرية السياسية، الحرية الفكرية، حرية التعبير، حرية الصحافة، حرية تكوين الجمعيات وتكوين الأحزاب.

العنصر السابع: فصل السلطات بعضها عن بعض: السلطة التشريعية، السلطة القضائية، السلطة التنفيذية.

أمور سبعة، أو عناصر سبعة؛ لنبحثها في ضوء الشريعة الإسلامية.

حرية اختيار الحاكم:

أول شيء أن يختار الناس بإرادتهم الحرة؛ إمامهم أو رئيسهم أو حاكمهم، سمه ما تسميه، المهم لا يفرض عليهم حاكم يكرهونه، الإسلام حتى في الصلاة؛ النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم العبد الأبق حتى يرجع، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وإمام قوم

وهم له كارهون»⁽²⁷³⁾ - يؤمهم في مسجد، وهم حوالي عشرين، وثلاثين، أكثر، أقل، وهم كارهون له. يصلون وراءه لأنه ليس هنالك غيره، لأنه الإمام الراتب، إذا كان هذا في الإمامة يصلون وراءه لأنه ليس هنالك غيره، لأنه الإمام الراتب، إذا كان هذا في الإمامة الصغرى، فكيف في الإمامة الكبرى؟ للناس أن يختاروا حاكمهم، وأن يختاروه عن طريق البيعة، لا يلزم الناس أي حاكم إلا إذا بايعوه بيعة عامة، هذا هو الأصل، حتى لو استخلفه حاكم قبله، مثلما استخلف سيدنا أبو بكر سيدنا عمر⁽²⁷⁴⁾، الاستخلاف لا يعطيه حق الإمامة، الإمامة تكون ببيعة الناس، إنما صار سيدنا عمر إمامًا حينما بايعه الناس عامة، الإسلام يكره أن يحكم الناس المستبدون والجبابة والمستكبرون في الأرض «الفراعين».

الإسلام يكره الاستبداد:

الإسلام يكره حكم الفراعنة {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: 4].

يرفض الإسلام حكم الفراعنة، و«علا» يعني: طغي، إنه كان عاليًا من المسرفين، فرعون الذي تأله على الناس، وقال لهم: {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى}

(273) رواه الترمذي في الصلاة (360) عن أبي أمامة، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، والطبراني في «الكبير» (284/8)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (358/1)، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (1122).
(274) راجع تفاصيل استخلاف أبي بكر لعمر رضي الله عنهما في «البداية والنهاية» لابن كثير (18/7)، و«تاريخ الطبري» (238/4).

[النازعات: 24]، {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: 38]، الإسلام يرفض هذا الحكم لأنه حكم يستبد بالناس، ويجعل الناس عبيداً له، {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: 29]، هذا حكم الجبابة، فرعون يقول هذا، بينما يقول عن موسى {ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر: 26] موسى يظهر في الأرض الفساد، وفرعون يهدي إلى سبيل الرشاد!! هذه هي المعادلة. الإسلام يرفض حكم «الفرعين» و«الهوامين» و«القوارين»⁽²⁷⁵⁾، حكم فرعون وهامان وقارون والجبابة {وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [إبراهيم: 15].

يرفض الإسلام أن يحكم الناس فرعون مثاله! إنما يحكم الناس بحاكم يختارونه، ويحبونه، ويدعون له، في الحديث الصحيح: «خير أمراكم الذين تحبونه ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم» تصلون عليهم أي: تدعون لهم تحبونهم، ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، تدعوا لهم ويدعون لكم، «وشر أمراكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»⁽²⁷⁶⁾ ليس هناك أي ثقة متبادلة بين الطرفين.

تجربة الانتخابات الحرة:

هذا أول بند في الديمقراطية: أن يختار الناس حاكمهم، الآن أصبح هناك وسيلة عصرية، اكتسبتها البشرية من تجاربها الطويلة مع المستبدين والطغاة، خلال هذا الكفاح الطويل، وصلت إلى تجربة هي: تجربة الانتخابات. أن الناس تروح تنتخب، فقط يكون عندي خيارات، يرشح عدد من الناس وأختار

(275) جمع فرعون وهامان وقارون وهو على غير القياس.

(276) رواه مسلم في الإمامة (1855) عن عوف بن مالك.

أحدهم، فقط يكون لكل الناس الحرية في أن يرشحوا أنفسهم، وحينئذ أقول: أختار هذا أو ذلك. حاكم واحد يختاره الناس كما هي الطريقة الاشتراكية، كما قال بعض الكتاب الذين نقدوا الاشتراكية: إن الانتخابات في البلاد الاشتراكية: سباق يعدو فيه حصان واحد، يختار فلان ولا هو ... كيف هذا؟ وأحياناً تكون لعبة مكشوفة، يتاح فيها الترشيح لشخصيات محددة، لا حرية حقيقية للترشيح، وإنما يرشح أناس لا قيمة لهم ولا وزن، كأنه لا شيء، أول بند في الديموقراطية أن يختار الناس حاكمهم ورئيسهم، حيث يحبهم ويحبونه، ويرضون عنه ويرضى عنهم.

حرية اختيار النواب:

الأمر الثاني: أن يختار الناس ممثلهم، كان المسلمون يسموا الممثلين: ما نسميهم الآن: مجلس الشعب، مجلس الأمة، مجلس الشورى، مجلس النواب، كانوا يسمونهم: أهل الحل والعقد، أهل الحل والعقد قديماً معروفين خصوصاً في المجتمعات الصغيرة، والمجتمعات البسيطة غير المركبة وغير المعقدة، الناس يعرفون شيوخ القبائل، كبار أهل العلم، أهل المكانة والرأي والحكمة، فلان وفلان وفلان، إذا اجتمعوا على رأي أطاعتهم الأمة كلها، كما قال سيدنا عمر لأصحاب الشورى إذا اجتمعوا، الأمة كلها تطيعهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، أبو عبيدة الجراح، هؤلاء إذا اجتمعوا على واحد الأمة كلها ستطيعهم.

ولكن في عصرنا لم يعد أهل الحل والعقد معروفين، المجتمعات اتسعت خصوصاً المجتمعات الكبيرة. كيف يعرف أهل الحل والعقد في سبعين مليوناً في مصر؟ أو مائة وخمسين مليوناً في باكستان؟ أو في بنغلاديش، أو مائتين

وعشرون في الهند، وآسيا؟ كيف؟ لا أعرف هؤلاء. لا بد أن تقسم البلاد إلى دوائر، وكل دائرة يرشح فيها أناس يعرفهم أهل الدائرة، وينتخبونهم.

الحكمة ضالة المؤمن:

هذا الانتخاب أمر عرفته البشرية ولا مانع أن نفتبس من غيرنا ونستفيد من تجارب التاريخ، «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها»⁽²⁷⁷⁾ النبي صلى الله عليه وسلم أشار عليه سلمان الفارسي في غزوة الأحزاب وقد جاءت قريش، وغطفان، وأحابيشهما، يغزون المسلمين في عقر دارهم، فأشار عليه سلمان قبل أن يأتي هؤلاء أن يحفر خندقاً حول المدينة، كنا في فارس مثل هذه المآزق نعمل خندقاً يحول بين الغزاة وبين الدخول على المدينة⁽²⁷⁸⁾، فاستحسن النبي صلى الله عليه وسلم رأي الفارسي، كانت بعض الكتب تأتي إلى الرسول، وكان صلى الله عليه وسلم يرسل كتباً فقالوا له: بعض الناس كانوا يتخذون خاتماً فلو أنك اتخذت خاتماً، لو أنك أرسلت إلى ملك بدون خاتم ما يعتبر هذا الكتاب⁽²⁷⁹⁾، رأوه يخطب على جذع النخلة واتسع المسجد بالناس قالوا له: لو عملنا لك منبراً، وجاءوا

(277) رواه الترمذي في العلم (2687) عن أبي هريرة، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه في الزهد (4169)، وذكره الألباني في «ضعيف الترمذي» (506).

(278) انظر: «المغازي» للواقدي (444/2)، و «الطبقات الكبرى» لابن سعد (66/2).
(279) إشارة إلى حديث أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب إلى رهط، أو أناس من الأعاجم، فقيل له: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا عليه خاتم، فاتخذ النبي صلى الله عليه وسلم خاتماً من فضة ... رواه البخاري في العلم (65)، ومسلم في اللباس والزينة (2092).

له بنجار رومي صنع له منبرًا من ثلاث درجات⁽²⁸⁰⁾، هكذا لا مانع.

نتبع في أمور الدين ونبتدع في أمور الدنيا:

سيدنا عمر أخذ نظام الخراج من الفرس، وأخذ تدوين الدواوين من الروم، من دولة الروم البيزنطية. لا بأس به، بعض الناس يقولون: هذا إحداث في الدين! ليس هذا إحداث في الدين هذا ليس ديننا. الأمر الديني المحض هو الذي ينبغي فيه الاتباع. نحن نتبع في أمور الدين، ونبتدع في أمور الدنيا، هذه أمور الدنيا، أمور العادات. ولذلك المسلمون ابتكروا علومًا لم تكن في عهد النبوة، ولا في عهد الخلافة، علم أصول الفقه، علم النحو، علم البلاغة، علوم القرآن، علوم الحديث. أشياء ما كانت في عهد النبي، ولا في عهد الراشدين، ظهر التطور، فنحن نقتبس من غيرنا نظام الانتخابات، لأنه لا يمكن الوصول لأهل الحل والعقد إلا بهذا، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

محاسبة الحاكم حق للمحكومين:

الأمر الثالث: لذلك أيها الإخوة ينبغي أن يكون للشعب عامة، ولنواب الشعب من أهل الحل والعقد خاصة محاسبة الرئيس أو الأمير أو الملك سميها ما شئت، لا يهمننا التسمية. قائد السفينة، أنه لك حق النصح له، حق محاسبته، حق مراقبته، أن تقول له: أحسنت، أو نقول له: أسأت، هذا لا يجوز، وهذا أمر أقره الإسلام، سيدنا أبو بكر أول خطبة خطبها سموها خطبة العرش.

(280) إشارة إلى حديث أبي بن كعب، حيث قال أحد الصحابة: هل لك أن نجعل لك شيئًا تقوم عليه يوم الجمعة ... رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (1414)، والحديث عند مسلم أن النبي قال لامرأة: «انظري غلامك النجار، يعمل لي أعوادًا أكلم عليها الناس...». رواه مسلم في المساجد (544) عن سهل بن سعد.

أول خطبة قال: أيها الناس إنني وليت عليكم ولست بخيركم، إن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني، القوي فيكم هو الضعيف عندي حتى أخذ الحق منه، والضعيف فيكم هو القوي عندي حتى أخذ الحق له، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم⁽²⁸¹⁾، وكان عمر يقول: رحم الله امرءاً اهتدى إليّ عيوب نفسي. مرحباً بالناصح أبد الدهر مرحباً بالناصح غدواً وعشيّاً، قال له أحد الناس: اتق الله يا ابن الخطاب. فقال له بعض أصحابه: أتقول هذا لأمر المؤمنين فقال له: دعه يقولها. لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها.

لا بد أن يقال للأمير اتق الله في بعض الأوقات، قال بعض الحكام: من قال لي اتق الله ضربت عنقه. هذا ليس في الإسلام من شيء، لا خير فيكم إن لم تقولوها. بل عمر بن الخطاب كان يقول: من رأى فيّ اعوجاجاً فليقومني. فقام أحد الأعراب وقال: والله يا أمير المؤمنين لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا، فلم يقل: اقبضوا عليه، ولكن قال: الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقوم اعوجاجه بحد سيفه.

الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، رؤسائهم وجماهيرهم، هذا حديث⁽²⁸²⁾ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنصح للحاكم، من حق أي أحد أن يقول للحاكم، أن ينصحه، ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف. فهذا حق الناس، ومن حق نواب الأمة خاصة الرئيس، ينصح له وخصوصاً إذا كانت

(281) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (82/6).

(282) إشارة إلى حديث تميم بن أوس: «الدين النصيحة...» رواه مسلم في الإيمان (55).

هناك حكومة ممثلة، هو يشكل حكومة وتكون هي المسئولة، هذه الحكومة يسألونها عن كل شيء، عن الأمور المالية، وعن الأمور الاجتماعية، عن الأمور الإدارية، هذا هو معنى الشورى الحقيقية {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}، يتداولون كل الأمور {وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ}.

التزام الحاكم بمنهج الشرع:

الأمر الرابع: أن يلزموا هذا الحاكم أو هذا الرئيس أو هذه الحكومة، أن يلزموها باتباع منهج الشريعة الذي ارتضاه الله لعباده، وأن يصاغ هذا المنهج وأصوله في شكل دستور يفصل الحقوق والواجبات والعلاقات، الآن نجد الأمم تحتكم إلى دستور؛ لأنه لا نستطيع في كل أمر أن نرجع إلى كتب الفقه، والمذهب الحنفي يقول: كذا، والمذهب الشافعي يقول: كذا، والحنبلي يقول: كذا، ويختلف الناس، لا، فالواجب أن نحتكم إلى قواعد ترتضيها الأمة تؤخذ من الشريعة الإسلامية، تستمد من نصوص الشريعة المحكمة ومن قواعد المرعية، ومن مقاصدها المنضبطة، على الأقل أن لا يكون في هذا الدستور ما يخالف الشريعة، يصاغ هذا في دستور، ويحتكم إليه الناس، مأخوذ من مصادرها الإسلامية. كما قنن المسلمون في أواخر عهد الدولة العثمانية القانون المدني، قننوه في أحكام مواد «مجلة الأحكام» المادة كذا، والمادة كذا، ليرجع أهل الشأن إليها، هذا لا مانع منه. المهم أن يكون عندهم منهج يلتزم به {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ} [الحج: 41].

وعلى أساس هذا الدستور المستمد من الشرع نحاسبه ونقول له: جرت أو عدلت عن هذا الدستور أو انحرفت، كما تحاسب الحكومة كذلك.

حق الأمة في إسقاط الحكومة، بل عزل الحاكم:

الأمر الخامس: أن يكون من حق الأمة ممثلة في نوابها أن تسقط الحكومة، بل أن تسقط الحاكم نفسه، أن يكون هناك حق دستوري لو انحرف، لو كفر كفرًا بواحا عندنا فيه من الله برهان، لو باع نفسه للشيطان أو لأعداء الأمة، وخان دينه وأمته، لا بد أن يكون من حق الأمة أن تقف موقفًا وتقول: هذا خائن، والخائن لا يجوز أن يحكم الأمة. ويتم هذا بصورة سلمية.

للأسف نحن - العرب والمسلمين - ليس عندنا حتى الآن صورة سلمية نتخلص بها من الحاكم الطاغوي أو الظالم أو الجائر، ليس عندنا ذلك إذا لم يحدث عليه انقلاب أو يموت، «أي عزرائيل يخلصنا منه» لا نستطيع أن نفعل شيئًا! لا بد أن تكون هناك وسائل سلمية لهذا الأمر.

توفير الحريات العامة للشعب:

الأمر السادس: لا بد أن تتوافر الحريات العامة لهذا الشعب بحيث لا يكره على شيء لا يريد ولا يرتضاه، ولا يقاد رغم أنفه. بمعنى أن تتوافر له كل الحريات: الدينية والسياسية والتعبيرية وغيرها.

{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: 256]، {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ

حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس: 99].

عاش غير المسلمين في بلاد الإسلام لم يجبروا على شيء يخالف دينهم، أبدًا لهم الحرية في عباداتهم داخل كنائسهم، الاحتفال بأعيادهم، يصلون كما يشاءون، ويصومون كما يشاءون، بل لم يجرج عليهم فيما هو مباح لهم؛ وهو محرم في الإسلام. مثل: أكل الخنزير، وشرب الخمر. أشياء محرمة،

الخمير عندنا أم الخبائث والخنزير رجس. ومع هذا لم يجرح عليهم الإسلام في هذا، تركهم. أباح لهم دينهم هذا فلا نضيق عليهم فيما وسعه عليهم دينهم، أي حرية أعظم من هذه الحرية؟! الحرية الدينية⁽²⁸³⁾.

الحرية الفكرية والعلمية:

الإنسان يبحث كما يشاء، ويصل إلى ما يشاء، ولا يلزم إلا بما اقتنع به عقله، ووصل إليه اجتهاده. الحرية التعبيرية كل أحد يعبر عن رأيه، بالعكس التعبير عن الرأي في الإسلام يعتبر واجباً يسميه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر واجب، الحق يمكن أن تتنازل عنه، إنما الواجب لا يمكنك أن تتنازل عنه.

الحرية السياسية:

المعارضة ... قضية النقد ... تكوين الجماعات والأحزاب، سيدنا علي رضي الله عنه كان يعارضه الخوارج. والخوارج بتعبير عصرنا حزب له قيادته وله أفكاره الخاصة، وله برنامج في التغيير والإصلاح. وكان حزباً مسلحاً. وسيدنا علي حينما سمع أحدهم يقول: «لا حكم إلا الله» يعني يعترض على سيدنا علي لأنه قبل التحكيم بينه وبين معاوية، فقال: كلمة حق يراد بها باطل، لأنه ليس معنى «لا حكم إلا الله» أنه يعني لا يحكم الناس في أمورنا، لا التحكيم في أمورنا الحياتية جائز، القرآن ذكر التحكيم حتى في الصيد؛ إذا واحد قتل غزاة وهو محرم فكيف نقومها: {يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَلِّغْ

(283) للمزيد من معرفة حقوق غير المسلمين راجع ما كتبه فضيلة الشيخ في كتابه «غير المسلمين في المجتمع المسلم» طبعة ونشر مكتبة وهبة.

الْكُفَّةِ} [المائدة: 95]، في العلاقة بين الزوجين إذا اختلفا: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا} [النساء: 35] التحكيم في الأسرة يبقى في أمور الأمة - لا هذه كلمة حق يراد بها باطل - ثم قال لهم: لكم علينا ثلاث:

أولاً: أن لا نمنعكم مساجد الله أن تصلوا فيها.

ثانياً: وألا نمنعكم حاكم من الغنيمة والفيء إذا كانت سيوفكم مع سيوفنا، إذا ذهبتم معنا تأخذوا حاكمكم.

ثالثاً: وأن لا نبدأكم بقتال.

ما دمتم لا ترفعون السيف علينا فنحن لا نبدأكم بقتال.

هذا حزب سياسي، حزب معارض، ويستخدم القوة، يقول لهم: ما دمتم لا تستخدمون القوة، ولا تشهرون السلاح فلكم حق الوجود، ولا حرج عليكم، حرية سياسية. كل الحريات موفرة في الإسلام.

في عهد سيدنا عمر سمع أصوات في بعض البيوت فيه مجلس سوء، فتسور عليهم الجدار، ودخل عليهم، وضبطهم متلبسين. فقالوا: يا أمير المؤمنين. إذا كنا أخطأنا خطأ واحداً فقد أخطأت ثلاثة: أول خطأ أن الله قال: {وَلَا تَجَسَّسُوا} [الحجرات: 12]. وقد تجسست علينا، الخطأ الثاني أن الله قال: {وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} [البقرة: 189]. وأنت تسورت علينا الجار، ثالث خطأ أن الله قال: {لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا} [النور: 27]. وأنت لم تستأنس، فتحدث معهم، واصطاح معهم على ألا يمسه بشيء، على أن يتوبوا إلى الله، هذه هي الحريات التي كانت موجودة في

الإسلام.

فصل السلطات:

الأمر السابع بعد ذلك: فصل السلطات بحيث لا تطغى سلطة على سلطة، وتستخدم كل سلطة سيادتها، السلطة القضائية لها سيادتها، السلطة التشريعية لها سيادتها، والسلطة التنفيذية لها سيادتها، كثيراً ما تتدخل السلطة التنفيذية في السلطة التشريعية، أو في السلطة القضائية. لا. في الإسلام - صحيح - الإمام هو الذي يولي القاضي. ولكن بعد أن يوله يصبح مستقلاً تماماً، حتى يمكنه أن يحكم على الخليفة الأعظم.

وقد حدث في التاريخ الإسلامي قضاة حكموا على الخلفاء. فهكذا حتى أن أحد القضاة - شريح - حكم على سيدنا علي وقد احتكم هو ونصراني إليه، فحكم للنصراني على أمير المؤمنين. وهذا الرجل حينما رأى ذلك بعد ما كان قد أخذ درع أمير المؤمنين وادعى أنه له، وهو لسيدنا علي، درع سقطت منه، بعد هذا رجع وقال: قفوا! أما إنني أشهد أن هذه أحكام أنبياء، أمير المؤمنين يدنيني إلى قاضيه، فيحكم القاضي للنصراني على أمير المؤمنين. هذه أحكام أنبياء، أما إنني أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فالدرع درعك يا أمير المؤمنين. - السلطان نفسه - .

هذه بضاعتنا ردت إلينا:

هذا ما تدعو إليه الديمقراطية، هذه هي شريعتنا، ما يزعم أنه من الديمقراطية هو من الشريعة، قالوا: الديمقراطية حكم الشعب، ونحن نريد حكم الله، من قال: إن حكم الشعب يقابله حكم الله، لا حكم الشعب يقابله حكم

الفرد المطلق، حكم المستبدين، حكم الطغاة، حكم نمرود الذي قال حينما قال له إبراهيم {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ} [البقرة: 258]، وجاء باثنين حكم عليهما بالإعدام، أما أحدهما فقطع رأسه. قال: أمته. والثاني: قال: عفوت عنه، وهذا أحييته، أنا أحيي وأميت أيضاً. الإسلام يرفض هؤلاء الطغاة، هذا هو الحكم الذي يرفض، حكم الفرد المطلق حكم الطغاة المستبدين حكم «الفراغنة» «النماردة» هذا هو الذي يرفضه الإسلام.

ما سند السلطة السياسية؟ سندها الشعب، إنما السلطة التشريعية سندها الشريعة، مرجعها الشريعة الدولة الإسلامية دولة مدنية مرجعها الشريعة، ليست دولة دينية بالمعنى الغربي، لا هي دولة مدنية يحكمها المدنيون الملتمزمون بالإسلام، لا يحكمها كهنة. ليس في الإسلام كهنوت رجال أقوياء. لا يولي إلا الكفاء:

كان سيدنا أبو هريرة من أحفظ الصحابة للحديث، ومع هذا لم يعط ولاية ولا كذا ... أعطيت الولاية لعمر بن العاص لأنه كفاء، الآن الولاية يعطاها أكفؤها يعطي الأكفاء ولاية الناس والإمارة عليهم. الابتداع مرفوض في أمور الدين فقط:

هذا هو الإسلام: حكم الشعب، ويقولون: إن هذا إحداث في الدين. ليس هذا إحداثاً في الدين. هذا من أمور العادات، أمور العادات يستحدث فيها، «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها»⁽²⁸⁴⁾ ولذلك روى التاريخ

(284) إشارة إلى حديث جرير بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص

عن سيدنا عمر عدة أشياء ابتكرها سيدنا عمر. يسميها المؤرخون الأوليات. أول من فعل كذا عمر. أول من دون الدواوين، أول من مصر الأمصار، أول من وضع التاريخ الهجري، أول من اتخذ دارا للسجن. مجموعة أوليات أشياء ابتكرها.

الجمود في أمور الدنيا سبب تأخرنا:

من قال: إن الابتداع في أمور الدنيا والابتكار فيها يعتبر بدعة في الدين؟! هذا فهم خطأ وإلا لوقفنا. بالعكس المسلمون إنما صنعوا الحضارة يوم اتبعوا في أمور الدين، وابتدعوا في أمور الدنيا، وإنما دار عليهم الزمن وأصبحوا في المخلفين، وفي آخر القافلة، وذيل القافلة، حينما جمدوا أمور الدنيا وابتدعوا في أمور الدين.

نحن لا يصلح لنا إلا ما يسمى الديمقراطية. لا بد أن نسميها بهذا الاسم، ولكن نسميها الشورى. حياة الشورى، حياة البيعة، حياة الحريات العامة، حياة الالتزام بالذات التي تقيد من تصرفات السلاطين المستبدين، لا بد أن نحيا هذه الحياة ولا نعيش متخلفين ويقال: الإسلام هو وحده الذي يقر الاستبداد، والذي يقر الطغيان من الحكام، والذي لا يستطيع الشعب فيه أن يقول: لا، والله لو كنا مسلمين حقًا لاستطعنا أن نقول: لا بملء فينا، هذا ما يريد الإسلام منا، يريد أن نحيا أحرارًا في ديارنا، وأن نحكم بحكام منا {يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: 59]. منكم. ليسوا مفروضين عليكم، هم منكم وأنتم منهم، وهذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه

الإسلام. هذه حياة الشورى.

الديمقراطية ليست هي مجرد الشورى؛ لا. هي الشورى والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة حكم الفراعنة، حكم الظلمة والمستبدين، مجموع هذه كلها هي التي تقر نظام الحكم في الإسلام.

نسأل الله تعالى: أن يفقهنا في ديننا، وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينجنا بما علمنا، إنه سميع قريب. أقول قولي هذا، واستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم. وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ}. وأشهد ألا إله إلا الله وحده ولا شريك له {سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التغابن: 1]. وأشهد أن سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبیبنا ومعلمنا محمداً عبد الله ورسوله، البشير النذير، والسراج المنير. صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وسار على دربه إلى يوم الدين.

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

نرفض الديمقراطية الزائفة:

ما أوجنا - نحن العرب والمسلمين - إلى ديمقراطية حقيقية، ديمقراطية في مجتمع مسلم، والديمقراطية في المجتمع المسلم يعني: أنها تكون ملتزمة بالشرعية الإسلامية، نحن لا نريد ديمقراطية سائبة تحلل ما تشاء.

بعض الناس قالوا: الديمقراطية يمكن أن تلغي الديمقراطية!! يأتي نظام

معين: ويتفق الحاكم معهم أن نلغي الديمقراطية. الأغلبية المطلقة ثلثين الأعضاء أو كذا ممكن بالإجماع. حتى يقولون: ليس هنالك ديمقراطية، قال بعض حكام العرب في يوم من الأيام: إن للديمقراطية أنيابًا تكون أحيانًا أشرس من الديكتاتورية، حينما توجه الديمقراطية لخدمة حاكم ما، ولخدمة نظام ما تصبح أشرس من الديكتاتورية، يستطيع الحاكم أن يقنن الظلم بواسطة أغلبية يملكها، بطريقة معينة يقنن المظالم. يصدر فيها أحكامًا تلزم الناس كما في كثير من البلاد.

عن طريق هذه الديمقراطيات الزائفة تصنع ديكتاتورية تحكم الناس. تهتز الديمقراطية، أخطر شيء على الشعوب هو الديمقراطية الزائفة، استفتت الناس استفتاء حرًا، الحقيقة: أن الناس يؤسوا من هذه الأنظمة، ويؤسوا من هذه الاستفتاءات، ويؤسوا من هذه الانتخابات، ويقول لك، الذي يريدونه يعملوه. لماذا أتعب نفسي؟! فتكون النتيجة تزوير، وما عرفناه دائمًا الأربع تسعات (9999)، لو واحد تواضع «خليها» (97).

الديمقراطية التي تأتي بالإسلاميين مرفوضة!!

هذه هي الديمقراطيات الزائفة، التي يراد أن تروج في بلادنا. يقولون: إن أمريكا تريد تغيير بلادنا! وتحويلها إلى بلاد ديمقراطية! هل هذا صحيح؟! هل تريد ديمقراطية حقيقية؟ هي تريد ذلك بشرط واحد: ألا تأتي هذه الديمقراطية بمن يسمونهم الإسلاميين، حينما جاءت ديمقراطية في وقت ما في الجزائر بالإسلاميين رفضوهم، لا هؤلاء متعصبين وسيلغون الديمقراطية، طيب جربوهم كما تجربون غيرهم، وقفوا ضد هؤلاء، أحد حكام العرب في لقاءاته مع الأمريكان قالوا له: ارفعوا القيود، ووفروا

الحرية للناس، وحقوق الإنسان، وهذه الأشياء، قال لهم: أتدرون ما معنى ذلك قال: معناها أن يأتي الإسلاميون إلى الحكم، إن كنتم تريدون الإسلاميين يحكموا نرفع القيود، ونوفر الحريات، ونراعي حقوق الإنسان، ونعمل كل شيء حتى تقر أعينكم بحكم الإسلاميين، نحن نريد ديمقراطية حقيقية.

الإنسان المواطن يستطيع أن يقول: نعم، ويقول: لا، وصناديق الانتخابات الحرة البلورية، هذه يكون عليها إشراف قضائي حقيقي، ويتحمس الناس للذهاب إلى هذه الصناديق، ويعطوه رأيهم بكل حرية. نريد هذا في بعض البلاد العربية، نريد في بعض البلاد العربية تداول السلطة، بحثنا عن رئيس سابق في بعض البلاد العربية فلم نجد! في أمريكا في وقت من الأوقات كان فيه خمسة رؤساء في حفل من الحفلات، خمسة رؤساء جمهوريات سابقين موجودين كلهم. بوش الأب، كلنتون، وريجان، وكارتر، وفورد، نحن نبحت في حفل من الحفلات يحضر مع الرئيس الحالي لا يوجد، في السودان: عبد الرحمن سوار الذهب الرجل من زهده عمل شيئاً لم يعمله أحد من الدول العربية؛ وتنازل عن الحكم مختاراً حرّاً ... فيه لبنان ... إنما بعض الدول العربية لا بد إما أن يأتي «عزرائيل» ويخلصك من الرئيس أو يحدث انقلاب عليه، لا يوجد أحد انتهت مدته جلس أربع سنين أو ثمان أو حتى خمس أو ... وبعد ذلك يقول: أنا اكتفيت أدع المجال لغيري، لا «كابس» على نفس الأمة - لا يمكن - .

من بدع الديمقراطية عندنا:

يا ليتهم وقفوا عند هذا الحد! إنهم لم يكتفوا بهذا: ابتدعوا بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. ابتدعوا بدعة توريث الحكم لأبنائهم. رأينا

الملكيات الدستورية فيها التوريث، ورضي الناس بهذا، إنما هذا نظام جمهوري. هل هناك جمهورية وراثية في العالم؟ لا يوجد إلا في بلادنا نحن العرب، نحن نورث الملك لأبنائنا ولأحفادنا. لكن بطريقة رسمية لطيفة ظريفة. نغير الدساتير ونغير الأشياء ليرث الأبناء الآبار، والأحفاد الأجداد، هذه أمتنا.

هذه الديمقراطية التي يقولون عنها، والتي ترضى عنها أمريكا، وتسكت عنها، وتغض العين ولا تقول شيئاً. «شيلني وأنا أشيلك» اسكت عني وأنا أسكت عنك.

هل هذه الديمقراطية؟ ليست هذه هي الديمقراطية التي ننشدها لبلادنا ولشعبونا. نحن نريد ديمقراطية حقيقية، سليمة، صحيحة، يختار الناس فيها بإرادتهم الحرة. نريد أن نختار بإرادتنا الحرة. هذا ما نريده لشعبونا.

نسأل الله عز وجل أن يبصرنا بالحقائق، وان يفقهنا في الدين، وأن يبصرنا بأمور الدنيا، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، اللهم اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، اللهم أكرمنا ولا تهنأ، وأعظنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وأثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، اللهم طهر أقوالنا من اللغو، وأعمالنا من العبث، وأنفسنا من الضعف، وقلوبنا من الغش، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة وعباداتنا من الرياء، وحياتنا من التناقض، ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم. اللهم ارفع مقتك

و غضبك عنا، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، واجعل هذا البلد آمناً مطمئناً رخاء وسائر بلاد المسلمين، عباد الله يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

اللهم صلي وسلم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وأقم الصلاة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 45].

* * *